

أ. محمد عالي الحيسن

لَيْلَةُ قَطْفِ الْأَزْهَارِ

مذكرات ناج من جحيم المخابئ السرية
بأكادير أكدر وقلعة مكونة

أ. محمد عالي الحيسن

لَيْلَةُ قَطْفِ الْأَزْهَارِ

مذكرات ناج من جسيم المخابئ السرية
بأكادير أكدز وقلعة مكونة





- عنوان الكتاب: ليلة قطف الأزهار
- تأليف: محمد عالي الحيسن
- النوع: مذكرات
- تصميم الغلاف: زكريا رقاب
- تنسيق داخلي: رؤوف بن الجودي
- رقم الإيداع: 2-09-646-9969-978
- الطبعة: الأولى 2026



✉ الايميل: achenkedhe@gmail.com
☎ رقم الهاتف: +972 511 278 697 (213)
📍 العنوان: حي موساني - تندوف

© جميع الحقوق محفوظة

يمنع منعاً باتاً إعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال، سواء كان ذلك عن طريق النسخ، التصوير، التخزين الإلكتروني، إدراجه ضمن أنظمة استرجاع المعلومات، أو نقله بأي وسيلة تقنية أو تقليدية، دون الحصول على إذن خطي مسبق وصريح من دار النشر. يُعتبر أي انتهاك لهذا الحق تعدياً على حقوق الملكية الفكرية يعرض مرتكبه للمساءلة القانونية.



إهداء

إلى كل من عاش الاختفاء القسري وعانى من ظلم الجلاّد.
إلى أمي وكل أمهات المختفين قسرا اللاتي انتظرن بصمت وألم خبرا عن
بناتهن وابنائهن من سراديب الظلام.
إلى نساء قاومن بالصبر وبالحرمان وبالصمود تحملن ضيق مكان
المخابئ السرية في غياب أبسط الحقوق.
إلى شيوخ وشباب عشت معهم محنة العبث وجبروت القهر والعذاب.
إلى كل من ساعدني في كتابة هذه الصفحات لفضح مرحلة عرفت
بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان وإدانة الممارسات البشعة التي
مورست علينا.
إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع.

تقديم

إن كتاب: ليلة قطف الأزهار... هو حصيلة ما علق بذاكرة طفل لم يبلغ سن الرشد، غيبته إرادة الظلم والجبروت عن فصول الدراسة بالمرحلة الثانوية لفترة تقارب ستة عشرة سنة، ما بين 1976 و1991 من القرن الماضي، إلا أن ذلك لم يفل من عزمه ولم يكسر إرادته فقرر أن يكشف المستور عندما توفرت له ظروف ذلك، وهكذا ولد هذا العمل الهام المكون من : توطئة فرضها على الكاتب ذي المرجعية الحقوقية شعوره بواجب التعريف بحقوق الإنسان مساهمة في محاولة تحصين المجتمع من تكرار الجريمة، ثم تلا ذلك مدخل كشف فيه عن مرحلة من الصراع الداخلي بين الخوف من كشف المستور والخضوع لعادة التشبث بالثقافة الشفوية والعزوف عن خوض مغامرة الكتابة من جهة، وبين الإقدام على كسر جدار الصمت وفضح الماضي الأليم واقتحام مغامرة الكتابة بما لها وما عليها.

بعد تلك التوطئة، وذلك المدخل، ينتقل المؤلف إلى صلب الموضوع ليعرضه في خمس محطات (فقرات)، هي: ليلة الاختفاء القسري، رحلة إلى المجهول (أكادير)، رحلة الموت (أكدز) رحلة الألم (قلعة مكونة)، وخبر الإفراج.

إن الكاتب خلال رحلته بين دفتي هذا الكتاب لم يقيد نفسه بنمط محدد في الكتابة، وخيرا فعل، فبالرغم من العنوان: مذكرات ناج... فقد تحدث عن حقوق الإنسان والمواثيق الدولية، كما عاد إلى الأحداث التاريخية الهامة في وطنه، غير ناس ملامسة العلاقات الاجتماعية في المدينة التي ترعرع فيها، ليغوص بعد ذلك في تفاصيل ما عاشه وما كان شاهدا عليه من جرائم

ومآسي وأحزان، وما تخلل ذلك من صمود وصبر ومقاومة وتشبث بالمبادئ وتمسك بالأهداف.

لقد تميز الكتاب بكونه يعتبر أرشيفا ثميناً للوائح المختفين الصحراويين في مجموعة من مخابئ المخزن المغربي السرية، عرف بشهادتهم وعدد نساءهم ورجالهم كما عرف بالأسر التي زج بها بينهم.

لقد كان الكاتب شاعرا فوضع بين يدي القارئ نصوصا من شعره، ورواية زوده بباقات من إنتاج رفاق دربه، كما أطلعه على جوانب من أساليب العذاب التي تفنن الجلادون في ممارستها على الجميع دون تمييز خلال عقد ونصف من الزمن، كل ذلك بأسلوب بسيط وعفوية تامة دليلا على صدق الرواية وعمق التأثر بالتجربة، فكان بذلك هذا المؤلف إسهاما هاما في كشف الجريمة وحفظ الذاكرة، فما لنا ونحن نقدم له إلا أن ندعو للأخ محمد عالي الحيسن بالتوفيق والسداد، والله ولي التوفيق.

ذ. المحامي محمد الحبيب خليلي

مدخل لرحلة الألم والمعاناة

اثنان في أوطاننا يرتعدان
خيفة من يقظة النائم ...
اللس والحاكم¹

ترددت كثيرا، قبل أن أخوض غمار كتابة مذكراتي، عن صفحة مؤلة من حياتي. كيف أجمع شتات هذه الذكريات لأنقلها بأمانة، لمن يسعى أن يعرف تاريخ مرحلة، عرفت بأفطع الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان؟ كيف يمكن انتاج فكر حقوقي، يستوعب مضامين الحق في الحياة، والكرامة والعدالة؟ وما هو دور الفاعل الحقوقي، في المرافعة والدفاع عن حقوق الإنسان، وحماية الإنسان من جريمة الاختفاء القسري. المناضل الحقوقي لا يستطيع أن يبقى متفرجا، أو مراقبا سلبيا أمام الانتهاكات المستمرة. لذا يتدخل لحلحلة المشهد المختل، وإعادة الاعتبار للحق المنتهك والضحية المنتهكة؛ لأن رسالته تكمن في مواجهة الظلم والعنف الرمزي؟ وما هو سقف هذه الانتهاكات التي تمس من الحق في الحياة، وتمارس التعذيب وتهدد السلامة الجسدية وتبيح سلطة القهر؟ سؤال حقوق الإنسان يكمن اليوم في إثارة الانتباه إلى الانتهاكات التي تطاله: فردية كانت أم جماعية. يستحيل تقييم الحقوق الفردية إن كانت الحقوق الجماعية منتهكة، كما يستحيل للحقوق الجماعية أن تزدهر إلا في ظل الحقوق الفردية المحمية. الحديث عن الحقوق الفردية والحقوق الجماعية؛ مرده في الأصل إلى ترسيخ وتكامل هذه الحقوق فيما بينها. حقوق تعتبر الإنسان مهما كان فردا أو جماعة؛ يجب أن يعيش حرا بعيدا عن الخوف من التعبير والخوف

1- أحمد مطر

من القهر والخوف من الظلم: ما دامت هذه الحقوق تكفل للإنسان الكرامة. قصة " ما لقيصر لقيصر وما لله لله " تتنافى من المفهوم الديني عنها، من المفهوم الحقوقي؛ تعني في الفهم الحقوقي فصل السلطة عن الكنيسة، التي استعلت الدين وجعلت منه آلية، للتحكم في الإنسان باسم الغيب، دون مراعاة أحلامه ومستقبله، حيث، تقف العلمانية في وجه من يحتكر الدين، وليس الدين بذاته الذي يعتبر أكبر حام للحقوق الفردية والجماعية؛ وتعني أن قيصر يجب عليه، في إدارته لشؤون الشعب، إنما يطبق بعدل التعاليم المستوحاة من القيم الدينية، التي تكرم الإنسان، وترفع من شأنه. ليس هناك تماه بين الله وقيصر. قيصر يطبق التعاليم الروحية والدينية، بدون تدخل ذاته، إن فعل فإنه يرتكب الخطيئة؛ ويجب التصدي له حتى، "يكون الدين كله لله"². من خصائص حقوق الإنسان؛ حرية التعبير، وحرية الانتماء، وحرية المعتقد، وحرية التنقل، وحرية التجمع؛ وأن الناس متساوون أمام القانون، وتحترم كرامتهم بغض النظر عن الجنس، أو النوع، أو اللغة، أو الأصل... الخ. " لو خيروني بين زوال الطغاة وزوال العبيد، لاخترت بدون تردد زوال العبيد، لأن العبيد يصنعون الطغاة"³. خيار له أكثر من دلالة خاصة، حين لا نفهم كيف يميل الإنسان، إلى قبول الاستعباد، والعيش تحت السيطرة. إرادة الإنسان، هي من تجعل منه حراً، أو عبداً. الإنسان محكوم عليه بالحرية⁴؛ وبالتالي فإن ذكاء الطغيان، يبني استراتيجيته على ازدواجية عبد/ حر، ليجعل منها أداة للسيطرة، أو الحظوة؛ لتندعم المساواة، وتموت الكرامة الإنسانية، وتصادر منظومة حقوق الإنسان؛ كمرض على الثورة، والاحتجاج. خلق الإنسان

2 - سورة الأنفال الآية 39

3 - ابن خلدون

4 - جان بول سارتر

حرا؛ رغم أنه مكبل بأغلال التخلف والفقر، والجهل والأمراض؛ غير أنه ليس من المنطقي، استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا. يخشى المستبد الأفكار؛ أكثر من خشيته قوة الأجسام، لذا " كلما زاد المستبد تعسفا وجورا، زاد خوفه من رعيته⁵ " فالسلطة بأدواتها القمعية، ترفض الرأي المغاير لها، أو تشتري المواقف من أصحابها؛ لكنها لا تستطيع الإقناع بأهدافها، معتمدة على فرض قيود فكرية تقليدية عبر مؤسساتها؛ لتجعل من الامتثال، والطاعة، والخنوع بنية سياسية تكبح، وتقيد تطور الفكر لدى الإنسان. إن صحوة الضمير الحقوقي للحيلولة دون وقوع كارثة انهيار القيم - قبل أن يجعلوا من حقوق الإنسان حمارا للسياسة - من الضروري أن تقع، في ظل تفتح شامل؛ لترسيخ حقوق الإنسان، وعدم تحييدها عن أهدافها الإنسانية النبيلة. وإلا فسيف ديميقلوس بشعرة معلق فوق الرقاب. باسم تطبيق حقوق الإنسان تنتهك هذه الأخيرة. حتى أن الأنظمة التي كانت ترى فيها منافسا لها للوصول إلى السلطة؛ أصبحت اليوم تستغلها للسيطرة والهيمنة على العقول، وأكثر دعاية ودفاعا عنها والتظاهر بحمايتها وصيانتها بهدف التمويه على سياستها الردعية والقمعية؛ حتى أنها نصت عليها في دساتيرها وأصبح كل شيء يمارس باسم حقوق الإنسان ولو كان تجاوزها. يتم تشويه كل شيء يقود إلى العقل والعقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس، لكن التفوق يكون في حسن استعماله⁶. لذا تستخدم الأقلام المأجورة من نخب تقنات من ألم الآخر، وتسوق ثقافة التفاهة وصناعة الغباء. صراع النخب يجب أن يكون في ساحة القيم والأفكار من خلال نشر الوعي وثقافة التغيير؛ وإلا فإننا نعيد إنتاج التخلف بصيغ أكثر تعقيدا وأكثر احراجا. وهكذا تصبح السياسة

5 - جمال الدين الأفغاني

6 - ديكارت

معبدا للريـع ومعوـلا لضرب التحرر من الانتماء التقليدي التي تعادي سلطة العقل القائمة بحكم القانون؛ على الدفاع عن معاناة المجتمع، وإنتاج الممارسة السياسية المبنية على التنمية وخلق بيئة منسجمة مع أهداف صيانة الحق وتأهيل العدالة. أخطر ما يهدد الفاعل السياسي عجزه عن نقد ذاته، عكس ما يرتكب من أخطاء في ممارسته للسياسة⁷. وهكذا يغدو الصراع من أجل الكرامة ضد القهر؛ هو صراع الضمير الإنساني لتحقيق العدالة، وبالتالي خلق فرصة لإغناء التجربة الإنسانية، وتحفيزا للتنوع الثقافي القائم على الاحترام المتبادل؛ مما يشجع على عالم متعدد بأصوات متكاملة، وليست متصارعة؛ حيث الحوار البناء هو الشرط الأساسي في تعزيز تعددية متجانسة لكل موقف يدفع إلى وعي أعمق لمفهوم الحرية الذي ينتصر للهوية والكرامة وشرف المبادئ. ذلك أن غياب ثقافة الاختلاف المنفتحة على تعددية الرؤى وإمكانية التأويل؛ هي علة كل فكر منغلق على ذاته، أحادي النزعة المؤدية إلى تأجيل الفهم واستحالة الحسم، ما يجعل من ثقافة الاعتذار والاعتراف بالذنب أمر مستحيلا. من يملك الدليل العلمي ويستنتج بالدليل العقلي ويحلل بالدليل المنطقي؛ يجد أن جريمة التعذيب ليست مجرد جريمة قانونية فحسب، بل هي أيضا خطيئة دينية تمس الكرامة والمشاعر الإنسانية النبيلة. ما يجرى من تشويه هذه المنظومة يقع على عاتق الأنظمة التي راهنت على تبنيها، ليس من أجل الرفع من شأن الإنسان، بل من أجل إذلاله والسيطرة عليه. فعاجلا أم آجلا، الكل سيدفع ثمن ما يرتكب، لان غاية الإنسان هي المكان الذي ينتمي إليه، والذي من خلاله ينفتح على محيطه ويتصالح مع ذاته. بين عمق التفكير وجدية التحليل نصنع فرص التغيير بدل انتظاره. السيطرة على الإنسان لا تعني قيادته، فالأولى (السيطرة) تعتمد على القمع والثانية (القيادة) تعتمد على

7 - محمد عابد الجابري، بتصرف

الإقناع. في غياب احترام الآخر تختلط المفاهيم، ويسود الفكر الأناني. الحرية ليست تصرفا عبثيا وليست سلوكا متهورا؛ بل هي كل فعل تسمح به القوانين العادلة، فحين نصرخ في وجه الظالم وحين ندافع عن قضايا نؤمن بها وحين نرافع من أجل الكرامة؛ فإننا ننطلق من عدالة الشيء الذي تسمح به قوانين العدالة. بفضل حقوق الإنسان أصبحت العدالة والمساواة حلما قابلا للتحقق، نتيجة تضحيات جسام قدمت قربانا على محراب الكرامة الإنسانية؛ ليعيش الإنسان حرا في منأى عن أي تهديد في الحق في الحياة، وعن أي تهديد في الحق في سلامته الجسدية، وعن أي تهديد من التعذيب. كثيرا من أمن بحقوق الإنسان كعقيدة جديدة، فأطلق عليها "روح عالم بدون بروح" أو "دين من لا دين له". التغول على حقوق الإنسان؛ مرده إلى جهات، تشتغل كجيوب مقاومة ترى فيها مصدر قلق لمصالحها، ومتعارض مع أهدافها، رغم المعاناة التي تنتجها والتي تكتشف بالنتائج المترتبة عنها، مع استنباط أسبابها ومنطقاتها المباشرة، والغير المباشرة.

أعيش الحاضر في ماض يحاصرني، لا تفارقني بشاعته، تخنق الأنفاس. كل الحكاية بين تفاؤل يتردد بفضح ماض تندمل منه جراح غائرة صلبتني، وتشاؤم يترنح ثمل يخشى التستر بالانتظار يصهرني. قصة مذلة لا تنتهي. في ظلمة الوحدة، أبحث عن شيء، يلهيني عن تعاستي، حيث بالتمني، أضع نفسي في مكان يليق بها. في بحر هذه التراجيديا؛ تغوص النفس، وتطفو، وتصرخ بصمت في مواجهة مع الشك، والانتظار، كمن يبحث عن شيء مفقود بين الطمي، والطين، أو كإنسان بلا جذور. الصمت أحيانا؛ أبلغ من الكلام في زمن، ما عاد للاعتراف مكان، غير أن الصمت، في هذه الأمكنة يتكلم. ليس كل كلام؛ يقال في كل وقت، بل ينتظر لحظة بوح مسموعة من الآخر، تهز ضميره المتأكل، لتزرع فيه بذرة إنسانية تنهي؛

تبرمه الفارغ من إنسانيته. تبا، لا توقظوا الألم الذي لحق بي، يكفي ما بي من ألم؛ ولو أن الألم يكشف معادن الناس، ويصنع التغيير. الألم مهما قسا؛ فإنه فرصة للانعقاد، ومحفز للمواجهة، حين يتألم المرء من شيء؛ يبحث عن أجدر السبل، للتخلص منه. يكون الكلام، حيث يكون الألم⁸، فالصبر على الظلم، دون مقاومته استسلام، وقبول الأمر الواقع، دون تغييره هزيمة. عندما يصبح الظلم قانونا... يصبح التمرد واجبا⁹. التماذي في إقصاء الآخر، وعدم الاعتراف بمشاعره، قلة ذوق، حيث تنهار القيم تحت وطأة التدمير. للظلم ألف طريقة؛ وأشدّها أن يعبث الإنسان بالإنسان. كل شيء، مبني على التضليل النابع من أكوام الرماد، تضليل يحقن كاللقاح في العقول؛ كما تحقن في الأجسام، في وقت تتداخل الحقيقة مع الكذب، وتتماهى الوقائع مع الأوهام. ما وقع ليس؛ مجرد ذكرى مؤلمة بين دفتي كتاب قديم، تراكم عليه غبار الإهمال، بل هو جزء من تاريخ؛ صعب فيه النسيان، لم يكشف بعد بالكامل، يحتاج إلى بحث عن حقيقة ما جرى. ما جرى ظاهرة عنف؛ فرضت بقوة على منطقة جغرافية، في زمن عابر من تاريخ؛ سطره كتبها جلاّد، يملك جانبا مظلما من تنشئته، سطحي، ضحية شتات فكري، صعب ترميمه؛ إن لم يرجع إلى ذاته، ويتخلص من ترسبات؛ تراكت بفعل انغلاق متعصب، تسلل من نافذة الغفلة، يزرع الفوضى، ويدفن الحلم بين أنقاض الماضي. جيد أن يستفيق الجلاّد من أوهامه، بحاجة هو إلى تحليل نفسي، يرجع إليه توازنه العقلي، ويحلل سيره في ظلمة الجهالة، وهو يسعى؛ أن يجعل من الوصول إلى الحقيقة، معرفة ممنوعة، كي لا يصل وعي الإنسان إلى ما يراود له، أن يجهله. أن يقف الضحية شامخا؛ أمام آلة الهدم الرمزي، والجسدي، ويبرهن عن قدرته على

8 - جاك لاكان

9 - روزا لوكسمبورغ

المقاومة، لهو شكل من أشكال إثبات الوجود، وزرع بذور في تربة خصبة؛ تنتظر غيثا من السماء يرويها، أو تنتظر من يسقيها بالغضب ضد النسيان. البعد المأساوي؛ للقهر والحرمان، يمنح الضحية عظمة. كل أنواع العذاب، داخل المخابئ السرية؛ الذي تعرض له الضحية، تجعله يشعر بإنسانيته، وتدفعه للحياة، لأن كل تعذيب ممارس ضد الإنسانية، يحمل بداخله بوادر فشله. في زمن غاب فيه العدل - في غياب العدالة تضيع الحقوق - يصنع الحر تاريخه بفضل معاناته، فهو يعي كيف؛ يستعمل إدراكه لفهم، ما يدور حوله من تفاعلات اجتماعية، وثقافية، وسياسية، متجاوزا بوعيه مشاعره العاطفية؛ لكسر أغلال التخلف، سعيا لبناء العدل والكرامة الإنسانية. العدالة قد تتأخر، لكنها لا تغيب. العدالة ليست نصوصا ميتة هامدة، بل روحا متجددة، تعكس مدى تقدم المجتمع في الحفاظ على حقوقه، والبحث عن توافقات تنظم الاختلاف، وإشكالات تطوره. فهي ترافع لدحض الظلم، وآلية كونية لتدبير سلوك المجتمع، ومذهب أخلاقي، لتأسيس المحاكمة العادلة حماية للفرد؛ من شطط السلطة، ومتابعة الجناة في حق الإنسانية من أجل عدم الإفلات من العقاب، والوقوف في وجه الانتقام، والظلم سعيا، لحماية الكرامة المتأصلة في الإنسان، لأنها بكل اختصار، أي (العدالة) هي؛ مشروع أخلاقي وسياسي، يعيد تنظيم العلاقة بين المواطن والدولة؛ على أساس الثقة لا التهريب. من أسباب سقوط الدول غياب العدل. غاية العدالة السيطرة على النفس، وترويض القوانين، حتى تكون في خدمة الآخر، وليس منح الحاكم سوط التخويف، من أجل الإخضاع. كيف، فشلت المنظومة القضائية؛ في حماية الحقوق، أمام جيل جديد متأثر بما حوله؛ من وسائل إعلامية، واجتماعية، وحزبية، ونقابية، وفكرية؛ جيل مليء بالغيرة على المشترك، يتأرجح بين فرص التكامل، ومخاطر التصادم؟ لا تصان الحقوق دون مساءلة، وعليه

فان مواجهة تراجع الحقوق، ليست مسألة عابرة، بل هو اختيار وجودي تفرض على الدولة في سياساتها العامة؛ إزالة كل العراقيل الرجعية لإعاقتها، وتوفير ظروف منافسة؛ تجعل منها منطلقا للتنمية. مقومات المحاكمة العادلة؛ تضفي الطابع الإنساني، والأخلاقي على صيرورة التقاضي، وتجعل من المتهم بريئا، حتى تثبت إدانته، حيث يصطف القاضي، والدفاع إلى جانبه، للتخفيف من معاناته ومن ضغط المحاكمة، حينها يشعر الضحية؛ أنه واقف في قفص يحميه، وليس في قفص يدينه. الحق في المحاكمة العادلة حق من حقوق الإنسان الأساسية، من خلالها تتم مراعاة احترام حقوق الإنسان، ومراقبة كل الإجراءات المتبعة لضمان المحاكمة العادلة، انطلاقا من لحظة إلقاء القبض الأولى وأثناء مرحلة الاحتجاز وخلال المحاكمة، إلى مرحلة الاستئناف والنقض. صراع العدل والظلم؛ صراع ألي.

أنا لا أكره الآخر، بل هو من يكرهني، يعذبني، ينتهكني، غير أبه لآلامي. يضطهد أحملي، يرفض حقي بحقد وجنون. في فترات استنطاق مهينة؛ ينزع أظافري، يمزق جلدي، ويكسر إرادتي، من أجل اعتراف عن اتهامات، يبرر بها إجرامي. بلسان لاذع؛ كفهوة مدفع، أو كعين بندقية، يهدم معنوياتي. أنا المشؤوم بحسبه، فبنى لي سجونا رهيبة بزنازين - لا تتوفر فيها أدنى مقومات الحياة- مظلمة كئيبة، فيها البرد القارس يقرص الأصابع؛ فتتجمد، وأبواب ضخمة من حديد موصدة، فيها الانتظار أقسى من الانتظار. مخابئ سرية خبيثة؛ في صنع الفراغ، حيث توقف فيها الزمن، فيها يكاد الصبر أن ينفذ، تفصل بين الداخل والخارج، فتغترب الآمال بين ثناياها الحالكة. كلما حاولت تجاوزها، يلاحقك رهاب فشل الإدراك، فتتألم القلوب من زهد رحمة مفقودة، وإنسانية معدومة. الجدران صامتة كالقبور؛ حيث يكبت الجسم، ويسجن العقل. صعب أن تعيش تحت

الخوف؛ بسبب جلا د من فصيلة آكلي لحوم البشر، جفت منه ينابيع الرحمة، يجر د الضحية من صفته الآدمية. حرمت من الهواء النقي، ومنعت مني أشعة الشمس، وعصبت عيوني لحجب النظر، في مكان امتلأ بالضياء. ضحية للاختفاء القسري¹⁰؛ عشت المخابئ السرية بدون حماية قانونية، وبدون حماية صحية. ضحية بين جدرانها؛ بأمعاء فارغة، تحت سيطرة جغرافيا الجوع حيث؛ هيمن الحرمان، وفتكت الأمراض. بسبب سياسة الجوع؛ الممارسة علينا، تكاد الإرادة أن تنكسر؛ بسبب فقدان ما يسد الرمق. صبرا عقلي المزدحم، بما تمر منه. لم أعد أتحمل نفسي الضئينة في زنازين ذل يوزع فيما الخبز حافيا، أو مبللا بماء ملوث وصراع البقاء مستمر رغم رطوبة المكان. عالم ثقيل الوطأة، ضيق، مسيح بأنواع المنع يخضع لمبدأ التنافي المتبادل. لا سبيل للمصالحة فيه بين الضحية (الشيء) وجلاد يعيش قحطا أخلاقيا يمارس التعذيب باسم الطاعة، وغياب الضمير لديه. الضمير هو حضور الله في الإنسان¹¹. فاقد لأي معنى إنساني؛ ترسبت فيه روح الحقد والعدوان؛ لا ييخل في إنهاك فريسته وتحطيمها. عالم بلا فواصل، خال من كل قيم نبيلة، عكرت صفاءها السياط، فيه المختفون قسرا؛ مذنبون بلا قرينة براءة، يتكدسون بعضهم فوق بعض، في زنازين ضيقة جدا، سيطر فيها الجلا د على ضحيته؛ يجرفه جرفا نحو الهاوية. أرفض الانفعال؛ في تناول الاختفاء القسري، بل أسعى إلى الترافع القانوني؛ لدحض أسوا ظاهرة عرفتها الإنسانية، لأن الانفعال؛ يجعل الباحث غير قادر، على تحليل أسبابه بموضوعية. هذا الاختفاء القسري؛ الذي يرغم الضحية على الخضوع تحت القمع في غياب، وعي جلا د غارق في الفساد

10- انظر الاتفاقية الدولية لحماية الأشخاص من الاختفاء القسري

11- فيكتور هوغو

ومتورط بأبشع الجرائم الإنسانية في غياب المساءلة¹²؛ حيث السلطة بادرت ثم قررت ثم نفذت، دون أن تعي عواقب قرارها. الفساد لا يفرغ جيوب الناس فقط؛ بل يسرق الإيمان بالغد، ويغتال أيمان الناس بالعدالة والكرامة¹³. على أكتاف البؤس كل ضحية، يحمل ثقل همه مضغضغ المشاعر. هناك أرواح؛ فقدت كل شيء تائهة، بين جدران مرتفعة تغطي السماء. أفضع عذاب ممارس؛ هو تكرار نفس المشهد، والخوض في نفس الأحاديث، ومشاهدة نفس الوجوه؛ وجوه مختلفين أعياهم التعب، وفتكت بهم المعاناة، ووجوه جلادين لا ملامح لهم؛ سدة التعذيب حيث، الروتين يقتل كل إبداع، ويبعد كل أمل في الإفراج. جسمي النحيف يرتجف. أين الشمس الدافئة؛ فعظامي تجمدت؟ أين القمر حين يسبح بين الغيوم، التي تلبدت وهالته أين هي؛ حين صحت السماء، والنجوم في أديمها ترصعت؟ كم أنا بحاجة؛ لمن ينتج وعيا جماليا! كم اشتقت إلى نفسي الحرة، وإلى خطواتي على درب الحرية، أبحث عنها وسط زحمة الألم، وتلاحق المأساة. بقدرما أحاول كتم أوجاعي، وعدم البوح بها، تتصارع صور البشاعة في مخيلتي، فتنفلت آلامي شجونا؛ فأغمض عيوني حين يشتد الشوق، لتلك الأيام الجميلة، التي لم تبق منها؛ إلا ذكريات ذابلة، ويتسرب الحنين إلى الأهل والوطن البعيد. أبحث عن بصيص حق؛ بين عتمة الظلم، فتصدر من أحشائي، صرخة غضب ضد اللامبالاة. أبحث عن شيء مفقود؛ بدون ملامح، أهتدي إليه، كمن يبحث عن قطرة، ماء بين الكثبان الرملية. قد يصمت الضحية، ويتحمل الألم، لكنه لا ينسى، ولا يسامح الجلاد الذي؛ بموت الضمير لديه؛ يرفض الإقرار بالندم، بل، يستمتع ببشاعة المنظر، خبير في صناعة الطاعة؛ عبر الأدنى. بشخصية ثقيلة الظل، ينم مظهره

12- انظر ميثاق روما الخاص بالمحكمة الجنائية الدولية.

13 - نيلبون مانديلا

الخارجي، عن وحشية متعطشة للدم، يرفض البحث عن سر الأزمة؛ لا تتحمله المشاعر المكثومة حيث؛ آثار تعذيبه وشمته إلى الأبد. جلد منغلق على ذاته، منقطع عن مجتمعه، عاجز عن التفكير. كيف ولد، وفي أي محيط ترعرع؟ وكيف، أجد له أعداء، وهو من مزقني إربا إربا، وقتل في أجمل شيء في الدنيا؟ جلد، موظف في منظومة قهرية بدون خيال، يبدع في تنفيذ الأوامر دون تفكير، ولا تأنيب أخلاقي، بعيدا عن المساءلة، يقدم خدماته بلا ضمير. ما الشيء الذي أكثر رعبا؛ من جلد يكرهك بدون سبب؟ بدأت الحضارة عندما؛ قام رجل غاضب لأول مرة، بإلقاء كلمة بدلا من حجر¹⁴، كلمة (لا) تطلق أعظم كلمة (نعم) للحرية. حين تقول (لا) في وجه الظلم؛ فإنك تقول (نعم) للمستقبل. الفضل يرجع لمن فضلوا أن يقولوا(لا)؛ حتى عندما يعلمون أن لا شيء سيتغير غدا¹⁵. الرفض؛ فرصة للمظلومين، للتعبير عما يعانون من بؤس ومن شقاء ومن ظلم. من الضروري أن يمتلك المرء ثقافة الرفض. الحرية أن تقول للناس ما لا يرغبون في سماعه¹⁶. وهكذا يتحول؛ كل إحساس أو تأثير تجاه معاناة الضحايا إلى لامبالاة باردة؛ نتيجة العمى الأخلاقي، فيصبح الضحية إنسانا معزولا، لأن الجلد لا يملك الوقت لردة فعل إنسانية، وليس لديه وقت للتعاطف نتيجة هشاشة القيم لديه ويفتقد للمعايير الواعية لاستيعاب ما يقوم به من إيذاء للآخر. فيصعب من خلال هذا التعامل الشاذ؛ تفسير تمرد الشر على الأخلاق، والبنى الاجتماعية والثقافية؛ التي تربي فيها الجلد. رحلة مثقلة بذكريات تحمل حكاية لم تسرد بعد، لكنني أكتبها بشهادة عقل مصدوم، وقلب مجروح نقيين كماء المطر. عقل؛ يريد أن يعرف كيف وأين ولماذا وقلب؛

14 - سيغموند فرويد

15 - جان بول ساتر

16 - جورج اوريل

يتسع حبا للإنسان، لم يستسغ بعد أن بالمخبأ السري باكدز أعدمت الإنسانية، وأن بالمخبأ السري بقلعة مكونة أعدم الحق في الحياة؛ مخبآن مرادفان للموت ومقابر للأحياء؛ فيهما الاختفاء القسري مع سبق الإصرار يفتك بلا رحمة بضحيته دون مقاومة، ما عدا إصراره بالبقاء على قيد الحياة وهو يدرك حجم الإمكانات.

الأغلال تدميني، والزنازين تخنقني، وأصوات صراخ ضحايا الاختفاء القسري، تدمي لها القلوب تكسر الصمت المطبق داخل جدران أكثر هولاً، وأفزع رهبة حيث؛ تتبدد الأحلام وتشتد أهوام ألم وتتمدد فيه مرارة الحقد. ضحايا قمع ودعائها بهذه المخابئ سيئة الذكر، جثامينها أعمارها أطول من عمر قاتلها؛ لأنه يصعب محو رمزية الشهيد التاريخية. النقطة التي لا عودة بعدها، هي حين يعدم ضحية الاختفاء القسري بلا مبرر، والجلاد لا تتحرك مشاعره؛ استنكاراً مما يرى من فظاعات. أينما تكون قوة مهيمنة تكون مقاومة¹⁷. في الاختفاء القسري الضحية لا يعيش يومه، بل يسعى للنجاة منه ليوم آخر، كل يوم مهدد في حياته. أكثر ما يؤلم الضحية؛ ليست قسوة الجلاد، بل صمت المتفرجين¹⁸. في غياب قانون رادع، وقضاء عادل، ونخب صامته غير مبالية؛ يشعر الضحية بالعزلة؛ لأن الكل تخلى عنه، ولأن من يعرف الحق ويغض الطرف عنه؛ أقسى من الجلاد نفسه، بل هو شريك في الجريمة. الشيء من مآتاه لا يستغرب. بيد مرتجفة لكنها مصرة على أخذ القلم للكتابة عن مرحلة غابت فيها القيم الإنسانية؛ مندفعة نحو المجهول، ضد إرادة الضحايا، وضد إرادة الضمير في معركة إنسانية لحماية حقوق الإنسان، تحكي عن أزمة قيم بها هيمن العنف والظلم على المكان، وعن رحلة ألم وانعدام وعي يستنكر قسوة جلاد. لا

17- ميشيل فوكو

18- أيلى فبزل

أستطيع وصف فصل الربيع لأني، لم أعش مناظر مروجيه، ولا وصف فصل الشتاء لأني لم أمشي تحت أمطاره، ولا وصف البحر لأني لم أركب أمواجه فصل الصيف، ولا وصف أوراق الشجر وهي تتساقط فصل الخريف كما تتساقط الضحايا شهداء في زنازين المخابئ السرية، غير أنني أستطيع وصف كيف؛ قتل الحلم والأمل بدم بارد وكيف تألم، وعانى الضحايا بعيداً عن ذويهم وصرخوا عذاباً دون أن يسمعهم أحد، وكيف جردوا من إنسانيتهم وأصبحوا نكرة، وكيف تعلمت الصبر من الانتظار وأجنحتي أقوى من الغصن¹⁹. كما أستطيع الحديث عن فظاعات الاختفاء القسري، ووصف كيف تتم إهانة الضحايا بين أسوارها في عزلة تامة عن الخارج بمصير مجهول، وكيف انتهكت حقوق الإنسان بكل بساطة، وكيف تأكلت القيم الإنسانية. كل الناس يملكون مستوى من الكرامة، على الآخرين احترامها؛ إلا في الاختفاء القسري المبني على الهدم وعدم القدرة على التصرف الحر والاختيار؛ باعتبار الحرية أولاً هي الاستقلال الذاتي²⁰. لا أستطيع الحديث عن مغامرات مراهقتي واندفاعها، ولا الحديث عن تطلعات شبابي الحاملة، لكنني أستطيع الحديث عن كآبتي وحرمانني حين فوتوا على جموح مراهقتي، وانكسار تطلعاتي، وكيف، نجوت من رماد خانق؛ مثل طائر الفينيقي²¹. الكتابة صرخة؛ أطلقها في وجه، واقع يخنق الأنفاس، وكل حرف منها هو، صفعه على خد ظالم، وتحد من الانكسار إلى

19 - تجسد حكمة عميقة حول الثقة بالنفس والاعتماد على القدرات الشخصية بدلاً من الظروف الخارجية. لا يخفى الطائر انكسار الغصن الذي يقف عليه، لأن ثقته ليست بالغصن، بل في جناحيه. دينزل واشنطن.

20- إيمانويل كانط

21 - يعود أصل الطائر إلى الأساطير المصرية القديمة، ونقله الإغريق، وله نظائر في ثقافات أخرى مثل العنقاء عند العرب، والـ "فينغهوأنغ" عند الصينيين، و"سمرغ" عند الفرس. يرمز طائر الفينيقي إلى التجدد، الشمس، الخلود، والقيامة، وقد استخدم كرمز للإمبراطورية الرومانية، وكرمز للروح الخالدة.

تحد للانتصار، ومخرج من سراديب العتمة إلى مسالك النور. سنوات الجمر
ذاكرة، لا يمكن أن ينسى؛ وقعها الأليم، ممن عاش تجربتها المريرة. سنوات
من الظلام؛ خلف الأسوار ليست فقط للكتابة، بل أيضا من أجل القراءة،
والتأمل في معنى البحث عن الحرية؛ بالصبر والجلد. كل مختلف قسري
يحمل معه مواجه المخابئ السرية، فتتشكل من آلامه صفحة أخرى لذاكرة
لا تتوقف أجراسها عن قرع الضمير؛ لكسر جدار الصمت المفروض على
هذه الفترة من تاريخ انتهاكات جسيمة تختزل رواية تحكي معاناة تصرخ
في صمت وقعها المؤلم يشعر بالصدمة، فيها ضحية الاختفاء القسري
تحترق حزنا وانتظارا. صعب بل مستحيل تضميد جراح غائرة، ندوبها لن
تمح تاريخيا لأنها بكل اختصار شكلت في الوعي الجماعي، تبريرا للشـر
المطلق؛ اختزل الحق في عدالة غائبة وكرامة مهدورة. سأظل أكتب عن هذه
التجربة الاستثنائية في كل ما له صلة بهضم القيم، وفي قلبي شيء من
حتى... ومع ذلك قد أكون ممتنا، للاختفاء القسري الذي جعل مني كيف
أمشي، وفكري مستقل لم يتوقف عن التفكير، بل كان مصدر تفكير، لأن
بفضل الوعي نقلص أكبر قدر من السلبيات، ونوسع أكبر دائرة من
الايجابيات. حتى إن كانت التجربة مهينة، وجب أن نعيشها بكرامة؛ رغم
العبث. كل يوم أشعر؛ أنني أتحرك من المخبأ السري، وأبحث عن ذاتي رغم
أسواره العالية. لو أن الجدران تتكلم لتحديث بكل أسي؛ عن أنواع التعذيب
النفسي والجسدي الذي، عاشه الضحايا الصحراويون بينها. كثيرا من الألم
يصعب وصفه، لأن الكلمات تعجز عن التعبير.

بعد سنين من الإفراج عني، وبالرغم من زعمي أنني؛ تخلصت من هذا
الماضي الرهيب - حقا عشت سنين طويلة في مخابئ سرية رهيبة - لن
أسجن نفسي من جديد، بل أريد أن أتحرك من هذا الماضي البشع. أحيانا؛
تمر أمامي كل أحداث الاختطاف، وأسوار المخابئ، وأنين الضحايا من فرط

الألم، كشريط سينمائي. أحيانا؛ في سبات نومي أفزع، من كابوس هذه المناظر البشعة، والمعاملة السيئة، التي تفنن فيها زبانية؛ أتقنوا ممارسة الضغوط النفسية، والجسدية على أناس، ليس ذنبهم إلا أنهم ينتمون لمنطقة؛ بعد سكرينة واستقرار، أضحت مسرحا لأحداث دامية. خمسة آلاف وخمسمائة وستة وخمسون يوما (23 مارس 1976 إلى 21 يونيو 1991)، وباحتساب الليل، ومضاعفة الشعور بالضيق، والوحدة داخل أسوار المراكز السرية، بدون محاكمة، وبدون أدنى شروط الحياة؛ بعيدا عن أية حماية قضائية، ومحرور من أية محاكمة عادلة، ومحرور من أبسط الحقوق الأساسية؛ فإنها تصبح أحد عشر ألفا ومائة وثلاثون يوما. لم أقترف أي ذنب، منه استحق هذا التعامل اللاإنساني. إنه الحرمان من الحرية، والتنكيل بالجسد والتشهير به. بين الحكمة والحماسة، مسافة حبل الوريد. لو استعمل الجلاء قليلا من الحكمة، لكان الضرر أقل كلفة. انتهز لحظة غفلة من تنفيذ "القانون"، وفعل ما يحلو له، من ظلم وتعذيب، واضطهاد في حق ضحاياه. لم يراع لا قيم دينية، ولا موثيق دولية حقوقية، ولا قيم إنسانية، ولا أخلاقية؛ تحرم التعذيب، وتصون الحق في الحياة؛ لتردع حماقاته. هل ثمن حرية الرأي، والحق في الانتماء، هو الزج في غياهب المخابئ السرية؟ إن كان كذلك فليكن. هناك من، يعيش التجربة بأذنيه وعيونه، وهناك من، يعيشها بأنامله. ولأنني عشتها بأذني، وبعيوني، وبأناملي؛ فإن هذه التجربة تحتوي على وقائع؛ يندى لها جبين الإنسانية، من بشاعة المنظر، وسوء المعاملة، والدوس على الكرامة؛ وفيها من التناقضات ما يجعلها ملهاة. هل يمكن أن تكون شخصيتي متوازنة، وعقلي سويا بعدما، قتل الاختفاء القسري جسدي، وعطل تفكيري؟ لم تعد تربطني بالحياة أية رابطة؛ ليست وحدها طموحاتي من، تلقت الضربات فتحولت إلى غضب صامت كالبركان ينتظر لحظة انفجاره بل، كانت

محاولة إعدام الحياة. إنه الغضب وقت الغضب، بوجود شياطين على هيئة بشر؛ مارست ألوانا، وأشكالا من العنف. لذا أحاول أن أجعل هبة الحياة، وقيمتها أقوى من أن تنسفها إرادة جلد، بعد كل هذه المعاناة. بين محنة الكتابة، وكتابة المحنة، أجد نفسي مضطربا، بين متاهة العبت، وعبت المتاهة.

أكره جلادي الذي في غمرة سكوني، يضايقني كالكابوس. الفطرة الإنسانية ترفض الظلم، والقهر والتعذيب. من الضروري الحديث عن هذه المرحلة، وطرح الأسئلة المشروعة. لماذا وقع هذا؟ وكيف وقع؟ ومتى وقع؟ وأين وقع؟ العفو عن الجلد؛ ظلم للعدالة، وظلم للضحية. لن أنسى جلادي، وذكره راسخة بفعل جراح غير مندملة، وأغلال كبلت آمالي، وهدمت أحلامي، وشلت فكري ردحا من الزمن. قسوته الزائدة دليل على فشله، لقد أخطأ جلادي في مغالاة التعذيب، متجاهلا أنه يحرض على التمرد، وأن جميع الممنوعات تصبح مستباحة لمواجهته. جلد، خان المثل العليا لحقوق الإنسان؛ المتمثلة في المذهب الإنساني الذي جعل الناس؛ سواسية في الكرامة، والحق في الحياة، والسلامة الجسدية. إني أيتها الجلد أتحدث عنك، ولا أتحدث إليك، لأن الضمير الشقي، المعذب بتركيبته المفلسة، والمتناقضة ساعي إلى حتفه بلا شك. فأنت تغرق في أيديولوجيا قمع كاذبة؛ جعلتها مبررا لقمع الرأي الحر، وتعذيب من يدافع عنه. سيأتي يوم تولي ظهره للجدار، لكنك لن تحميه. متى تكتشف نفسك، وتصحح عدم تجانسك؟ لقد أدركت جهلي - مع العلم أن الإنسان بالتجاهل يتجاوز نصف مشاكله - حين خدعت بمفاهيم حرية التعبير، وحرية الرأي، فهي أسفا لا تساوي حتى ثمن الورق الذي كتبت عليه. الدولة يجب أن تضمن حرية التعبير، حتى يعيش الناس في سلام²². التحرر من قيود الجهل؛ لا يتم بوثة واحدة،

بل هو طريق بمسالك وعرة، تتطلب كفاءة ثقافية، ونضجا واعيا في تدبير الأزمات؛ للتغلب على الإكراه الذي تتتابع فصوله كل يوم. عندما لم يستطع المرء تغيير نفسه، تصبح حياته مأساة؛ لأن الانتصار على الذات هو السعي، في خوض معركة الوعي لتجاوز معوقات الفهم. فالكراهية؛ لا يمكن أن تكون خيارا لمواجهة القضايا المصيرية. ما بين التمسك بالشرعية، والاستخفاف بها؛ يتشكل منعطف تاريخي، ينضج فيه فكر النضال السياسي، كضرورة تاريخية؛ بفضله يتحرر الفرد من البؤس المدقع الذي يعيش فيه، فنتدفق منه ينباع لا تنضب من طاقة التحرر. وهكذا يصبح الإنسان موجودا؛ بعد أن حمل مشعل حرته، دون أن يتنازل عن قيمه، وحقوقه، والتنازلات أحيانا أغلالا. التوعية السياسية ضرورة تاريخية، فالتفاعل مع الأحداث الراهنة، بدل الانفعال تجاهها يقوم على مدى الاختلاف بين الثقافات التي تبقى، هي جوهر الصراع؛ لأنها أكثر قوة، وعمقا من الايدولوجيا، والسياسة؛ وبالتالي هي انتماء يصعب تغييره بكل سهولة، لأنها تنبثق من الدين واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، لأن المستهدف الحقيقي؛ هي الذاكرة الثقافية وبالتالي؛ يصبح الصراع من أجل الشرعية أكثر قوة، وعنفا؛ كمبدأ يقوم على الحرية. من يمسك القلم عليه الدفاع عن الحقيقة، وليس التغاضي عنها، لأن التاريخ لا يروى بل يعاش. كن انت التغيير الذي، تريد أن تراه في العالم²³. لست هنا، لمحاكمة هذه المرحلة بكل سلبياتها؛ بل أنا هنا لقراءة الأحداث التي وقعت؛ بكل برودة من سلطة متهورة من جهة، ولتحليل عقليات جلادين مارسوا، بعيدا عن كل آدمية وحشيتهم من جهة ثانية. أن تعدم الناس بسبب قناعاتهم وآرائهم السياسية؛ لتلك هي الجريمة النكراء التي لا لبس فيها. نسي الجلاذ أن أجمل شيء هو؛ أن يموت المرء من أجل قضية- وأن يحيا أيضا من

أجلها. العيش على الكرامة؛ مبدأ من أجله يموت المرء، وإذا كان الموت حتمي بدون مبدأ؛ فمت وأنت على مبدأ. الموت ليس شيئاً، ولكن عدم معرفة سبب الحياة هو عذاب لا نهاية له²⁴. أريد أن أكتب للذاكرة لتحفظ بهذه الصفحة؛ كأرشيف لموروث إنساني يؤرخ لمرحلة عصيبة من تاريخ هذه المنطقة. مرحلة عرفت في القاموس " الحقوق " المغربي بسنوات الجمر والرصاص حيث؛ بلغ الشطط في استعمال السلطة أبشع درجاته؛ وحيث مارس فيها رجال مرضى في عقولهم، وعديمي الضمير، والحس الإنساني باسم هذه السلطة، نزواتهم. هذا العمل كونه حفظ لذاكرة مريرة، فهو أيضاً إدانة لطريقة المعاملة، والكراهية التي عشناها من جلد حتى؛ كتابة هذه السطور المؤلمة، يعيش في مأمن من العقاب. " محاربة الإفلات من العقاب " ينبغي أن تصل إليها "الدولة" بالرغبة أو الانصياع؛ علماً أن الخطة الوطنية حول الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ كانت أرضية جيدة حول الحد من الإفلات من العقاب والحكامة الأمنية. محاربة الإفلات من العقاب؛ مطلب كوني، ولا يمكن الحديث عن إرساء دعائم الديمقراطية مع الصمت، والتستر على مثل هذه الجرائم؛ وذلك من أجل طي صفحة الماضي، بشكل يتيح الاستبعاد النهائي لكل إعادة إنتاج القهر، والتعذيب، والمساس بالسلامة الجسدية للأفراد²⁵.

في بلد ديمقراطي، يحترم الحق في الحياة، ويصون حقوق الإنسان حماية ونهوضاً، يستطيع الضحية إغناء الذاكرة الجماعية، والتعبير بكل حرية عن آلامه، وما عاشه من انتهاكات، ورأسه بين كتفيه غير مهدد في حياته. لأن كل دولة تحترم نفسها، وتؤمن بمؤسساتها الدستورية، وتجعل

24 - دي ستوفسكي

22 - بنعيسى عبد السلام، ذاكرة الاعتقال السياسي، حوارات ومسارات، المجلس الوطني لحقوق الإنسان. صلاح

الوديع الأسفي، 3- " ببار ساني " ص. 56.

من العدل أساس حكمها وتضمن المحاكمة العادلة، لا يمكن أن تنتهك حقوق الإنسان؛ لأن الديمقراطية هي السلام والتسامح والتعايش. غير أن الديمقراطية تنتهك كل يوم، بديمقراطية وهمية الشكل، غير واضحة المعالم، في عالم غلبت فيه الشكليات أكثر من الجواهر، حتى أضحي وهم الديمقراطية، أكثر تأثيرا في السلوك اليومي، لكنه يفشل في التكيف مع الظروف المتغيرة؛ فتأتي التنازلات لتعيد إنتاج الوهم بصيغ جديدة، أكثر قبولا لتتلاشى بدورها، بعدما أدت وظيفتها من خلال إنجازات، تستدعي الخداع الذهني، إنها الصفر- قراطية أو الذل قراطية²⁶. هناك إجراءات تحاكي الديمقراطية، لكنها أسفا ليست بالديمقراطية. الصراع الداخلي بين حب الذات ونكرانها؛ شكل على الدوام الأرضية الفعلية لبلورة معالم دائمة، تجعل من البعد الديمقراطي هما إنسانيا، وهما عالميا في بناء قيم التسامح والعدل، وصيانة الحقوق وحمايتها. الإصلاح السياسي أصبح ضرورة ملحة، بحيث من المستحيل تدبير الأزمة، دون مراجعة بعض التراجعات التي، شكلت عائقا دون تحقيق الديمقراطية. الدولة الديمقراطية تحتاج إلى تطوير أدواتها الذاتية، وتوفير الآليات العادلة للتعامل مع الأزمات، بحيث تقنضي إدارة الأزمات؛ أساليب تبحث في جذور الأزمة، لبلورة حلول تمس جوهر المشاكل العالقة للقضاء على مؤثراتها السلبية، التي قد تمس من سمعة الدولة وتخلق أسباب فشلها. في غياب الحرية، يموت الإبداع من الخوف. لكن برغم كل الاكراهات، والضغوط النفسية والمخاوف المادية، من الضروري جدا أن استرجع جزءا مني، ترفض المخابئ السرية تحريره. إن الرغبة في الإبحار في يم الذاكرة؛ بأمواجها المتلاطمة، الهائجة تارة والهادئة تارة أخرى؛ الطالعة من رحم المعاناة، بهدف النبش والحفر في عمق الذاكرة، التي ليست للنسيان، تترجم بكل صدق مبدأ الحق في الذاكرة، التي

تسعى اليوم المجموعات البشرية إلى نيلها، واكتسابها. لأن الذاكرة شرط ضروري للوجود الإنساني، فهي التي تجعل الإنسان جديرا بإنسانيته، وتضيء حاضره الذي يعيشه الآن بكل تحولاته البنيوية الكبيرة، وتصور ذاكرته من النسيان، والحدود والإقصاء بغية إثراء التاريخ الجماعي، والحفاظ على هذا المشترك الإنساني. حفظ الذاكرة؛ هو حفظ ذاكرة معاناة بشرية، وحفظ ذاكرة مكان. مركزا الاختفاء القسري أكرز، وقلعة مكونة، تحولاً من فضاءات تراثية إلى معازل سرية؛ تنكرت السلطات العمومية لوجودها سابقاً. لهذا فالحفاظ على ذاكرة المكان، هي الحفاظ على تلك المعاناة، لأنها كانت تخفي أسراراً مخيفة من سوء ألوان القمع والتعذيب، وممارسات لا إنسانية؛ انتهكت فيها حقوق الإنسان بمنهجية؛ لكي نموت صاعرين. هنا في أكرز وقلعة مكونة، قبعنا لسنوات طويلة دون، أن ندرك شيئاً عن تفاصيل المكان. قساوة ما جرى من معاملات سيئة، داخل جدران هذه المعازل التي لا زالت إلى الآن، تنبعث منها رائحة موت كريهة، سيبقى جبل "كيسان" وجبل "مغون" والقصبات الممتدة على ضفتي نهر "دادس" و"مكون" تردد أصداءها عبر الزمن. مخابئ تتسم بالسرية، وهي وسيلة فتاكة؛ لعزل المختفي عن العالم الخارجي، وحرمانه من جميع حقوقه الشرعية. عندما لا يسود القانون في بلد ما، فإنما كان حصول هذه الجرائم والانتهاكات الجسيمة وارداً للغاية. أريد لنا أن نحيا معزولين، عطشى وجائعين لا يسأل عنا أحد، ولا يأبه لنا أحد، بأوساخنا المتراكمة عبر السنين، يلتهمنا الموت شيئاً فشيئاً في زنازين مظلمة، لا هواء فيها ولا شمس، شديدة البرودة في الشتاء، وشديدة الحرارة في الصيف، حيث القهر والروائح الكريهة، لنكتوي بلهب نيران هاذين المعتقلين السريين، الغاصة بالعقارب والأفاعي وأنواع مختلفة من الحشرات الأخرى. الصمت لا معنى له، حيث يجب الكلام؛ وعليه ها أنا أتكلم حيث يجب الكلام. قمة الصبر أن

تسكت وفي قلبك جرح يتألم. عميق هو هذا الجرح، الذي يأبى أن يندمل. ومع هذا فإن كانت الأوضاع تتغير، فإن حياتنا تستمر. ولأن الحياة يجب أن تستمر، فعلينا تجاوز كل شيء فيها. إلهي كيف أغير آلامي إلى دافع؟ مع المعاناة يتطور المرء. وأنا كبرت في أحضان المعاناة؛ شربت من كأسها مرارة العلقم، حتى فقدت طعم التذوق، ومشيت على الأشواك، حتى أدمت قدماي، واشتدت القيود على معاصمي، حتى ظننت أنها أصيبت بالشلل، وعصبت عيناي، حتى فقدت البصر والنظر إلى الأفق. "ما أجمل الذي يحدث، وما أجمل الذي لم يحدث... وما أجمل الذي لن يحدث. فنحن لا يمكننا أن نشفى من ذاكرتنا ... ولهذا فنحن نكتب لنلمس جراحاتنا ... كي لا نتألم مرة أخرى"²⁷. سأحدث بعفوية الضحية وبراءة المظلوم. هل أستحق أنا وجيلي ما عشناه من ممارسات ممنهجة؛ حاطة بالكرامة الإنسانية، ومن تعذيب جسدي وإهانة نفسية؟ لماذا احتقرت الدولة الشرعية الدولية، وداست على كل القيم الكونية؟ معظم مشاكلنا الشخصية، تقع بسبب الفجوة بين ما اقصده أنا، وما تفهمه أنت. أنا أريد الحرية والكرامة، وأنت تريد إذلالي وحرمانني من أبسط حقوقني. من يصنع الوقت لأجلك ليس كمن يحيكه ضدك. في حياة كل فرد أو أمة مسلكان، مسلك صحيح، ومسلك خاطئ.

- مسلك صحيح، لكنه صعب ووعر، وطريقه مليئة بالأشواك؛ طريق محفوف بالمخاطر، والمتاعب يتطلب الكثير من التحمل، والصبر، والتضحيات؛ لكن غايته نبيلة ونهايته سعيدة.

- ومسلك خاطئ، تحسبه مفروشا بالورود، كله إغراءات وامتيازات، ومتمعة عابرة؛ ترى الأشياء التافهة كبيرة، لكنها أضغاث أحلام، ووهم وسراب. غايته دنيئة ونهايته حزينة.

أحيانا تتوفر اللحظة التاريخية، التي يجب استثمارها قبل فوات الأوان، إن لم نتعلم من التاريخ فسنكرره. كثيرا من يبدأ كبيرا، لكنه يستمر صغيرا؛ بحيث لا يمكن بأية وسيلة إقناع الدليل بقيمة الكرامة الإنسانية. تنبني اللحظة التاريخية، على ثلاثية الحرية والكرامة والمساواة، ليكون الإنسان سيد مصيره، بعيدا عن الاستعباد والاستغلال. إن ملحمة كفاح الإنسانية عبر التاريخ، بكل ما تحتويه من بطولات ومآسي، إنما تجسد هذا الثلاثي الذي يختصر في طياته قضية العدالة. بحيث ظلت قوافل المناضلين في السجون والرافضين للظلم تكتب المزيد من صفحات المجد دون كلل؛ ببذل السخاء والجهد لتحقيق أفق أكثر اتساعا وامتدادا وارتفاعا وعمقا. إنها الحرية والكرامة والمساواة؛ التي لا تقدر بثمن! على الرغم من بشاعة هذه الصفحة المؤلمة، فإن الحديث والكتابة عنها، تم بعيدا عن أية خلفية متعصبة؛ بقدر ما أروم وبكل جدية تقاسم القيم العالمية المتمثلة، في التسامح والحرية والديمقراطية، واحترام حقوق الإنسان والاختلاف، وقبول الآخر والحق في الانتماء؛ لنقل حقيقة ما جرى من جرائم، بعيدا عن أي شوفينية ضيقة، لا تتناسب واعتقاداتي؛ إنها بكل اختصار الكرامة. أحيانا قول الحقيقة لعنة. وأنا أسرد هذه الوقائع تطاردني ذكريات مؤلمة؛ ككابوس مخيف يزعج مزاجي، ويعكر صفاء سمائي. أمني نفسي أنه، إن لم يكن الآن فقطعا بعد حين، سيدفع الجلاذ ثمن أعماله اللاإنسانية، وسيعي فظاعة ما قام به. من لا يحب الناس لا يحب الله. إنها الرغبة الجامحة في النهوض في أشد المحن؛ وإنها الرغبة الأكيدة والصادقة في نبذ العنف، الذي يجبر الناس على الصمت، وإنها الرغبة أيضا لفضح معاملة،

يعجز التعبير عن وصفها. هل بالبشعة، أم بالقذرة؟ بعد أن تجاهلنا الآخرين، وأساء شيء أن يتجاهلك الآخرون. ربما الأقدار أخرت أجلنا؛ لفضح ما عشناه من بشاعة المعاملة، ومساءلة هذه المرحلة البئيسة من حياتنا حتى لا تتكرر. لا تمت وأنت حيا. لا معنى للحرية، وجلادك حر طليق. لكن لا بأس إن استطعنا، تحويلهم من حيوانات إلى بشر، يتحاورون ويناقشون، ويدافعون عن آرائهم دون عنف، ويقبلون الرأي الآخر. الصفح ممكن بعد اعتراف الجلاد وإبداء ندمه ومحاسبته، والنسيان غير ممكن حتى لا يتكرر ما مضى. أن تسلب الناس حريتهم ليست أبدا شجاعة؛ لكن أن تعرف كيف تصفح وتسامح وتمنح الحياة للآخرين؛ لتلكم هي الشجاعة. "المسامحة الحقيقية لا تستلزم نسيان الماضي بالكامل"²⁸؛ لأن التسامح الذي يمحو الحقيقة هو شكل جديد من أشكال العنف. لا يوجد أقوى من ذاكرة المظلوم وأضعف من ذاكرة الظالم؛ لهذا وجب تذكيره بفظاعاته. الحق في الحرية، لم يكن أبدا جريمة يعاقب عليها القانون. السبيل إلى إنصاف الضحايا، هو إعادة الابتسامة إليهم، ومنحهم فضاء يتنفسون فيه مع الجميع يتقاسمون نفس القيم ويتشاركون في نفس الأهداف؛ بعدما عانوا أشكالا من التعذيب والألم. لم يجرؤ أحد يوما ويسألني عن سبب صمتي. كانوا يرون ابتساما على شفطي ويتركون للزمن اندمال جرحي. قمة القوة أن تبتسم وفي عينيك دمة تحاول جاهدا كبجها، لكنها تتدحرج على الخد بحياء. فلکم مرة حاولت جاهدا إيقاف دموعي حتى، لا أظهر ضعفي أمام الآخرين وأترك قلبي يبكي في صمت. واليوم وأنا أكتب؛ أتساءل ليس لأحد أن يسألني عن سبب كتابة مذكراتي؛ لأن كتابتها بالنسبة لي نوع من التطهير الذاتي وعملية تحرر من الحرق والغصة التي كانت تؤلني طيلة سنوات الرصاص وما بعدها.

لقد تكاثفت عدة عوامل منها؛ ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي في إنتاج وبلورة كتابة هذه المذكرات.

- الذاتي: كوني ضحية من ضحايا الاختفاء القسري في كل من المخفيين السريين أكذز وقلعة ومكونة. عشت الحرمان من كل شيء؛ من الحرية ومن التعليم ومن التطبيب ومن التواجد بالقرب من العائلة وزج بي في سجون سرية بعيدا عن أي حماية قانونية فأصبحت مهددا في حياتي وسلامتي الشخصية. لهذا قررت أن أضع السؤال. لماذا كل هذا التعسف والانتهاك لكل حقوقي؟

- أما الموضوعي؛ فانه يتمثل في عدم وجود أية محاولة لتأريخ هذه المرحلة الأليمة من تاريخ الاعتقال السياسي المتمثل؛ في الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي في المنطقة؛ كنت أحد ضحاياها. إنها سنوات الجمر والرصاص²⁹. أ ليست الكتابة أكبر شهادة على هذه المرحلة الدامية والمؤلة من حياتنا، وشهادة أيضا على من استغل السلطة وساء استعمالها ليضع "الدولة" بعد عقود من الزمن في مواقف حرجة ... هو فعلا شبه إنسان مجرد من إنسانيته. الكتابة ترفض مسح الذاكرة التي تؤدي إلى مسح الهوية. آه ليتني لم أجرؤ. ما هذه الحرقلة التي ألت بقلبي؟ هل هي إحياء وإعادة ذكريات تأبى النسيان؟ مصدر شقاء المرء أن ذاكرته لا تنسى أبدا مهما حاول أن يتناسى. أنسى أم أتناسى؟ ... النسيان أكذوبة وهم؛ التناسي ليس إلا وسيلة لتخفيف مرارة المعاناة ومكابدة الألم. اللاشعور يحتفظ بكل الماضي ويختزنه، يتسنى لحظة انفجاره. ما هذا الخوف الذي ألم بي وأنا أحاول أن أكتب هذه السطور؟ هل هو الخوف من ماض عبثت به سخرية القدر؟ أم هو الخوف من كتابة شيء كنت أود وأتمنى أن أنساه إلى الأبد؟

29 - تم إغناء هذه المرحلة ب " ليال بلا قمر. مذكرات عائد من معتقلات درب مولاي الشريف، أكذز وقلعة مكونة.

د. عبد الرحمان خوجا. مطابع الرباط نت.

لكن هيهات... كيف للجلاد أن يظن أن جراحنا ستندمل؟ كيف يمكن كتابة ذكريات كالعلقم مرة إن تذوقتها، وإن اجتررتها تزداد حموضة وتسمما، وكالجمر النائم تحت الرماد إن لمستها احترقت أناملك بعد طول سهاد؟ أه لو أستطيع السيطرة على مشاعري وهي تغلي؟ أه لو أستطيع التغلب على ما يعتمل داخلي من أحاسيس رهيقة، وهي على وشك الانهيار تارة والانفجار تارة أخرى وأنا أقرر الكتابة. أه لو أستطيع بالكتابة التخلص من هذه الذكريات إلى الأبد؛ تطاردني وتحاصر كل تطلعاتي وآمالي. سأخوض غمار هذه الرحلة؛ رحلة اللانهاية أتيه في دروب متاهاتها وسراييبها كأنها الجحيم؛ بل هي الجحيم. سأركب البحر ولو أنني لست ابن البط العوام لكن لن أخشى الغرق. فقد تطهر أمواج البحر جسدي من آثار أبت أن تندثر، وقد تطهر أعماق البحر روحي من آثار نفسية نقشت كأنها على الصخر. أريد أن أقول كل شيء، لكن ما عواقب أن تقول كل شيء؟ ليس من المهم أن تقول كل ما تعرفه، بل المهم أن تعرف كل ما تقوله. لماذا أكتب؟ هل فقط لأتخلص من حمل كأنه الصخر رابض على قلبي ومسيطر على تفكيري؟ أم لإدانة ظاهرة الاختفاء القسري كآلية قاهرة للبشر؟ أكتب هذه المذكرات للمستقبل وللذين لم يولدوا بعد، ولم يسمعوا قط بهذه الانتهاكات الجسيمة التي مورست في زمن ضاعت فيه كل القيم الدينية والانسانية، وأصبح الحق في الحياة لعبة في يد جلاد لا يرحم. كثيرا ما أظاهر أنني لا أبالي بماض أرفضه لبشاعته وأمقته، لكن هيهات يراودني ويطاردني داخل وجداني وأنا بكل تحد لا أستسلم، لكنني أضعف أمام جبروته. واليوم وأنا أكتب هذه السطور؛ أقول في نفسي سأتحدى الخوف وأكسر جدار الصمت لأفضح هذا الماضي الأليم. فبعدما كاد الجلاد أن يزرع فينا الألم والرعب؛ فهمي اليوم وأنا أكتب هذه السطور أن أزرع الأمل في المستقبل وأن أنسى ألم الاختفاء القسري لتندمل جراحه ويبقى - بعدما

كان عارا على جبينهم- مفخرة وشحنة تضخ في عروقي دماء جديدة؛ بها أخرج من عالمهم وأدخل عالمي بخطوات موثوقة. فالعقل الضيق يقود دائما إلى التعصب. أكتب وكلي أمل أن تقع صحوه ضمير عند الجلال وإحياء تفكيره الأخلاقي، بعدما شكل أكبر خطر يهدد حياتنا.

بطبعي المتمرّد؛ كنت ألجأ في الصغر إلى حيل متفاوتة البراعة للالتفاف حول المحرم من دون تعريض قيم وثقافة عشت وترعرعت في كنفها إلى المس. لكن اليوم وأنا في هذه السن أدرك أن الوقت قد حان لمراجعة مجموعة القيم هذه والسير بها نحو الأفضل، حتى لا يترسخ في اعتقادنا المثل القائل بأن التاريخ إذ يكرر نفسه، إنما يتحول من مأساة إلى مهزلة. الانتقال من مرحلة التردد إلى مرحلة الفعل وإعادة صياغتها حتى لا أبقى في حالة قطيعة وبحث عن قضية؛ عيب فيها انتهاك المحرم. صحيح أنها عميقة هي الجراح التي يصعب أن تندمل، وفظيعة هي المعاناة التي عاشها ضحايا الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي في محطات المخابئ السرية ومراكز المعتقلات. إن ما عاشه الضحايا الصحراويون في تلك المخابئ بكل من أكدز وقلعة أمكونة من معاناة مريرة؛ تعتبر تجربة فريدة في القمع وتحطيم القيم والتخلي عن البعد الإنساني الذي يفصل بين الحيوان والبشر، ولا يخضع لأي معيار أخلاقي ولا مرجعية دينية ولا فلسفية. تجربة فريدة من نوعها، نظرا لأشكال التعذيب وقسوة الألم. من ظلمة الكهوف السحيقة؛ حركة تدب وخفافيش ظلام تستعد، تتأهب، خلف هذا الهدوء عاصفة تتحضر وضجيج في العقل وخلل في التفكير يمنع التركيز والقلب دقاته تخفق. كل شيء يكاد يدمع، بالحسرة يتألم. الأحلام تتبدد والأسرار تتكشف. دموع العين تجف من مشهد يحرف ووقائع تتغير في لحظة ليئمة؛ الصمت فيها غير مبرر. الفكر مبعثر من حرقه فراق وماض تولى ومن حاضر متأرجح ومستقبل متردد. الماضي أليم والحاضر ثقیل

والمستقبل مبهم غامض. التاريخ يزور والحاضر يزور والأيام مملة تتكرر. لا أحدا يشبه أحدا. لا أحدا يهتم لأحد. ظللنا لا تشبهنا مشوهة وحركاتها معوقة، والمرآة تعكس خبث المشهد وتفاهته. أرضي لم يعد طينها يصنع الفخار وتربتها ظمئ قاحلة لا تنبت الأقحوان، وبحرها المالح الهادئ هجرته الأسماك ترفض الرقص على زرقاة أمواج آسن مأوها. الملوحة تفقد طعمها والحلاوة علقم مذاقها. يا رجال الفكر؛ يا ملح البلد، من يصلح الملح إذا الملح فسد³⁰؟. السماء متجهمة، ملبدة. أيام وليال كلها رهبة وتهميش وجفاء. ظروف تقرأ بعناية ومواقف تأول بحذر كل من حولي مكفهر. حين يفقد الإنسان الإحساس بالفرق بين الحق والباطل تضيع الحقيقة. الصراع الدائر بين الحق (الثابت) و(الباطل المتغير) شكل نقطة تحول في الرؤية المنطقية للأشياء، فأصبح سهلا مصادرة حرية التعبير وتجريم وجهات النظر الحرة درئاً للمفاسد في زمن تسقط فيه المبادئ تحت سلطة الهيمنة التي تسعى لإضفاء القداسة ضد كل تجديد يعبث بالمفاهيم المطلقة؛ تجديد يبحث بين طيات الثابت وحركات التحول جذور الأزمة، هل هي نتاج نخبة أزمة، أم غياب أزمة نخبة؟ حينما تمارس السلطة السياسية، تنشأ أشكال من المقامة³¹ وفي السياسة لا شيء دائم سوى معاناة البشر³²، لان السلطة المطلقة تخرج أسوأ ما في النفس البشرية³³. وهكذا يخضع الحاضر رغم ما يحمله من إرهابات مستقبلية للفكر الماضوي المتآكل، الذي يقيد سبل كل إبداع للإجابة على الأسئلة المحرقة؛ غير خاضع للخوف أو التردد في الخوض في ثنائية المقدس/المدنس ويرتب أولوية من يتبع من الفكر أم السياسة؟

30- أبي سفيان الثوري

31 - ميشيل فوكو

32 - جورج بوريل

33 - فيليب زيمباردو علم النفس الأمريكي

فكر؛ يؤسس لسياسة الانفتاح والتقييم والنقد التحليلي للمبادرة؛ لأن التنازل عن الحرية تنازل عن الكرامة والكرامة لا تعرف التدرج؛ فأمّا أن تكون واقفاً أو زاحفاً، ولا منطقة رمادية بينهما³⁴ بينما السياسة في غياب الفكر المتحرر تستخدم الاستغناء والتبعية، وتؤجل الأسئلة الآنية القادرة على تفكيك سردية العقيدة المحنطة التي تنتعش في التزمّت ولا تقبل التحليل ولا النقد. وهكذا؛ تتحول الأفكار إلى فراغ بلا أمل والنخب بلا مرجعيات فكرية تسلط الضوء على خيبات الأمل المتتالية وغير قادرة على إنتاج الترافع والمقاومة. عندما ننتج، لا عيب أن يتفاعل الآخرون إيجاباً أو سلباً، لأن التفاعل على المستويين، إما نتيجة توقعاتهم المعرفية أو عكس ما كانوا يتوقعون. السلطة ليس هدفها السيطرة على الفكر وإفساد الوعي وتدجينه، بل حماية حرية التعبير عن الواقع الاجتماعي والثقافي والسياسي؛ لتشكيل الوعي الجماعي من خلال فتح منافذ تتيح سبل تطويره، خاصة أن الوعي لا يموت، لكنه يؤجل. الصراع الدائم بين إنتاج الجمال وإنتاج القبح يضع من أولويات المثقف مساندة التحرر والمقاومة في مواجهة الظلم. فالمثقف ملزم بالانحياز للمقهورين. الشر ليس قوة بل فراغ من المعنى³⁵، لأن الدولة الشرعية - في زمن فيه تمارس السياسة بالشرف ويتميز النضال بالشغف ويعتبر الانتماء مسؤولية أخلاقية - تحمي المواطنين في حرية التفكير والتعبير، حينها تصحو الكلمة من غفوتها وينضج العقل بعد غفلته فتتحرر المبادرة من شهوة الهيمنة، ويتحرر الإنسان من الجهل المقدس المبني من خارج السياق الثقافي الذي يخضع لإملاءات خارجية عن المحيط الذي نشأ فيه. فالتغيير أصلاً يأتي من الداخل. من لا يتعلم من أخطاء تاريخه يعيد أخطاء ماضيه، رغم أن

34 - ألبير اينشتاين

35 - أوريليان

الأخطاء أفضل طريقة للتعلم. بارتكاب الأخطاء أحيانا نتحرر من التوقعات الزائفة لان التاريخ لا يرجع إلى الوراء. كل من دخل السياسة ليصبح جزءا من اللعبة صعب عليه تغيير اللعبة. إن مصادرة الأفكار تعني موت الفضيلة؛ ويوما ما عندما تواجه الدولة ماضيها ستدرك لا محالة أنها خاطرت بحياتها. غياب العدالة والأمان سر انتهاك حقوق الإنسان. إن الأمم التي تطورت وتقدمت عبر التاريخ، إنما تطورت وتقدمت بفضل احترامها للقيم الإنسانية وحقوقها، وتغليب سلطة وزعامة المعرفة على سلطة وزعامة سياسة العنف في تسيير شؤونها. كل من يمارس العنف فهو ضعيف الحجة. اللجوء إلى العنف علامة الفشل. المستقبل ليس لمن يملك قوة القهر، بل المستقبل لمن يملك قوة الحق. كيف، يمكنني نسيان تلك السيمفونية الحزينة التي عزفت مقاطعها حناجر الصبيان وعويل الأطفال وأنين الأمهات والشيخوخ؛ من فرط ظمأ قاتل وبرد قارس وجوع وأغلال تدمي المعاصم؟ كيف، بالمرء أن ينسى في جنح الليل، أنين مريض يستغيث لطلب العلاج والتفاته إنسانية؟ كيف، بالمرء أن ينسى وداع ضحية رحلت إلى ربها من فرط الإهمال واللامبالاة؟ كيف، بالمرء وهو الآن على بعد مسافة زمنية لا يستهان بها تقدر بعقود من الزمن أن ينسى شيئا أو امرأة يتم التشويه بهما أمام الجميع كوسيلة للقمع والترهيب؛ قصد اقتلاع اعترافات ما أنزل الله بها من سلطان؟ كيف، بالمرء أن ينسى أعينا غائرة وعقولا حائرة وآمالا محطمة لشباب وهم في غضاضة العمر فقدوا دراستهم وفقدوا الحلم بالمستقبل، واكتشفوا بكل حزن مرارة الحياة وصعوبة التجربة التي تفوق قواهم؟ كيف، بالمرء أن ينسى نساء عانين بصمت وتحملن الحرمان، لكنهن صامدات، شامخات وهن ينظرن إلى هذا الواقع المرير بأعين حائرة وعلامات استفهام كبيرة رسمت على جباههن؛ بإرادتهن

احتقرن الجلاذ وأفعاله؟ أي ذنب اقترفن حتى تصبح المرأة الصحراوية ضحية الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي؟

منذ بداية تواجده؛ صاغ الصحراوي نمط حياته وطريقة تفكيره وسبل عيشه. يكتشف مجاله الجغرافي ويحكي عبر الرمان عشق مكانه. بسيط في ملامحه، عظيم في صموده. يسافر بين ثنايا التاريخ ودروب جغرافيا أرضه يبحث تدبير أمره ويداه كحنظلة مشبكتان وراء ظهره. حسبه أنه حرطليق يهيم في شساعتها غير خاضع لسلطة أخرى غير سلطة أعرافه؛ ملتحفا سمائها ومفترشا أرضها، يعيش على كرامته ويصون عرضه ويرفض الانحناء الا لله. بين ثنايا كثبانها وشموخ جبالها وحلزونية أوديتها وعظمة امتداد وادي الساقية الحمراء وهالة جمال وادي الذهب وعلى هضابها وسهولها؛ يحمل على كتفيه كالزاد أمجاده. رغم قساوة طبيعة الصحراء الممتدة؛ هناك صنع الإنسان الصحراوي الحياة. كريم في طبعه، متسامح في علاقاته، شديد في الذود عن شرفه لتحطيم الصورة النمطية عند الآخر؛ على أن الصحراوي فقط راع إبل وغنم في بادية بأفق محدود. لكن نسي هؤلاء أن حرارة الصحراء ونذرة مائها وصعوبة العيش فيها لا يتحملها إلا من خبر كنوز هذه الأرض القاحلة بكثبانها المتحركة وأدرك شهامة رجالها. في لحظة طائشة من الزمن، الصحراء وطن الحلم والأمل غرقت في دموعها، تضرجت في دمائها، تأوهت من فرط آلامها. ما بال سموم الدهر تنساب في عروقها؟ ما بال أكتاف حملت هموم أجيالها؟ "سيزيف"³⁶ المعضب يدحرج صخره من السفح إلى القمة. "نيرون"³⁷ الطاغوي ينظم شعرا على لهيب

36 - تقول الأسطورة إن الآلهة، آلهة الإغريق، حكمت على سيزيف أن يدحرج حجراً من سفح الجبل حتى قمته، وكلما وصل الرجل إلى القمة سقط منه الحجر متدحرجاً إلى السفح ثانية، ليعاود مرة أخرى الفعل نفسه دونما نهاية، إلى أبد الآبدين

37 - كان نيرون متحمساً لتدمير المدينة حتى يتمكن من تجاوز مجلس الشيوخ وإعادة بناء روما كما في مهيكلته . أرسل نيرون رجالاً لإشعال النار في المدينة. شوهد نيرون من برج ماكنس على تلة اسكيلين وهو يغني..

حريقها. أسادي هو؟ أم هم الساديون النرجسيون المتلذذون؟ ترتدي الصحراء الحزينة، الكئيبة الصامدة، المتعنتة، الثائرة والمتمردة أسملا بديلا لطيلسانها. تلك الصحراء الهادئة إلى عهد قريب ما وراء السكون منها تتناسل الأسئلة التي أودعت إجاباتها في أقبية الماضي ودهاليز المجهول. أهى بلدة الإلهام والتنمية وإشعاع الفكر والرفض والقبول والتسامح والاختلاف والتعدد؟ تاريخ يشع بمجده؛ ويعتز بحاضره، يتطلع بكل أمل لمستقبله. وبطولات تحكي ملاحمها لأمواج البحر، على شطآنه فيروز البحر في الأفق يرسم الطوفان ينتظر نوحا والسفينة³⁸. هكذا الصحراء كانت، قبل اللعنة الجهنمية وبعد اللعنة وحتميتها؛ نواح أطفال وأنين شيوخ وبكاء نساء وحسرة وزفرة وتمرد على واقع غريب لم نصنعه بأيدينا، فرضته السدوم علينا. بكاء على أطلال ماضٍ عظيم لطحته أياد شريرة. تمتعت، بل تلذذت بتعذيب أرواح بريئة. رباه، ما هذا الزمن فيه القلوب تحجرت؟ رباه، ما هذا الشطط فيه الحرمات انتهكت؟ رباه، من سوط قدر منه أبكي وأبتسم، أشمئز وأستغرب. فيه غضاضة العمر تذبل ويصبح الشباب شييا وتصبح الشيخوخة عدم... وفي لحظة هادئة من الزمن ... بريق أمل من الغياهب يتحرر، يجمع بين أكنافه عشاق الحرية والكلم الطيب عائدون برؤية حبلٍ للمستقبل. لهم مع التاريخ موعد. من مركز الاختفاء القسري أكذز الأليم، اللئيم، رعى الموت الرهيب لا تبقي ولا تذر. من مرتع المآسي نقتلع جذور ماضينا لنزرعها في تربتنا فتثمر وردا وتمرا وحناء وغصن زيتون. ومن قلعة الجحيم مركز الاختفاء القسري أمكونة نردها بالمحبة نعيم. هناك في "أكذز" و "أمكونة" عبر رحلة علاء الدين، أسطورة سندباد نركب البحر لا نخشى الغرق... للصحراء الوطن نعيد لها أزهارها ونزيع

38 - معجزة إلهية أمر الله النبي نوحاً ببناؤها لحماية المؤمنين والحيوانات من الطوفان العظيم الذي أغرق الأرض

بعد تكذيب قومه له

الأشواك عن طريقها ليبقى الماضي حاضرا في الذاكرة وتبقى أرواحنا في تلك المعازل شاهد عصر علينا، منها نستمد قوانا ونبني المستقبل. وفي لحظة وديعة... من الزمن، يصحو الضمير وتمضي حكايتي رحلتها الأبدية بعد تبدد الضباب وشروق الشمس وخيوطها الذهبية أنشودة تطرب الزمن. إن أنا حكيت آلامي فيها متعة... إن أنا حكيت آلامي فيها عبرة... كيف أني انتصرت على الألم والدم بالصبر وطيب الكلم؟ آه لو سألتهموني؟ أسألوني، كيف اقتحمت المجهول؟ وفي الحلق غصة وفي العين دمة من حلم اختفى كسراب أمام الظمآن. ذاك المساء. اختلط الألم بالحزن وبالحب اختلط. آه يا مسائي الحزين فيه الثعابين تزرع الرعب وتمتص الدم. آه يا مسائي الحزين كيف، اقتحمت فيك المجهول؟ له سراديب يسكنها الغول ينفث نارا كالتنين ويرمي حمما كالبراكين. وكيف، اقتحمت فيك المجهول يا مسائي الحزين؟ كابوسي، ليس كالكوبييس أنا عشته في الواقع عشته بأحاسيسي؛ حلال التنكيل فيه والتعذيب، حرام الرأفة فيه والترحيب. والعرافة الشمطاء تقرأ فنجاني، تولول، تتألم من أقداري وتمعن النظر في صنف أسراري.... في صنف أحزاني. هائم أنا في غيابات الجب، تائه في الغياهب كالمدهم بلا حب، أبحث عن شيء مضى وولى. أهول وراءه كالشيخ الذي أنهكته السنون يلتفت وراءه فلا يرى إلا الهموم وينظر أمامه فلا يرى سوى السراب والأفق المسدود. هل قدرتي، أنني في غضاضة العمر أتجرع معاناتي وتغتصب طموحاتي وتدور رحي الموت حولي مزمجرة، تقطف الشباب في مقتبل العمر وتحصد الشيوخ غير آبهة بهالة وقارهم؟ أعجب أحيانا من بؤس أفكار جلال يسعى أن يجعل حياتي لعنة ويلعب بمعاناتي لعبته المحرمة. يبحث لنفسه عن موهبة تبرر حماسه الوهمية وفظاعته الوحشية ويجعل مصيري على عود ثقاب. أخطأ جلادي، حين غاب عنه كم نحن شيئا وشبابا ونساء لنا قلوب طاهرة، وأياد نظيفة وأن البياض قليل الحمل

للدنس. شراسة الجراد تعبر عن ضعفه! أريدك أن تبتعد بسماجتك عن شمسي، أريد أشعتها أن تدفئ جسمي النحيل بسبب بطشك وغلظة طباعك... في سكون الليل، حين يخيم الظلام الدامس؛ من عتمته تخرج أشباح آلامي من ججورها شاحبة محدقة، تبحث عن فريستها من أحلامي... أنطوي على نفسي وأسألها أي ذنب اقترفت؟ وكيف، إن جن الليل تتسارع كالكلاب المتوحشة المسعورة تنهش أشلائي؟ خلال النهار، تضايقني ذكريات طفولتي وشبابي الضائع. لكن لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس؛ لأن كل ما عشته بعد محنتي كان هبة من السماء.

ليلة الاختفاء القسري

23 مارس 1976

"إنني أحس على وجهي بألم كل
صفعة توجه إلى مظلوم في هذه
الدنيا، فأينما وجد الظلم فذاك
وطني"³⁹.

كان الجو صحوًا، ذاك اليوم من فصل الربيع، 23 مارس 1976. كنت وقتها مع صديق، وقد أتينا من مدينة تيزنيت، حيث كنا نتابع الدراسة بثانوية مولاي رشيد؛ مستوى البكالوريا. كانت الحيوية بادية علينا وكان الحديث بيننا حول موضوع الامتحانات وانتظارات الجامعة، حيث كان من المقرر أن نسجل في كلية الحقوق بالرباط. كنت أطمح شخصيًا للتسجيل في المعهد العالي للصحافة. قد كان هذا اتفاق بيني وبين ابن خالي الذي يتابع دراسته بموريتانيا والذي ينوي القدوم إلى المغرب لمتابعة دراسته بالجامعة صحبتي، ولولوج المعهد العالي للصحافة كذلك. كانت السماء صافية الأديم ويهب نسيم عليل؛ إنه اليوم الثاني من فصل الربيع، بحيث لا زلت وأنت تمشي تشتم رائحة ثرى الأرض. الكل مبتسم، حتى أديم السماء بصفائه ونقاؤه كزرقة البحر تشعر بابتسامة الطبيعة ترتسم عليه. وأهل بلدي يمشون في الشارع بخطى ثابتة رغم ما عرفته المدينة من اختفاءات واعتقالات بالجملة؛ لكنهم يبتسمون وما يفتأون يتبادلون السلام بينهم مطأطئين رؤوسهم حتى لا يصدمهم ما أمامهم من غدر البشر، وكأن شيئًا لم يعكر هدوء الطنطان. يسألونك عن الأهل والدراسة ويحثونك على

الاهتمام بها. الكل هنا أسرة واحدة. لكن بداخلي إحساس غريب ينتابني بأن هذا اليوم ليس ككل الأيام وأن هناك أمر سيغير مجرى حياتي. أطرده هذه الأفكار المشؤومة من مخيلتي، لكن ما تفتأ تفرض نفسها علي. استأنفت الحديث مع صديقي حول الامتحانات، وكيف سنستعد لها لعلني أتخلص من هذا الشيء الذي أصبح يرافقني، يضايقني ويحاصرني. في لحظة تضيق بي الأرض بما رحبت. حلقي جف أريد أن أشرب. لم أعد أقوى على الاستمرار في الحديث معه. فضلت الذهاب، فودعت صديقي على أمل لقائه في المساء. توجهت إلى منزلنا بزئقة العروسين؛ حيث وجدت أمي بانتظاري. نظرت إلي وقالت: أين كنت؟

قلت لها: كنت مع صديقي الناجم.

قالت: جاء (ع. ل) وسأل عنك، ليعرف هل جئت من تيزنيت في هذه العطلة، ويسأل عن أحوالك الدراسية؟

قلت لأمي: كيف عرف أنني جئت من تيزنيت؟

ردت علي: أنت أدري. ماذا يريد منا هذا الرجل؟ أمرنا لله.

لم تكن من عادة هذا الشخص أن يسأل عني ولم تربطني به أية علاقة مسبقاً. معروف هذا الشخص الوضع بالتقرب إلى السلطة. يعمل لديها كمخبر، يسعى للحصول على امتيازات على حساب الأبرياء لعله يصبح من صفوة القوم. من حق أمي التطير به، لأنه نذير شؤم. لم أرد على ملاحظتها، لكنني فسرت إحساسي بوقوع أمر. أخذت كوب ماء ودخلت البيت. مر شريط الاختطافات الأخيرة أمامي، وكيف أن عائلات بأكملها اختطفت وتم التوجه بها إلى جهات مجهولة. استرجعت ما سمعت من بشاعة المعاملة التي تلقوها دون تمييز بين المسن والطفل والمرأة؛ فدب الذعر بداخلي من بشاعة ما يتم تداوله من أشكال التعذيب والترهيب. وسألت نفسي: ماذا فعلت؟ ثم تداركت. وماذا فعل كل هؤلاء حتى يكون مصيرهم الاختفاء

القسري؟ خرجت من المنزل لاستنشق الهواء وأسال عن صديقي، وجدته هو أيضا في ارتباك شديد وي طرح ألف سؤال وسؤال، لكن بدون جواب. صديقي هذا بمثابة أخي؛ درسنا معا الابتدائي والإعدادي والثانوي. حين سافرنا إلى تيزنيت توطدت علاقتنا كثيرا حتى كاد من يرانا يظن أننا توأمين. وفي العطلة ونحن بالطنطان لا نفترق أيضا، ننام ونتجول معا. قليل هم الأصدقاء الآخرون الذين يشاركوننا هذه العلاقة الطيبة والمتينة. والجميل من كل هذا، بعد الإفراج عني بعد سنين من الاختفاء القسري، وجدت صديقي الناجم بنفس الطيبوبة والأخوة. يبدو أن لعنة ما أصابت هذه المدينة الضاربة في عمق الزمن برجالاتها وأحداثها، وأن خيوط مسرحية جهنمية تنسج أحداثها على أديم مدينتي الطنطان لطمس ذاك التاريخ المشع. لكن هيهات... إن تحرقوها...الطنطان ستبعث من الرماد كطائر العنقاء وسيحكم لها التاريخ بالبراءة من جرم لم تقترفه. هي كانت موطن الشرارة الأولى وانطلاق الصيحة الكبرى لرفض محتل جاثم على أرض ليست أرضه، وينهل من خيرات ليست خيرات، بل يستنزفها. جاء لحظة ضعف الشعوب على أراضيها، فاستوطن ومحا معالم أهلها، فهاجروا من أرضهم رافضين تواجد ضيف ثقيل بين ظهرانيهم، فاحتضنتهم الطنطان إلى حين استجماع الأنفاس والقوى لاسترجاع ما اغتصب. الطنطان كتاريخ - كان ذلك، في الزمن الغابر والجميل، زمن المضمّر أو المسكوت عنه كما يقال اليوم - يعتبر تجمعا سكانيا فرضته ظروف القاهرة تتمثل سابقا: في غياب الطرق التي تربط الشمال بالجنوب مما جعل المنطقة في عزلة تامة عن التنمية ومقارباتها. كانت علاقة مدينة الطنطان بالمناطق المستعمرة من طرف الأسبان، علاقة الجسم الواحد حتى كاد الحديث النبوي الشريف ينطبق على العلاقة الدائمة بينهما "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى منه

عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" فالعائلات المشتتة بين المستعمرة الاسبانية والطنطان كان لهم تواصل دائم وكان الصحراوي في الطنطان يلتفت دائما إلى جنوبه ويولي اهتمامه لما يجري هناك من وقائع وتطورات. لئن فصلت الحدود بينهما فالقلوب متعلقة ببعضها؛ يفرحون لنفس الفرح ويحزنون لنفس الألم. بنيت مدينة الطنطان إبان الفترة الاستعمارية الاسبانية سنة 1937، وقد شيدت المدينة على بئر مائي اشتق اسمها منه، بحيث تحكي الروايات الشفاهية أن البئر حين يرتطم به الدلو يحدث صوتا مطنطانا. وقد اختارت اسبانيا تشييد هذه المدينة على هذا البئر، حتى تتحكم في الرحل الصحراويين الذين يقصدونه قصد التزود بالماء وتبادل الأخبار والتسوق. وهكذا، شكلت الطنطان النواة الأولى لتجمع سكاني صحراوي من الرافضين للاستعمارين الفرنسي والاسباني وأيضا من الرحل.

كنا ونحن صغارا لا نغير اهتماما بهذه الأشياء؛ ترعرعنا وكبرنا في الطنطان. كنا كما زلنا نحسبه أرض تسامح ووثام. مدينة الطنطان يحدها شرقا الجبل الأبيض، الذي عرف قصفا جويا خطيرا للطيران الحربي الاسباني في هجماته على الصحراويين سنة 1957. يقسم وادي بن خليل المدينة إلى شطرين؛ الطنطان الأبيض والطنطان الأحمر من جهة، وحي العمالة وحي التكرية من جهة أخرى. وكنا نحن كأطفال موزعين إلى مجموعات، كل مجموعة تحمل أسم الحي الذي تنتمي إليه. مجموعة " لخريبة " وكانت تضم أطفالا مشاكسين يزرعون الرعب. مجموعة الطنطان الأحمر المعروفة بالدقة في رمي الحجارة بالمقلع. مجموعة العمالة بالرغم من قلة عناصرها كانت قوية بنيويا. مجموعة دوار العسكر المعروفة بالهجمة الجماعية. مجموعة "لخشبية " التي كانت تتوسط المدينة، كانت تخلق التوازن وأحيانا تلعب أدوار الوسيط. مجموعة

"موطورالضوء " التي تتحالف كثيرا مع " لخريبة " لمواجهة الطنطان الأحمر. مجموعة دوار العسكر. مجموعة الخميس القديم⁴⁰ التي تسيطر على ملعب كرة القدم المحاذي لمقبرة الشيخ الفضيل وأخيرا مجموعة السلسلة التي يتم اللجوء إليها في وقت الشدة لأنها تمتلك فضاء شاسعا يمتد من لخشبية إلى الكامبو (شارع الشباب) ونهاية المدينة. كل هذا يجري في هذه المدينة لكن بدون ضغينة ولا حقد ولا عنصرية؛ فقط هي مراقة الشباب والحرص على السيطرة والقيادة على بعض المواقع (زمن الفتوة) ومحاولة بلورتها على بعض المساحات من المدينة. صحيح تحدث بعض الأحداث لكنها لا تخلق استياء لدى الساكنة. ومع مرور الزمن طبعت هذه التصرفات المراهقة مدينة الطنطان وخلقت بين شبابها احتراماً وحباً وتقديراً لازال قائماً حتى اليوم. ونحن رجالا اليوم نجلس فيما بيننا ونتحدث عن تلك المرحلة بكل شوق وتقدير واحترام. إنها الذكريات الجميلة لزمن جميل. ذاكرة وشمّت أديم المدينة إلى الأبد. كثيرا من سكانها يصفونها بمدينة الأولياء نظراً، للأضرحة التي تحرسها من كل الجهات. ضريح الشيخ محمد الاغظف - ضريح الشيخ عبداتي - ضريح الشيخ الفضيل - ضريح سيدي أعلي - ضريح لفقيه مبارك - ضريح عياش مول الكارة. نسي من يقرأ تاريخ هذه المدينة أنها ضمت أناساً من كل المناطق الصحراوية جعلت منهم عائلة واحدة؛ يوحدتهم التاريخ والمصير المشتركين. تعتمد الطنطان على السوق السوداء وتهريب التجارة الآتية من المستعمرة الإسبانية. فالتجارة بهذه الوسيلة هي مصدر عيش السكان في غياب سياسية اقتصادية مندمجة؛ تجعل هؤلاء لا يلتفتون أكثر إلى الشمال. فالهوة واسعة بتعاقب مجموعة أحداث أثرت على العلاقة التي كانت بعض الجهات تطمح لتوطيدها. لذا اجتهد سكان المدينة في هذه الأنشطة المدرة

40 - اسم لسوق أسبوعي بالمدينة تحول بعد ذلك إلى سوق الأحد.

للدخل، بعيدا عن تدخل الدولة ومارسوا التجارة الحرة لشحنها إلى أقاليم شمال المغرب مما سبب في وضع اقتصادي مزر كان له الأثر السلبي على نفسية كل الشرائح الاجتماعية، بما في ذلك علاقة المجتمع بالسلطات القائمة والتي كانت لا تحمل أي حلول اقتصادية، تجعل المنطقة تعرف نهضة تنموية واقتصادية. كما كانت هذه السلطات تفتقر إلى إجابات عن الأسئلة الملحة والقضايا الكبرى المرحجة التي يطرحها السكان من حين لآخر. وقد كان نتيجة هذه السلوكيات المتنافرة بين السكان والسلطات القائمة صدامات واحتجاجات وضعت المنطقة على كف عفريت والهوية على المحك؛ أحداث 1963⁴¹. السكان الذين يشكلون صنفين من المجتمع يتوزعون بين من كان يعيش على الترحال وتربية الماشية ويتنفس الهواء في فضاء لامتناهي، لا يعرف إلا حدود الجفاف ومناطق هطول المطر؛ سيجد نفسه مضطرا للعيش في الحضر مما سينعكس سلبا على قيم حياة الترحال التي ستززعزع في أسسها كمؤسسة مبنية على حرية التنقل وعدم الخضوع لأي سلطة إدارية أو معايير حدودية. فقط شساعة الصحراء وقسوة الصمت المخيم عليها هي التي تمنح العنصر الصحراوي قوة الإرادة وتحمل الصبر والجلد. ومنهم من فر من ويلات الاستعمارين الاسباني والفرنسي جراء تحالف "إيكوفيون"⁴² على المنطقة ما جعل المرحلة تعرف وضعاً اجتماعيا غير منسجم؛ مما أدى بالدولة بالتدخل لمساعدة السكان بمواد الدعم وتزويد الناس القادمين بأكلة اصطلاح على تسميتها اجتماعيا "بالرانجو"⁴³ حيث، ترى طوابير من الناس أمام الثكنات العسكرية لتلقي

38 - سيدي مرزوق. احتجاجات اجتماعية تطالب بتحسب ظروف العيش. تم اعتقال 400 محتج من بينهم محمد ولد ابراهيم ولد عمر وآخرون.

42 - تحالف اسباني- فرنسي في الصحراء الغربية سنة 1958، تعتبر إحدى أبشع مجازر الاستعمار المقترفة.

43 - أكلات تحضرها الثكنات العسكرية المتواجدة وتوزعها على الساكنة للتخفيف من معاناتهم.

هذه الأكلة. خلق هذا الوضع خيبة أمل كبيرة لدى هؤلاء، بحيث من كان يمتلك المواشي وفضاء الصحراء أصبح عالة على الدولة ومن كان من عائلات الجنود المنخرطين في الجيشين الأسباني والفرنسي ونظرا لرفضهم للاحتلال فروا من العيون والداخلة وبوجدور والسمارة وتيندوف تجاه الطنطان ملتقى الأحرار تاركين ممتلكاتهم هناك رافضين المحتل وعازمين على حماية الوطن؛ أصبحوا هم أيضا عرضة للضياع. كما التحقت بهذه المدينة أسر الجنود المسرحين تعسفا من الحاجب دون تعويض أو معاش وكان عددهم 1170 الذين بعد تسليمهم البديل العسكرية وبعد خضوعهم للتدريب لمدة أحد عشر(11) شهرا؛ استقبلهم الجنرال الكتاني وهم مصطفىون أمام العلم الوطني المغربي ليقول فيهم " إن الحقوق غير موجودة والمغرب لا علاقة له بكم ولو كان فيكم خير لدرتو فبلادكم يا لمهيفين " عبارة الجنرال هذه خلقت لأول مرة عند الجنود المسرحين إشكالية الهوية⁴⁴. " ... تمت معاقبتهم وارسالهم الى مناطق باردة ومناطق ثلجية في فصل اشتهاء: مثل إفران والحاجب وصفرو، بل خيبت جيوبهم حتى لا يضعوا أياديهم في الجيب لتجنب البرد وكانت هذه العملية العقابية أليلة جدا فقد فيها الكثيرون أطفالهم الصغار في ظروف مناخية قاسية وتشتتوا في الاخير بعدما سحبت منهم الرتب التي حملوها لأكثر من سنة. كان هؤلاء عبيد خدمة من نوع جديد أو مرتزقة بدون علمهم "⁴⁵. "عاش جيش التحرير فترة صعبة سنوات 1958/1959 و1960. تصفيات جسدية ومؤامرات. كانت هناك فصائل متناحرة في المقاومة وجيش التحرير. كانت هناك دار بريشة وما شهدته من تصفيات وكانت هناك تصفية الحساب بين المقاومة

44 - جريدة الصباح. العدد 1838 السنة السادسة. الاثنين 06 مارس 2006. حوار بين ر. ر مؤلف الصباح الى

العيون مع الشيخ حسنة ولد الكرشة.

45 - حوار مع الدكتور بيد الله محمد الشيخ بجريدة الوطن. الخميس 18 يونيو 2009. العدد 343..

وجيش التحرير وتصرفات مخيفة لجيش التحرير ضد بعض الأشخاص الذين تم نفيهم من شمال المملكة الى منطقة كلميم والذين كانوا يحفرون قبورهم ويقتلون (بضم الياء) بداخلها. كان هذا أمرا مخيفا بالنسبة للصحراويين، حيث كان هؤلاء السجناء يمرون بسوق كلميم نهارا وهم يلبسون أكياس السكر الخنشة (خنشة) لتعذيبهم والتنكيل بهم وقتلهم أمام الملأ مما أثار اشمئزاز العنصر الصحراوي بصفة عامة وتولد عنه خوف كبير مازال حاضرا إلى الآن في أذهاننا⁴⁶. العنف الرمزي الذي تعرضت له الثقافة والهوية الصحراوية خلال هذه الفترة من تاريخ المنطقة أضحى يفرض إلى أي مدى أصبح من الضروري الحديث عن سؤال الهوية. ذلك أن أبناء العائلة الواحد تحمل جنسيات متعددة؛ فهناك من يحمل الجنسية الاسبانية أو الجنسية الموريتانية أو الجنسية المغربية أو الجنسية الجزائرية. وبفعل الترحال كان هناك من يحمل الجنسيات الأربعة مما جعله يتنقل بماشيته بين الأقطار الأربعة غير مهتم بأي جنسية ما عدا أنه صحراوي أصيل وما عداها فهي تستعمل فقط لقضاء المآرب.

هذه الأوضاع وغيرها، تم استثمارها من طرف مجموعة من الطلبة الجامعيين الصحراويين بقيادة شاب طموح - الولي المصطفى السيد- كان حلمه الكبير معية أصدقائه هو لَمْ شمل كل الصحراويين في وطن واحد بعد سنين من المعاناة والشتات. وقد تزامن مطلب طرد الاستعمار من الصحراء الغربية مع أحداث "الزملة" بالعيون سنة 1970، حيث تم تنظيم مظاهرة الطنطان التي تطالب الاحتلال الاسباني بمغادرة الصحراء الغربية، غير أن هذه المظاهرات واجهتها السلطات المحلية بسياسة العصا والقمع فتم التنكيل بالمظاهرين المطالبين برحيل المحتل الاسباني سنتي 1971 و 1972 وكانت هذه المظاهرات تتزامن مع انعقاد موسم الشيخ

محمد الأعظف السنوي باعتباره ملتقى دوليا للرحل، يتم من خلاله اللقاء بين جميع القبائل الرحل في المنطقة، فيتبادلون المعلومات ويمارسون التجارة ويكيلون زادهم، لينطلقوا من جديد عبر الصحراء بعدما علم كل واحد ما يجري من أحداث في المنطقة للاستعداد لمواجهةها. فالصحراوي بذكائه الفريد وبفطنته يستطيع إخفاء أسراره وعدم إظهار انشغالاته، فيحضر لها بكل هدوء ومرونة. تمّ اعتقال هؤلاء الطلبة/الشرارة والتنكيل بهم ورفض أي حوار معهم؛ يمكنهم من بسط مطالبهم والغاية من هذه المظاهرات. كان هذا كله مع الأسف نتيجة سوء فهم لسلطة جاهلة للأوضاع المتسارعة في المنطقة، لم تستجب ولم تقدر عواقب ما يجري من أحداث ستؤثر فيما بعد على المنطقة بأكملها. فالشعارات التي رفعت كانت مناهضة للتواجد الاسباني "بالكفاح والسلاح نفدي الصحراء بالأرواح"، "أسبابنا تمرك برا والصحراء تصبح حرة". كما وزعت منشائر تطالب فيها مساندة السلطات المغربية من أجل تحرير الصحراء الغربية وتطلب من الصحراويين الانتفاض للكفاح من أجل التحرير. تمّ اعتقال الشباب وتعذيبهم مما فتح صفحة جديدة للاعتماد على الذات لتحرير الصحراء/الوطن. وهكذا بدأت بعض الشعارات المهمة تتداول في أوساط الصحراويين: الثورة وما تجسده من قيم الوحدة وانصهار الشعب في هدف واحد، الكفاح ضد الرجعية والامبريالية، الصراع الطبقي ودورا لبروليتاريا في انعتاق الشعوب نحو الحرية، المساواة التي تنصهر فيها كل الفوارق الطبقية، نبذ العنصرية والقبلية التي اعتمدها المستعمر في سياسة فرق تسد، حرب التحرير والحرب الشعبية. مجموعتان صحراويتان تلاقحت أفكارهما وتقاربت: المجموعة الأولى فرت من القمع الاسباني خاصة بعد انتفاضة الزملة والمجموعة الثانية خرجت من المغرب بسبب أخطاء أمنية ومتابعات واعتقالات طالت المتظاهرين في الطنطان بعد سنة 1972 وكان

من بينهم الولي مصطفى السيد الذي سيكون أول زعيم لحركة المطالبة باستقلال الصحراء الغربية، بعدما كان أول معتقل في انتفاضة موسم الطنطان المطالبة بخروج الأسبان منها.

كانت المنطقة العربية والساحة السياسية المغربية تعيش مخاضا وحبل على مستوى الأفكار. فالأحزاب الوطنية التقدمية: الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب التحرر والاشتراكية برزت من داخلها تنظيمات سياسية راديكالية في أواخر الستينيات وبداية السبعينات تستقي مرجعيتها الأيديولوجية من الماركسية/اللينينية ومتأثرة بالثورة الثقافية الصينية وظهور اليسار الفلسطيني وأجواء ثورة ماي 1968 بفرنسا وتأثيرها الواسع في الوسط الجامعي والتعليمي على الخصوص؛ الاتحاد الوطني لطلبة المغرب والنقابة الوطنية للتلاميذ بالرغم من الطابع السري لتنظيماتها الثلاث: "إلى الإمام" و"23 مارس" و"لنخدم الشعب" المنشق عن 23 مارس. كل هذا كان في وقت تعرف فيه الأنظمة العربية مدا وجزرا؛ بين البحث عن الديمقراطية والعدالة الاجتماعية من خلال البناء الاشتراكي من طرف الشعب تارة وبين الأنظمة المنشئة بالحكم مستعملة أبشع وسائل القمع: من اختطافات ومتابعات واغتيالات خارج نطاق القانون للسيطرة؛ بغض النظر عن الوسائل المستعملة لذلك. " في فترة الستينيات، كانت الإدارة المغربية، بمنطقة وادنون والطنطان تمثل نموذجا لإدارة عديمة المصادقية على جميع الأصعدة والمستويات مما أدى بالشباب الصحراوي الى الدخول في مرحلة المراجعة ... المرتبطة بالتأثير الايديولوجي في الجامعات وفي المحيط السياسي بالرباط والدار البيضاء خاصة بعد أحداث 23 مارس 1965 والتطورات التي عرفتها الساحة السياسية المغربية على امتداد النصف الثاني من الستينيات والانقلابات التي تمت

عامي 71 و1972⁴⁷". تم استغلال أول فرصة من جانب الطلبة الصحراويين المتشبعين بالفكر التحرري والحرية والنضال ضد المستعمر ومقاومة الاستبداد بفضل احتكاكهم وتأثرهم باليسار العالمي ليفصحوا عما تحمله أفكارهم من طموح وتطلع للمستقبل. رؤى تجسدت باتصال هذه المجموعة الطلابية مع التقدميين المغاربة وحثهم على الدعم لتحرير الصحراء الغربية من الاستعمار الاسباني ... غير أن كل الاتصالات كانت فاشلة نظرا لعدم قدرة هؤلاء على تفهم أفكار الطلبة الصحراويين والانسجام مع مطالبهم المشروعة؛ اللهم بعض التعاطف من التنظيمات الثلاث سألقة الذكر المؤيدة لتقرير مصير الشعب الصحراوي.

من أحشاء هذه الوقائع وواقع التناقضات الداخلية والتراكمات الخارجية والحركية التي يعرفها المجتمع الصحراوي ككل؛ تم الاعلان عن تأسيس الإطار التاريخي الذي، سيقود الكفاح المسلح ضد الاستعمار الاسباني.

تحت شعار " بالبندية ننال الحرية " انعقد المؤتمر التأسيسي للجهة وأصدر البيان التالي:

« إزاء تشبث الاستعمار بالبقاء مسيطرا على شعبنا العربي، ومحاولة تحطيمه بالجهل والفقر والتمزق والفصل عن المغرب العربي والأمة العربية.

وإزاء فشل كل الأساليب السلمية سواء التي قامت بها الحركات العفوية أو المنظمات المفروضة أو التي تبنتها بعض الأطراف:

تتكون الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب كتعبير جماهيري واحد، متخذة العنف الثوري والكفاح المسلح وسيلة للوصول

47 - جريدة الوطن. الخميس 18 يونيو 2009. العدد. 343. حوار مع الدكتور مصطفى ناعمي.

بالشعب الصحراوي العربي الإفريقي إلى الحرية الشاملة من الاستعمار الاسباني وضرب مؤامراته.

- جزء من الثورة العربية

- تدعيم نضال الشعوب ضد الاستعمار والتمييز العنصري والامبريالية لذلك تدينها في محاولة إبقاء الشعوب تحت سيطرتها سواء بالاستعمار أو الحصار الاقتصادي.

- تعتبر التعاون مع الثورة الجزائرية الشعبية في مرحلة انتقالية عنصرا أساسيا لضرب المؤامرات على العالم الثالث.

- تدعو جميع الشعوب الثائرة إلى التكاتف من أجل مواجهة العدو المشترك.

بالبندية ننال الحرية. اللجنة التنفيذية. 10 ماي 1973.»

متخذة من " العنف الثوري " عبر الكفاح المسلح نهجا من أجل الحرية والاستقلال ضد الإدارة الاستعمارية الاسبانية؛ بعد فشل كل أسلوب النضال السلمي التي، قمعت بعنف وهمجية من قبل المستعمر يوم 17 يونيو 1970. حمل المؤتمر اسم الفقيد محمد سيدي إبراهيم بصيري مؤسس حركة تحرير الساقية الحمراء أو ما عرف بالحركة الطليعية لتحرير الصحراء الغربية.

وتحت شعار " حرب التحرير تضمنها الجماهير " انعقد المؤتمر الثاني ما بين 25 / 31 غشت 1974 وحمل أسم الشهيد عبد الرحمان عبد الله. بعد الهزائم العسكرية اقترحت السلطات الاسبانية فكرة " الحكم الذاتي " وأسست لهذا الغرض " حزب الاتحاد الوطني الصحراوي ". رفضت جبهة البوليساريو كل خيار غير؛ خيار الاستقلال التام. وكان الرد واضحا وقويا في البيان السياسي للمؤتمر الثاني " إن فكرة الحكم الذاتي ليست سوى

مناورة استعمارية، تحاول اسبانيا من خلالها تغطية فشلها والتشبث بالبقاء مهيمنة على وطننا ونهب خيراته " كما صادق المؤتمر على العلم الوطني، والنشيد الوطني؛ وانتخب الولي أمينا عاما لجهة البوليساريو، ولجنة تنفيذية من سبعة أعضاء، ومكتب سياسي من واحد وعشرون عضوا. كل هذه الشعارات ولدت لدى الشباب والمواطن الصحراوي إحساسا بالانتماء إلى وطن يزرع تحت الاستعمار، ويجب التجند لتحريره. لذا اعتبر الصحراويون الجهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب الوعاء الذي يشمل أحلامهم ويعتقن مبادئ سامية ويدافع عن قيم نبيلة. كما تم نشر وتوزيع الكتب الثورية بشكل كبير أوساط التلاميذ: من كتب ماركس وانجلز ولنين وماو تسي تونغ وبيان الحزب الشيوعي والكفاح الميرالذي قدمه هوشي منه وتشيتشي غي فارا وفيدل كاسترو ضد الاستعمار وتفصيل الحرب الكوبية ضد الدكتاتورية، بالإضافة إلى حركات التحرير الإفريقية في الموزمبيق والكونغو الديمقراطية وانغولا وناميبيا وحرب التحرير الجزائرية الخ. انه العنف الثوري؛ سلاح الشعوب المقهورة الذي لا بديل عنه للانعتاق نحو الحرية. وأتذكر أنه في صيف 1972 قدم إلى الطنطان فنان موريتاني ثوري يدرس بتونس اسمه محمد شين؛ على عزف الغيثارة ألهم الشباب بصوته الرخيم بأغانيه الثورية على فلسطين من كلمات الشاعر أحمد ولد عبد القادر.

في الجماهير تكمن المعجزات *** ومن الظلم تولد الحريات

إنها شخصيات وتمثلات أثرت في، تنشئتنا السياسية والثورية. وأصبحنا نرى هؤلاء الشباب رموز وطن يتشكل وأبطال شعب يستعد لمعركة تحرير طويلة الأمد. الرجوع إلى نشأة هؤلاء الأبطال تكاد تجزم أنهم رسل قضية؛ من أجلها ضحوا بكل غال ونفيس. آمين بأن طموح الشعب نحو الحرية لا

تثنيه إرادة المحتل. التَّمَعَّن في حياة الشهيد محمد سيد إبراهيم بصير وفي حياة الشهيد الوالي المصطفى السيد وفي حياة الشهيد محمد عبد العزيز وتضحياتهم الجسام وهم في ريعان شبابهم تاركين ملاهي الدنيا والكراسي الجامعية والوظائف؛ ممتشقين البندقية في وجه الإمبريالية العالمية والأنظمة الرجعية. صعدوا قمم الجبال كالنسور الكاسرة رافضين الإذلال، رابضين كالأسود فوق التلال امتثالا للإرادة الشعبية في العزة والكرامة لهو عبرة لمن يعتبر ودرس تاريخي سرمدي لمن أراد أن يعرف أن إرادة الشعوب لا تقهر. فعلا لا تقاس حياة الأشخاص بعدد السنين التي عاشوها، لكنها تقاس بإنجازاتهم العظيمة. وهكذا حتما هي روعة الإنسان بما يمنح لغيره وليس بما يملك. قادة استشهدوا من أجل الشعب والقضية. أفضل النهاية، تلك التي تعطي البداية للآخرين. تركوا الشعب إلى جنة الفردوس لكنهم، لم يغادروه بأفكارهم، لأنهم أديون. هؤلاء الأبطال منحوا حياتهم لقضية استعدوا للتضحية من أجلها. صحيح أن الأخيار لا يعمرن طويلا. ماذا عساي أن أقول عن هؤلاء الخالدين؛ أهم كرة ملتبهة من الحب والمقاومة والرفض تستلهم الهمم بتضحياتها؟ أهم كرة ثلج تخدم حرقة في الوجدان والبحث عن حقيقة العمق والشموخ من العدم؟ كثيرا هم من يتكلمون، لكن قليلون هم من يحولون كلامهم إلى أفعال ويستطيعون لمس أوتار القلوب بإعمالهم. كيف لجيل عايش هؤلاء الأبطال أن يتقاعس عن الواجب الوطني؟ وكيف، لأجيال لاحقة ألا تؤمن بما أتوا به من أفكار تحررية؟ أبطال استشهدوا بكل مجد من أجل قضية. بكل إيمان سجلوا في التاريخ ملحمة شعب أبي وعلموا الأجيال كيف تموت النسور. لقد قدم هؤلاء الحالمون للشعب حلما استثنائيا وخطة مستقبلية جعلت كل الجهود تتكاثف لتحقيقه. هذه الشخصيات الصحراوية العظيمة غرزت في كل فرد صحراوي هذا الحلم وكيفية انجازه. قدموا المثل في الأخلاق والتضحية

والنضال. هكذا كان أبطال قضيتنا؛ أعطوا كل شي حتى حياتهم كي يعيش الشعب وينتصر الوطن. رحلوا كأبطال وخلدت أمجادهم بعدما تشكل وعي سياسي وهوياتي بموجبه؛ إما أن يعيش الصحراوي من أجل هدف أو يموت من أجله. وفضلوا أن يشكّلوا منارة من الضوء والإلهام فحق عليهم قوله عز وجل. " مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ⁴⁸" صدق الله العظيم. إنهم بكل اختصار رمز جيل نظيف ونبيل. هكذا هم لأنهم رجال مواقف والمواقف تحتاج إلى رجال. وأنا استحضر محاسن شهداء القضية استلهمني المؤلف الأمريكي تود هنري في كتابه " مت فارغا Die empty " والذي بذل فيه قصارى جهده لتحفيز البشر بأن يفرغوا ما لديهم من أفكار وطاقات كامنة في مجتمعاتهم وتحويلها إلى شيء ملموس قبل فوات الأوان. أجمل ما قاله تود هنري في كتابه " لا تذهب إلى قبرك وأنت تحمل في داخلك أفضل ما لديك، اختر دائما أن تموت فارغا " يعني مت فارغا من الخير الذي بداخلك، سلمه قبل أن ترحل. إذا كنت تملك فكرة فننفذها أو علما فبلغه أو هدفا فحققه أو حبا فوزعه وانشره، ولا تكتم خيرا بداخلك فتموت ممتلئا متخوما وتكون لقمة سائغة لذیذة لدود الأرض". " إذا أردت أن تحيا بعد موتك فأفعل واحدا من اثنين؛ أكتب شيئا يستحق أن يقرأ أو افعل شيئا يستحق الكتابة ⁴⁹ "

أمشي على حد السكين. أجمل شيء مراهمتي عشتها مكبوتة بين أسوار شاهقة تحجب فطرة التمرد. لا أحدا يشبهني غير نفسي، يسكنني حلم مجنون حتى بالحبر على الورق ليس للتعبير. في ثنايا خاطري حروف لا تكتبها الكتابة. صمتي يثير جلادي برفضی لما لا احتمل ويعكس ما لم

48 - سورة الأحزاب الآية 23

49 - جون جاك روسو

يستطع فهمه حين كنت أتكلم. هكذا يصبح الصمت فعل تأمل والتأمل فعل مقاومة. ضئيلة هي الفرص للنجاة منه حين يتحول بوحشيته إلى حصان جامح. بين الاستقطاب والإقصاء مسافة زمن؛ لا الاستقطاب يستهويني إن لم ينطلق من داخلي ولا الإقصاء يؤلمني إن كان عكس قناعاتي. ولن أذهب إلى كانوسا⁵⁰. لذا لا تحكم على خياراتي إذا لم تكن تعرف أسبابي ولا تحكم على أسبابي لأنك لم تعيش حياتي⁵¹. يربعهم كونك مختلفا؛ كونك لا تشبه تكرارهم⁵². مزاجي على حافة الصبر. سنوات من الاختفاء القسري عشت فيها التمر والإهانة وخطر الموت المحدث يشعرك بالاختناق. في لحظة ضعف إنساني أبحث عن جرعة دواء ولو بين أحضان تتين ينفث نيرانه المميته. في أجنحة هذه المخابئ كل شيء معلق في انتظار مؤلم. تحاك من حولي خيوط عنكبوت تخنقني ولو أن أوهن بيت، بيت العنكبوت وأنا لا أتأقلم - أكبر تنازل في حياتك هو أن تتأقلم - التأقلم مع الشر استسلام للمقاومة. يميل الانسان أحيانا الى تبني الوهم بدل مواجهة الحقيقة. من يخاف من الاختلاف يخشى من الديمقراطية والديمقراطية فن الدبلوماسية الرفيع. العقل الحر الذي لم يتعود على تبعية أحد يحدث ضجيجا في أي مكان يتواجد به⁵³. الحرية ليس أن تفعل ما تريد، بل ألا يفرض عليك ما لا تريد⁵⁴، لذا حرروا الحرية والحرية تقوم بالباقي. لا يمكن أن تصبح الحرية هدفا إلا إذا تساوى الجميع في الأهداف؛ فالحرية هي قضية إنسانية

50 - تشير إلى رفض التنازلات السياسية أو الخضوع لضغوط خارجية. تعود العبارة لعام 1077م حين أُجبر الإمبراطور هنري الرابع على الانتظار أياما في البرد بقلعة كانوسا الإيطالية ليطالب عفو البابا، لتصبح رمزا للتكفير عن الذنب قسراً.

51 - ألبير كامو

52 - د. فرج فودة

53 - نيتشه

54 - جان جاك روسو

بعد أن كانت رسالة إلهية. أي فكرلا يستنبط أي رؤى مستقبلية للحاضر أو أي قضية بأبعادها التاريخية ولا يخلق بديلا مغر للمواجهة ولا يسعى إلى بلورة الوعي الجماعي كمسألة تحرر ولا يرفض الظلم بقلب شجاع يسقط تلقائيا في عبث أوهام ثقافة الخوف؛ والخوف لا يمنع من الموت، لكنه يمنع من الحياة⁵⁵. أرفض الكتابة بسكين في قبضة يد هائجة أو برصاصة طائشة من قناص لا يتقن الرماية بل أكتب بعتاب أقوى وأشد وطأة من الحسام المهند. سوف أكتب بغضب وانفعال وقلق وبالأمل أجعل الحروف تنساب كلمات تنطق جرأة، بعدما قيدت بأغلال المنع والصمت لأدفعها متمردة على القمع والعنف واللاعزل وأجعل منها مأوى للكرامة ومعنى للتسامح لأن من يزرع الكراهية يحصد الفشل. فمطلب العدالة يعني أننا نحمي الإنسانية من الإكراه ونمسح دموع مظلوم بفعل إنزال؛ منه يبيت ليله ويظل نهاره رافعا يداه للدعاء والدعاء سيف المؤمن⁵⁶ ونضع مرهما على جرح مكلوم لا زال ينزف. الفكر المقاوم لا يهزم مهما طال الأمد؛ لأن الأمل ينهض من أنقاض الألم ومن ركام المعاناة تبنيه الإرادة. لست مهزوما ما دمت تقاوم⁵⁷. إذا لم تستطع الدولة تحقيق الإنصاف والتحرر من دوائر الظلم ولم تصن الحقوق ستسقط نحو اللادولة. لأن أول مهام السلطة خدمة المواطنين لا التحكم فيهم.

كسندباد أجوب في رحلتي سراديب مخابئ سرية، خارج الزمن والمكان بلا إحداثيات. ليست في خرائط الدولة ولا في وثائقها الثبوتية أكتشف قبحها، وأخط حروف الدهشة لما عشته من كراهية في أقبيتها المظلمة. مخابئ سرية كانت ردة أخلاقية ودناءة إنسانية وكفر بالحق في الحياة

55 - نجيب محفوظ

56 - ابن القيم

57 - مهدي عامل

واستثنائية لافتراس جلاذ بضحاياه تجاوزت المنطق. كيف، يتم تبني الاختفاء القسري في مواجهة المعارضين؟ سأترك ولو خدشا من أظافري على صفحة الاختفاء القسري؛ ليعلم من تواطأ مع جلاديه على حقوق الإنسان خلال النضال من أجل حمايتها؛ أنني أبغض القوانين التي تقمع الحريات والفتك بالوجود الحر والكريم. ليس من العدل أن تبرر التشريعات ممارسة العنف والظلم. تسقط الأنظمة حين تدعي الحداثة وهي تختلف عن إبعادها التي تجعل من الديمقراطية وحقوق الإنسان لبنة لسياساتها ليعيش المواطن بعيدا عن الخوف وعن التهديد في حياته. تعطل هذه الأنظمة العقل الحداثي المعتمد على الإدراك الواعي والتحليل النقدي لمعالجة إشكالية الحرية والبحث عن الحقيقة كوسيلة للتنوير، فتسعى في اغتراب الإنسان وضبطه خدمة للسيطرة والهيمنة وتعلن كفرها بالبحث عن الحقيقة لأنها لا تخدم مصالحها وتفشل في تطبيق العدالة التي هي أصلا مركزية الحق والحرية، بدل العنف والقمع. وهكذا، تتحول منظومة حقوق الإنسان من فضاء لتنمية الإنسان إلى أداة للتوظيف السياسي؛ فيصبح كل من يفكر يقصى وكل من يطبع يجزى. وعليه تغدو المصالحة مستحيلة إلا إذا توفرت شروطها. لا مستقبل لأمة إلا في إطار حريتها وسيادتها.

كل أعيادي مؤجلة ممنوع الزينة والتبرج. السواد لوني المفضل السائد المستبد. في لحظة انكسار الإدراك يتململ الأمل بين قوس البداية المخيفة وقوس النهاية المجهولة. الحزن صار جزءا من هويتي والفرح أضحى قلة أدب مني. الجرح الذي يسكنني يستفز أعماقي في لحظة مواجهة بين ذكريات مريرة ترافقني ومعاناة بئيسة لم أستطع فيها حبس دهشة ثائرة على وضع استثنائي وليد لحظة طائشة حسبتها أغلقت إلى الأبد. أريد ترتيب الفوضى بداخلي. هناك عندي ضبابية عن صورة الآخر. لا أجد له

أعذارا وأرفض سوء فهمه للآخر. أرفض سعادته في تعذيب وتدمير الآخر وتعابير وجهه برجولة مزيفة وهو يدك الإنسانية بدم بارد، حيث التدمير النفسي سيد المشهد والعدائية الحادة بالكرامة. أشياء كثيرة وراء الصمت لا تريد البوح. أحمل جرحا وإن سكت فالألم تتكلم. وقفت في وجه تعبي وقلقي وغربتي في المخابئ السرية واخترت الاستمرار في الحياة بين دروب الخيبة تارة ودروب الانتصار تارة، حيث امتزج الحزن بالفرح وتعب الرحلة وطمأنينة الوصول. أرمم كسوري وأضمد جراحي في عز وجعي وأرسم ابتسامة تحد في مكان، حيث الابتسامة ليست آمنة من قمع سائد لجلاد يرقص على ألأمي وأرفض أن يتحكم غيري في مشاعري. بكل اختصار قصتي تحكي أزمة حقوق إنسان منتهكة، ضاقت بها الأرض وأغلقت من دونها الأبواب. حقوق سافرنا معها في الكتب وأطربنا بأنغامها الموسيقية وقرأناها آمالا في عيون محرومة وعشناها مع رفاق جهزوا حقائبهم على أكتافهم نحو عوالم الحرية بخيال متحرر من عقد الماضي. الإنسان يسافر بفكره حتى وإن ظل في مكانه. هذه الفترة تستحق من يقرأها، يحللها، يفك شفرتها ويغوص في البحث عن أسبابها ومآلاتها في زمن مليء بالأنانية والصراع مررت فيه الدولة أخطاء جسيمة، بعدما حدثتنا عن الحداثة وتحرر الروح من جغرافيا التخلف الفكري تحول فيها الاستبداد إلى سلطة تنتشر الخوف وترفض ثقافة الاعتراف؛ كأن المطالبة بالحرية تهمة والدفاع عن الكرامة جريمة. كتابة هذه الصفحة ليست رحلة متعة فقط، بل هي رحلة فضح لأنين شيخ من شدة المرض في جنح الظلام حيث تتشتت آهاته على جدران صماء وصرخة مظلوم في الغربة لا تجد من يهدئها ودمعة ألم من امرأة تخطت كل حدود اللباقة الإنسانية ورحيل شهيد مستمر في الخلود نفذت برودة الموت بخطى بطيئة إلى روحه دون أن يرى حلمه يتحقق وحيرة مختفين قسرا يعيشون أنواع التنكيل بلا شفقة.

كل دمة تسيل على خد محروم من حقه في الحياة أو من مظلوم سلب من حريته تروي فصلا مؤلما من ذاكرة ممزقة. ذاكرة تفلت فيها المشاعر من قالبها وتكشف ما كان متراكما تحت الرماد. مختفون قسرا لا يعرفون شيئا عن المستقبل، معركتهم الوحيدة البقاء على الحياة كشرط إنساني من جلد لا يعرف الرحمة، حيث الموت بالتقسيط وأحيانا كثيرة بالجملة. أشجع فطرتي بما فيها من ضعف وقوة على الإصرار، لأن حيثما وجدت الإرادة يفتح باب للاستمرار. رأسمالي الهواء الذي استنشق لوثه، دمروا بيئة تحتويه. في هذه الأمكنة البئيسة لحظات من فرح ثمينة ضاعت، تناثرت في مهب الرياح؛ أمكنة مسكونة بالهوس تغرس أظافرها في أحشائي تمزقها، حتى الربيع بجماله باهت بعد أن كبلوا أزهاره بأسلاك شائكة. كثيرا هو الضجيج الذي يكسر الصمت ويملاً السكون بانفلاتاته. أبحث عن ذاتي بين عبق التاريخ وسحر الحاضر أبحر على ظهر سفينة بلا ربان، تتلاطمها الأمواج بلا رحمة؛ حيث تمتد الآمال على أطراف الدنيا كبساط يحمل زخم ملاحم أسطورية بين ثناياها صفحات مجد خالدة. أخلو لنفسي فلا تكاد نفسي أن تخلو لنفسها فتبحث عن يواسيها، رهينة هي في صندوق مغلق يحبس الأنفاس، تتطاير شظاياها بين بقايا المخابئ السرية فلا أكاد أجمعها حتى تتطاير كالملاشيات. على جدران رهيبة أرممها وأزرع فيها الحياة، لكنها متهالكة كتلك المتلاشيات. في زوايا المخابئ السرية الباردة حيث عقلي يئن تحت وطأة الذكريات، أحاول التقاط أنفاسي من هول المنظر وقسوة المكان. خناجر الحيرة تمزق الأحشاء في صمت مؤلم فتذوب الهوية بخلفياتها الثقافية والتربوية ضحية ثقافة الإزاحة. النسيان خيانة وعدم الكتابة عن الماضي موت وإعدام لتاريخ مأساة وألم وصراخ ووجع وعذاب؛ يجب أن يعيش عبر الزمن ليزرع بذور الوعي لجني الحرية. جرحي عميق يأبى النسيان يحول فهمي العميق إلى

غضب لكل انتهاك وإدانة لمن سبب فيه في أماكن تقتل الأمل باليأس بلا قتال.

كانت عائلتي، من ضمن العائلات التي هاجرت من العيون، صوب مدينة طرفاية ثم مدينة الطنطان حيث استقرت. والدي الذي، عمل ضابط صف في صفوف الجيش الاسباني وافته المنية رحمه الله تعالى بمدينة العيون، حيث دفن في مقبرة الشهداء المحاذية اليوم لحائط مصلحة الماء الصالح للشرب. رحلت العائلة إلى شمال المناطق الصحراوية، حيث التجمع العام لكل الرافضين للاحتلال الاسباني بعد عملية "إيكوفيون". كانت بداية صامته لفكر يتبلور حول واقع مرفوض والتحضير لتغيير هذا الواقع بما هو أفضل، وبما يسمح لكل الصحراويين بالعيش الكريم من جديد في وطنهم السليب بعد تحريره. إن الثورة تولد من رحم الأحزان⁵⁸. ازدادت بمدينة العيون كما تثبت وثائق ازديادي الاسبانية. دخلت إلى المدرسة بمدينة طرفاية ولأن عائلتي كانت من الرحل انقطعت عن الدراسة بعد ثلاثة أشهر بسبب عدم الاستقرار والتنقل للبحث عن الكلاء. وفي سنة 1963، بمدينة الطنطان عدت إلى التمدريس مع تغيير تاريخ ازديادي ومكانه لتصبح سنة 1957، هي سنة الميلاد ومدينة الطنطان هي مسقط راسي. كانت هذه العملية مبادرة من الإدارة لتسهيل التمدريس لأبناء العائلات المهجرة قسراً من المنطقة المحتلة اسبانيا. عشت وترعرعت ككل أبنائي جيلي. بعد البادية والعيش تحت الخيام وممارسة رعي الجديان (اللغو) وقراءة القرآن بالمسيد على يد فقيه لفريك⁵⁹، اضطرت العائلة للذهاب إلى المدينة والاستقرار بها، علها تستفيد من الإعانات التي تقدمها الدولة للمهجرين. تابعت دراستي الابتدائية ثم الإعدادية بمدينة الطنطان

58- نزار قباني

59- كل مشاعر التقدير لفقيهة درستني أبجديات اللغة العربية لم أعد أنذكر اسمها وبعض سور القرآن الكريم.

وحين نجحت إلى السلك الثانوي انتقلت إلى مدينة تيزنيت بثانوية مولاي رشيد، لأن مدينتي تفتقر لثانوية تستقبل الناجحين مما يفرض الهجرة من جديد. هناك عشت بعيدا عن العائلة من أجل الدراسة وكانت اهتمامي الأول. كان برفقتي أصدقاء الدراسة توطدت العلاقة بيننا إلى درجة الأخوة. كان يدور بيننا نقاش مطول عن المظاهرات وعن أنجع السبل لطرد المستعمر وكنا نتخذ من زعماء المظاهرات قدوة ونموذجا في النضال والتحرر. كنا نرى الشاب "الولي" بنظرة إعجاب وأصدقاء دربه من حوله شجعانا وجريئين لا يخافون الموت في سبيل قضية يؤمنون بها. مصممين على استرجاع الوطن...

حاولت عدم الاكتراث بما يدور في داخلي من أفكار تكاد تشوش علي. التقيت وصديقي بمجموعة طلبة آخرين؛ حينها عرفنا أن طالبا من تيزنيت تم إلقاء القبض عليه. تبادلنا وصديقي الحميم نظرات استفهامية. أتذكر أن الساعة قاربت الثامنة والنصف مساء. الشارع يضيق والأصدقاء مملون. ربما الذهاب إلى المنزل والجلوس قرب والدتي قد يهدئ من اضطرابي. حتى صديقي تولدت لديه نفس الفكرة فقررنا أن نبقى على اتصال. في طريقي أحس بخطواتي تتثاقل رغما عني. إنه ثقل تفكير لم يستطع عقلي ولا قلبي تحمله. سبحان الله كيف، أن كل شيء انقلب من تفاؤل إلى تشاؤم! وكيف، بهذه السرعة انقلبت الأحداث إلى دراما مجهولة العواقب! أشعر أن عيونا مأكرة تتربص بي. وأشعر أن الحيطان لها آذان تسترق السمع. أتخيل أشباحا بدون وجوه تتحرك في ظلمة المساء، فيضيق الزقاق علي. أسرع بخطاي لكنها لا تطاوعني. هممت بالجلوس ثم استدركت انه على الوصول إلى منزلنا؛ خلاصي الوحيد. هناك، وجدت أمني في حيرة شديدة. شعرت أنها تريد قول شيء. اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها وقبلت

يديها الكريمتين. شعرت بالاطمئنان. لم أكن أدري أنها آخر مرة أضع يدي على كتفها واقبل يديها. قلت لها:

هل أتى أحد يسأل عني؟

قالت: نفس الشخص ... لم يعجبني مجيئه... ليس من عادته... كيف عرف أنك أتيت من الدراسة؟ أسئلة محرجة. كان الشخص مع الأسف من ضمن ثلة ممن استرخصوا براءة الناس واسترزقوا بأرواحهم واهمين "الدولة" بالخطر المصدق ليس بدافع الوطنية وحب الوطن، بل فقط للحصول على مناصب وامتيازات مؤقتة. بطمعهم الأعمى شوهوا سمعة الدولة ومرغوها في الوحل. هذا الشخص بالذات بعد سنين طويلة من اختفائي؛ جاءني يتودد ويبيدي لي أنه تأثر كثيرا ليلة اعتقاله. أدركت كم هو يعاني من أزمة ضمير. لم أجبه فقط ابتسمت في وجهه وقلت له: "رب ضارة نافعة". مغلوب على أمره. مسكين كم تأسفت على حاله. أمثاله يموتون وهم على قيد الحياة. يموت لديهم الضمير وتنعدم عندهم الكرامة ويستكينون للذل ويرضون بالفتات. تموت لديهم النخوة ويفقدون إنسانيتهم؛ فيصبحون تافهين بلا حياء وبلا معنى. ما فعلوه عار أخلاقي لا يموت بموتهم. ستأتي عليهم لحظة لن يستطيعوا أن يحتموا بها مما هو قادم. هذا الواشي ضيع لي حياتي. قضيت شبابي في المخابئ السرية ولم أذوق له أي طعم وفوت على كثيرا من فرص النجاح، وحرمني من معانقة أمي بعد الإفراج عني التي توفيت بألم الفراق وطول الغياب. هل أدركت يوما، أيها الواشي حجم الألم الذي سببت لي ولعائلتي ليلة اختفائي؟ ماذا فعلت لك وأمي حتى تسحق كل أمل فينا؟ تبا، لك أيها الشقي أردت قتلي لكن الله أحياني. أشعر أنني أسقط في بئر بدون قعر أو في هوة سحيقة. لكن ما العمل؟ جلست بجانب والدتي أنتظر حكم القدر. تناولت قليلا من الطعام لم أذوق له طعم. حاولت الكلام معها وفي خاطري أتمنى رضاها إن أنا سببت لها

الألم. هي التي كانت ترى في كل شيء جميل في هذه الدنيا وكم مرة قالت لي أنني أجسد حلمها وتتمنى مني بالدراسة أن أحقق آمالها. سامحيني أُمي إن الأمر أقوى مني. لن أنس دموعك وهي كاللؤلؤ تتدحرج على خدك وترضع محيا الوطن الذي بكت من أجله الكثير من الأمهات. لقد أرادوا إبعادي عنك وعن الوطن؛ لكنكما تسكنان وجداني إلى الأبد. لم أعرف من قبل أن للحياة جانبا قبيحا بهذا الشكل. مر الوقت مسرعا كلمح البصر. على الساعة العاشرة والنصف ليلا توقفت سيارة أمام المنزل...وقع أحذية ... نقر على الباب... أصوات غير مألوفة. استجمعت قواي ووقفت. فتحت الباب دخل ثلاثة رجال بغتة بزي مدني بعدما نزلوا من سيارة الشرطة. أخذوني بقوة وسحبوني إلى الخارج. التفت إلى أُمي؛ فرأيت وجهها شاحبا... بالهلع مصدومة. كم من الزمن ستبكي أُمي وتسهر الليالي ألما ووجعا بقلب جريح من فراقني في انتظار رجوعي! قلت لها: سأرجع أُمي قريبا.

قهقهه أحدهم ورد علي: نعم قريبا جدا ستعود.

لم أكن أدري أنها الالتفاتة الأخيرة والنظرة الأخيرة والكلمة الأخيرة التي سأقولها لأُمي وهي فاقدة الوعي مغمى عليها وأنا عاجز عن فعل أي شيء لها. وأن قهقهة رجل الأمن التهكمية كانت استفزازا وقحا ينم عن التشفي والازدراء! أنا الذي لم يسبق لي أن عرفته أو تعاملت معه. ليته طبق تعليماته دون إقحام مزاجيته وأهوائه حتى يعذبني ويعذب أُمي بهذه الكلمات الجارحة والأسلوب المذل! لن أسامح قيد أنملة وأنا أرى أُمي مصدر حياتي وهي تتألم وتتعبذ أمامي ولا أحد يرحمها من هذه المعاناة. تبا لمصالحة على حساب آلام أُمي. أُمي؛ ككل الأمهات وكأملك أنت أيها الجاحد لحنان الأمهات. كانت تجلس عند وسادتي قبل النوم وتتحدث إلى بعطف وحنان وعندما أنام تتفقدني في الليل لعلني أحتاج إلى شيء، ربما

تماما مثل أمك أيها الجلال. كانت تستيقظ صباحا وتحضر لي الفطور لأذهب إلى المدرسة وتطبخ لي الطعام بيديها الكريمتين وتنتظر مجيئي بكل شوق؛ فتستقبلني بابتسامة تجعل الحياة جميلة وتنشر السعادة في قلبي، ربما تماما كما كانت أمك تفعل معك أيها الجلال. الفرق بين أمي وأمك؛ هو أن أمي علمتني محبة الناس واحترامهم ولقنتني مبادئ وقيم الفضيلة التي رضعتها من ثدييها الطاهرتين، بخلافك أنت الذي ترعرع فيك الحقد ونمت فيك الكراهية مستلذا بتعذيب الناس. بئسا لتربية تلقيتها!

رموا بي بقوة داخل السيارة، فانطلقت بسرعة خارقة في عملية اختطاف منافية لكل الأعراف والمواثيق الدولية غير آبهين بمبادئ العدالة. فأصبحت مدانا حتى تثبت براءتي والعكس هو أنني بريء حتى تثبت إدانتي. كبلوا يدي وراء ظهري. بجانب زملائي؛ طلبة تيزنيت مطوقين برجال أمن مسلحين برشاشات. توجهت بنا السيارة إلى مخفر الشرطة بحي العمالة، بعد أن أوصلوا الشخص العجيب، الغريب إلى منزله، مطأطأ الرأس ملعونا إلى الأبد، ذلك الذي سأل عني مرارا وكان يتابع كل خطواتي. كانت هذه البناية مخصصة في أول الأمر لاستقبال الشباب الفار من الاستعمار الإسباني منذ سنة 1974 ثم تحولت بعد ذلك إلى حانة لبيع الخمر وبقدرة قادر إلى مخفر للشرطة، حيث تم التخطيط لهذه الاعتقالات والاختطافات المشبوهة ومركزا للاستنطاقات البوليسية. سجلوا معلوماتنا بعدما أخذوا وثائقنا. لاحظت حركة غير عادية انه الضابط المكلف بنقلنا تلك الليلة إلى مدينة كليميم. بصوت مرتفع يوجه أوامره بالإسراع وبأن الوقت ينفذ بسرعة وأن الطريق مازال طويل أمامنا. يبدو أننا سنبدأ الرحلة المشؤومة وأنا عبء. حتى المكلفين بإلقاء القبض علينا يرون فينا عالة عليهم ومصدر متاعب إن هم لم يتخلصوا منا بسرعة. والغريب أننا ونحن نهم بالصعود إلى السيارات المدنية التي ستقلنا تم الإفراج عن البعض منا

وكأننا بياذق لعبة شطرنج. يؤسر البعض ويفرج عن البعض الآخر تبعا لقواعد لعبة مسبقا محبوة ليتم الاحتفاظ بعبد ربه، الناجم محمد فاضل أبهي، الصالح التاقي الداودي، محمد يحظيه سيدي احمد الزيوان والأخت كني. ارتجال في ارتجال. كانت هناك سيارتان تحملان أرقاما مدنية وسيارة جيب. انطلقت الرحلة منتصف الليل. أليس الليل أخفى للويل كما يقال؟ ونحن في طريقنا تموقعت سيارة الجيب بين السيارتين المدنيتين. كان معنا رجال أمن مسلحين والضابط هو السائق. كان الضباب كثيفا في الطريق يحجب الرؤيا بالرغم من أضواء السيارة. كم تمنيت أن يقع أمر خارق به نتخلص من هذه الورطة. فقبل شهر شهدت هذه الطريق بين الطنطان وكليميم هجوما على حافلة ركاب من طرف قوات جيش التحرير الشعبي. فقلت بل، وتمنيت في قرارة نفسي لماذا لا يحدث هذا الآن؟ كل هذه الأفكار مرت بذاكرتي بسرعة نحو عالم مجهول ينتظرني وأصدقائي. حاولت التحدث مع من يجلس بجانبني. في هذه اللحظة، التفت إلي الضابط السائق ووجه لي كلاما نابيا مزق به كل إحساسي وكل عواطفني. لم أكن أظن أن رجلا بهذا العمر وبهذا المستوى من المسؤولية بمقدوره وبدون حياء أن يقول كلاما كهذا:

- اسكت لك وإلا نهرس فمك يا ولد (الكلب) ممنوع الكلام أجي بعد أش بغيت تقول ليه.

أخشى أنني أيقظت الوحش من نومه.

يقول لرجل الأمن المسلح:

- قم بمهمتك

أشعل الضابط السائق؛ سيجارة وقال بغضب شديد:

- انتهى الكلام. الآن دور الفعل يا حمير، أنتم تكلمتم كثيرا، ونحن أيضا سنقوم بدورنا كما يجب وبقليل من الكلام، لكن مع كثير من الفعل.

أشعر أن كل شيء قد تغير بداخلي وكل شيء تغير من حولي. لا شك أنه عالم آخر بمصطلحات لغوية مخالفة للقواعد الاجتماعية المتعارف عليها ومخالف للباقة وللقيم الأخلاقية! أن تسمع من ضابط أمني بهذه البساطة كلاما لا يليق بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تدخل في غيبوبة وتشعر بدوران وغثيان. إنها إحدى أساليب القمع! خيم سكوت مخيف ولم نعد نسمع غير صوت العجلات على الإسفلت وصوت الريح المعاكس للسيارة. الطريق خال. أذكر أنه طول الطريق لم نتجاوز أي سيارة أخرى ولم نصادف سيارة بالاتجاه المعاكس. بين طبقات الضباب الكثيف تراءت لنا عن بعد أضواء منخفضة لكن كلما اقتربنا تتجلى أكثر؛ إنها مدينة كليميم. بدت علامات الارتياح على رجال الأمن، بل أن الضابط بعد أن خفف السرعة أخذ يردد أغنية حميد الزاهر:

أشداك تمشي لزين... وأنت راجل مسكين...

كانت الساعة، الثانية صباحا عندما أدخلنا مخفر الشرطة. وجدنا طابورا من رجال الأمن ينتظروننا. تبادلوا التهاني فيما بينهم على نجاح المهمة. كانوا فيما يبدو في حالة استنفار قصوى. تكلف كل رجل أمن بواحد منا. كنا خمسة. زجوا بنا في غرفة لا تتسع لاثنتين تنبعث من رائحة حيطانها رطوبة كريهة يصعب التنفس معها بسبب ضيق الغرفة. أغلق الباب الحديدي علينا. لكن بعد برهة من الزمن رجعوا وأخذوا الفتاة معهم لبهو المخفر. تبادلنا النظر فيما بيننا والرعب يدب فينا. الغرفة منعمة الفراش. جلسنا على الاسمنت. سيطر الصمت علينا كسيطرة هذه الجدران النتنة. لم نتكلم. كل واحد منا غارق في همومه. لا يعرف أحدا الآخر كأننا لأول مرة نلتقي؛ نحن الذين كنا نناقش بحرارة وعناد الشباب نجد أنفسنا في هذه

اللحظة عديمي القدرة على الكلام. لم نذق طعم النوم من هول ما نحن فيه. في الصباح الباكر ونحن نرتعش من شدة الرطوبة والإنهاك من قلة النوم؛ فتح باب الزنزانة فإذا برجل أمن يدخل علينا بإبريق شاي وخبز يحتوي على زبدة ومربى. والحقيقة أن رجل الأمن هذا له علاقة عائلية مع بعضنا. قال لنا وهو يهم بالخروج: سيتم نقلكم إلى مدينة أكادير لتتضموا إلى الآخرين. من هم الآخرون؟ ربما قد تكون المجموعات التي اختطفت في ظروف غامضة والتي نسجت حولها روايات خيالية متعددة... في حدود الساعة التاسعة صباحا من يوم الخميس 23 مارس 1976 فتح باب الزنزانة وأمرونا بالوقوف. كل رجل أمن تأبط أحدا وخرجنا بسرعة إلى الباب الرئيسي لنجد حافلة ركاب تنتظرنا، ركبنا وأخذنا المقاعد الخلفية. هناك دركي وأفراد من القوات المساعدة. التفت حولي فإذا؛ كل الركاب سجناء الحق العام يتم نقلهم للسجن المحلي بإنزكان. قبل أن تنطلق الحافلة قيد كل واحد منا مع المقعد الجالس عليه. سجناء الحق العام يتفرجون علينا وكأننا نحن المجرمون الحقيقيون الذين يشكلون خطرا على الحياة العامة؛ أصحاب السوابق المبحوث عنهم. أمامي تمر أحداث سابقة كأنها وليدة هذه الصبيحة. أتذكر أن الشمس كانت ساطعة وجبال الأطلس الصغير ونحن نمر من مسالكها الوعرة الملتوية في " فج كني أمغار" يكسوها الاخضرار وشجر الأركان تفوح منه رائحة زكية.

كلما كبر غرور المرء بالنجاح، كلما اقترب أكثر من الفشل. ما خوف الغريق من البلل. في زمن يتهاوى فيه الوعي، هل يمكن بناء فكر حر على أنقاض فكر مختل التوازن، حيث كل القيم فيه تندثر؟ هل يمكن تفكيك أوهام ترسخت وتجاوزت حجمها الواقعي؟ الإنسان حين لا يجدد وعيه يعجز الوعي لديه على التغيير ويعجز عن التحول الذكي من أجل التحرر والتصالح مع تاريخ من خلاله، يستطيع البحث عن سيادة الذات. في هذه

الوضعية يعتقد الإنسان أنه يفكر بينما هو خاضع لإرادة أقوى منه تسيطر على تفكيره وتهيمن على قناعاته (إن كانت لديه) وبهذه الوسيلة، بعد التحكم في العقل يشعر أنه فاقد لحريته التي هي مصدر وعيه ورأسماله. العقل المسلوب يفتقر إلى فكر حر، يفضل الخبز على الحرية. كرامتك هي روحك الثانية فاحرص عليها حتى لا تموت مرتين⁶⁰. الولاء المطلق يعني انعدام الوعي⁶¹، فيه الفرد يصبح وسيلة لا غاية⁶² فيتم اختزاله إلى مجرد أداة طيعة للسلطة التي لا تكتفي بالتحكم في الأجساد، بل تسعى للهيمنة على العقول⁶³. وهكذا، يصبح الجهل قوة والحرية عبودية، حيث الفرد لا يميز بين الحقيقة والوهم. كل يوم يزداد المشهد طرافة وعبثاً وفي كل خطوة تتجدد أسئلة القادم والمرتقب، حيث التفكير والتقدير يربك التوقعات. في ظل مفارقة مفاهيمية خطيرة يبرز استفهام الذاكرة الجريحة التي ارتهنت إلى الركود واللاوعي بدل النبش في الضمير الجمعي، حيث النقاء الرمزي الذي يتحرر فيه الوعي وتنضج فيه البنى الذهنية التائهة.

60 - تشي غيفارا

61 - جورج بوريل

62 - حنا أرندت

63 - ميشيل فوكو

رحلة إلى المجهول. أكادير

يوم 23 مارس 1976

" الإنسان هو في نهاية الأمر
قضية؛ إذا كنا مدافعين فاشلين عن
القضية، فالأجدر بنا أن نغير
المدافعين، لا أن نغير القضية"⁶⁴.

كانت الساعة تقارب الواحدة زوالاً، حين توقفت الحافلة أمام السجن المدني بإنزكان. نزل سجناء الحق العام وتابعت الحافلة سيرها متجهة إلى جهة لا نعلمها. دخلنا مدينة أكدير، وبعد دقائق معدودة دخلت الحافلة من باب كبير؛ إنه باب مخفر الأمن المركزي بأكادير الذي سنعيش فيه مرحلة سيئة لم تستطع الأيام محو آثارها النفسية: آثار تحجرت بفعل الممارسات والمعاملة غير اللائقة بالجنس البشري. توقفت الحافلة وسط باحة المخفر ليتوقف معها كل أمل وتطلع للمستقبل. لحظة ماتت فيها كل الأمانى ودخلنا فيها رحلة متاهة قد يصعب الخروج منها. رجال أمن مسلحين أحاطوا بالحافلة. أشار لنا ضابط شرطة بالهبوط، وببطء. ثم قال مزمجراً:
- واحد، واحد، واحد بشوية عليكم أ المرض.

اصطففنا واحداً تلو الآخر كالتلاميذ أمام القسم غير أن أحدهم دفعنا وقال بصوت عال:

- أسرعوا... هيا ... هيا.

توجهوا بنا إلى باب ضيق حيث دخلنا مكان الاعتقال الاحتياطي. الرائحة الكريهة المنبعثة من المراحيض داخل الزنازين تعم المكان. يصعب التنفس

64 - من روائع الشهيد غسان كنفاني

ويضيق الصدر. تشعر بدوران في الرأس والغثيان. يكاد المرء يتقيأ. جلبة داخل الزنازين؛ أصوات رجال ونساء. ساعتها عرفنا أننا التحقنا بالمجموعات التي اختطفت قبلنا. احساس بالاطمئنان والتردد والخيبة، ونحن نسمع هذه الأصوات المألوفة. على الأقل نحن مع أبناء عشيرتنا. دخلنا كمجموعة جديدة في زنزانة انفرادية. ممنوع التحدث مع الآخرين والتواصل معهم قبل الاستئطاق.

قال لنا الحارس وهو يغلق الباب الحديدي من خلفنا:

- مرحبا بكم في خمسة نجوم. قهقهه راجعا، مخلفا وراءه انطبعا من الحيرة والاشمئزاز.

التفتنا وجالت أبصارنا تتمعن المكان... كانت الجدران حولنا ملطخة بالأوساخ. عليها كتابات ورسوم تؤرخ لمن مر من هنا قبلنا. أثار انتباهي صورة تجسد قلبا يخترقه وتد. كنت فيما سبق أرى قلبا يخترقه سهم كتعبير عن الحب. وتد بهذه القسوة ربما صاحبها أراد أن يعبر عن فظاعة التعامل مع هذا العضو من الجسم الذي يرمز إلى الحنان والعطف. هذا العضو الرهيف والحساس الذي سيصدم من جراء واقع فرضته ظروف إمكانية، تختلف بيئيا وأخلاقيا عما خلق من أجله. الاسمنت هو الفراش الوحيد. لبثنا واقفين، لكن بعد نصف ساعة جلس أحدنا فجلسنا كلنا مستسلمين لهذا الوضع. الاسمنت كقطعة ثلج بارد جدا. أزلنا أحذيتنا لنفترشها. صفحة جديدة من حياتي فتحت لتؤرخ لمعاناة تفوق قدرة البشر والحجر الذي بنيت به هذه الزنازين. كان تأثيرها بلا تفسير. معاناة مهما نجحت في إخفاء ملامحها، سافشل في إخفاء آثارها النفسية العميقة. لم يستطع عقلي استيعابها ولا قلبي استطاع تحملها... لا يمكن للكلمات مهما بلغت قوتها التعبيرية وصف ما أنا عليه من دهشة ومن اضطراب نفسي. مخلفات هذه الفترة تلاحقني كلما تذكرت هذه المأساة. فتحت كوة

الزناينة. فجأة أطلت علينا الأخت دماحة أعلي حميدات لتخبرنا بأن الإخوان كلهم هنا. وأن نتسلح بالصبر ... بعد ذلك أطل علينا رجل وسأل من نحن؟ عرفنا بأنفسنا، فقال:

- هل تعرفونني؟ أنا شيفالي ولد سيد أحمد ولد أمكية. رمى لنا بأوراق نقدية من العملة الاسبانية قائلا:

- ليس لدي الدرهم المغربي، لكن يمكن طلب أحد الشرطة سريا بالتكلف بالصرف خارج المخفر لتشتروا فراشا يقيكم برد الاسمنت. أغلق الكوة ونظرنا إلى الأوراق النقدية وهي مرمية. يجب أخذها والاحتفاظ بها حتى نجد رجل الأمن المناسب. أخذها أحدها، وفعلنا بعد ساعة فتحت الزناينة. قال لنا رجل الأمن:

- هل من مشكل؟

- إنه الاسمنت وانعدام الفراش؟

- أليس لديكم فراش؟! ... آه صحيح عليكم بشرائه.

- كيف؟ بحال آش؟

- إن كانت لديكم نقود سأفعل هذا الخير

- بارك الله فيك أسيدي. أعطيناها النقود وذهب بالسرعة التي أتى بها.

قال أحدها: قد يأخذها كلها ماذا سنفعل؟

لقد أخذوا كل شيء منا، ما الفرق الآن بعد أن أضعنا كل شيء؟

ما فتئ أن توارى عنا مقفلا كوة الزناينة، حتى أخبرتنا دماحة أعلي حميدات مصحوبة هذه المرة بفطمتو محمد علي دھوار بأن جل المختفين الصحراويين يوجدون هنا، وبأننا سنجتمع معهم عندما تنتهي تدابير الاستئطاق. وختمن: كونوا رجالا.

سألناهم عن عدد الصحراويين

- أجبن: نحن (66) ستة وستون،

- أين الآخرون؟

- مجموعة في درب مولاي الشريف بالدار البيضاء. تم ترحيلهم مؤخراً من عندنا وهم: محمد فاضل مسعود بوجمعة (لفريطيس) - معطلة عثمان بابديه - الخضير محمد العياد وأخوه احمد سالك محمد العياد - محمد سالم الدخيل (عزاز) - المجاهد حمدي لحبيب، ومجموعات أخرى متفرقة نجهل مصيرها.. كما تم تسريح مجموعة من النساء الصحراويات، وهن زوجات لجنود صحراويين بالجيش الملكي، عبروا عن غضبهم بسبب التنكيل بعائلاتهم.

بعد ليلة سفر مجهول، صوب محطة وصول مجهولة، وبعد المبيت في مخفر الشرطة بكليميم، وشح الطعام الذي أخذناه بفضل رجل الأمن قريب أحدنا عائلياً. وبعد يوم آخر من السفر المتعب رفقة أشخاص متهمين بجرائم الحق العام، البادية على وجوههم علامات الشقاء والغلظة، تشعر بالشفقة نحوهم كونهم ضحايا سياسة الميز والتفكير الممنهجة. رغم ما هم فيه من ضنك وأسى كانوا ينظرون إلينا؛ نظرة الريب والشك، كأننا نحن المجرمون الحقيقيون. من خلالنا يبحثون عن براءتهم. شعرنا بالجوع الذي أخذ يدب في أحشائنا. لكن كيف سنحصل على طعام؟!

أذان صلاة المغرب. صوت أقفال الزنازين الحديدية تفتح. إنها ساعة المناوبة، يحصون المعتقلين. دخلوا علينا وقدمنا رجل الأمن بأننا الضيوف الجدد. تجرأ أحدنا وطلب ماء للشرب.

أجابه رجل الأمن المناوب بتعال: كل شي كاين غير اصبر، راه الماء سيدي أحرارم والعشاء من مقهى (جور انوي) ليل نهار.

أرخی الليل سدوله على المكان. كاد الظلام الدامس يسيطر، لولا ضوء خافت يدخل من كوة الاسمنت الصغيرة المعززة بقضبان الحديد. غفوت قليلا من شدة التعب غير آبه ببرودة الاسمنت. أليس الإنسان هو القدرة على التكيف؟ قمت فزعا من نومي، ونظرت من حولي. أخوتي هم أيضا نيام، قاموا أيضا مفزوعين، تساءلنا عن مصدر هذا العويل والبكاء وكلمات الاستجداء وأصوات ركل وضرب مصحوبة بسب وشتم وكلمات نابية. أدركت فيما بعد أن هذه المصطلحات؛ بقذارتها وقبح التفوه بها؛ هي قاموس التواصل في هذا المكان الغريب. تمنيت لو أن نومنا دام طويلا كأصحاب الكهف واستفقت على عالم جديد يملأه حب الإنسان وحب احترام كرامة الإنسان؛ حيث يعم السلام بمعتقدات جديدة من قبيل: الحرية والديمقراطية وحماية وصيانة حقوق الإنسان. عالم يتنافس على إثراء الفكر والحوار والتسامح. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون⁶⁵.

- إنهم يستنطقون المعتقلين؟

- كيف عرفت؟

- لا أعرف، ظننت فقط.

- شششت قال أحدها. إنها حملة أمنية تطهيرية في المدينة.

صوت رجل مخمور، يهدد بالانتحار، وصوت ضحك رجال الأمن.

- أسكت أليان، خير منك لمرة ها هي ساكنة.

- علاش مالي بغيتيني نغوت (هل تظنني سأصيح). قالت المرأة. أنا هنا في داري.

علقت هذه الكلمات في ذاكرتي، ولم أستطع نسيانها بالرغم مما مررت به. وإن أنا أدونها اليوم فلأنها كانت بداية تحولي داخليا. ما الذي يحصل

65 - سورة المطففين الآية 26.

عندما ينفصل المرء عن محيطه الثقافي والبيئي؟ مدينة أكادير السياحية، معتادة وسكانها على هذا الأمر. تزيين الأجواء وتطهير المدينة أمام الزوار والسياح الأجانب من حثالة المجتمع التي تشكل عائقا للتنمية. طبعا التنمية السياحية المبنية على الفنادق الفاخرة والملاهي الليلية والفتيات. إنه إخفاء الوجه الآخر الأكثر قتامة وعمقا وتعبيرا عن الفقر والجهل لحجبه عن الأنظار الأجنبية. لكن ما بالي أنا والسياحة الجنسية ومدينة أكادير؟ كان الليل متأخرا عندما فتح الباب علينا. زعر وحيرة وضياح ... إنه الحارس يدخل علينا سطلا من الماء.

- شكرا سيدي.

شرب أحدنا لكنه بصقه مباشرة!؟

- أمالك؟ (ما بك)

- فيه كرزيلين.

- كيف كرزيلين؟

- ذقه لترى.

صحيح هذه مشكلة خطيرة كرزيلين إنه مبيد. الغريب أن السطل متعدد الخدمات؛ يستعمل لحمل الماء الممزوج بهذه المادة لتطهير المراحيض، وهذه المرة يقدم لنا كإناء للماء الصالح للشرب. في غمرة هذه اللحظة الحرجة تذكرت أبياتا شعرية تلخص ما أصبحت عليه وأصدقائي.

تبدلت الأحوال وانقلب الدهر *** وصار خيار الناس ليس لهم قدر⁶⁶
ما كنت أرجو من زمانى هكذا *** ولكننى أرضى بما قسم الدهر

66 - الشاعر علي بن أبي بكر الحراني (المتوفى 617 هـ). وثقها ابن المستوفي في كتابه "تاريخ أربيل"

خيم الصمت على الزنزانة. كل واحد منا شعر بعدم الرغبة في الحديث. ومن شدة التعب والجوع وهاجس الخوف؛ استسلمنا للنوم. لا أستطيع أن أقول إنه عميق أو مريح لكن بكل تأكيد اختلّطت فيه كل المتناقضات، لنستفيق تحت وقع أقدام الحراس وصوت الأقفال الحديدية إعلانا ببدء سيمفونية الألم. ليس كل شيء عابر. كثيرا ما نظن أن ما يجري في الحياة صدف. لكن قد تربك لحظة بحدوث شيء لم تكن تنتظره أو تعلمك درسا بفضل شيء لم تكن تعرفه أو تريك حقيقة شيء كنت تجهله. لم يبق لنا إلا الصبر وأن نعي كيف نتعامل مع الآخر وأن نعي كيف نستوعب أفكاره وأن نعي كيف نمتص تناقضاته. فتح الباب. دخل ثلاثة رجال أمن. وضع أحدهم منديلا على أنفه من شدة الرائحة الكريهة التي ألفتها خلال يوم وليلة. لم نشعر أننا في جو نتن إلا بعد هذه الصورة المعبرة عن قذارة ما نحن فيه. رموا لنا بـ "خبز حافي" وقفل الباب. خبزة لكل واحد منا. أكلنا دون ذوق وطعم بقدر ما كنا نريد سد الجوع بالرمق. يوم جديد بمفاجأته يبدأ، إنه يوم الجمعة. صمت المعتقلين يملأ المكان. الجدران باردة، فقط وقع أقدام الحراس يكسر الصمت المميت. بالرغم من أن المعتقلين الصحراويين كثر بالإضافة إلى الآخرين، إلا أن السكوت مخيم على الجميع كأن هؤلاء بأحاسيسهم وعواطفهم فضلوا الصمت على الحديث. لكن ما الجدوى من الحديث؟ لم يدم الصمت طويلا. فتح الباب الرئيسي للزنازين ودخل شرطي غليظ الطبع، مكتنز الجسم شحما ولحما، تفوح منه رائحة الخمر - ربما قضى ليلته يشرب على نخب معتقلين جدد - ركل أحد المعتقلين وصفع آخر وهو يصيح:

- نوض، نوض (قف) لي ماك ... ناعسين في خمسة نجوم. أجي أنت، زيد سيق (نظف) هذا الزبل؛ خانزين بحال لحلاف.

ضحكت في صمت لأن الإنسان ابن بئته. وصفنا تماما كما هو عليه. إنه خنزير بري تفوح منه كل الروائح الكريهة. سيطر علينا إحساس غريب. إذن هكذا هي الحياة مستقبلا: سب و شتم. لا مراعاة للمشاعر أو القيم. يستعملون كل الوسائل بطريقة ميكافيلية لينهار المرء نفسيا ومعنويا ليصبح ضعيفا أمامهم. نعم كل ما يحتاج إليه الجلال لكي يحقق الانتصار؛ هو أن يرى الضحية ضعيفة أمامه تستنجد وتتوسل، وهو لا يكثر ثغمره السخرية والتعالي وعدم الاحترام.

آذان صلاة الجمعة يسمع عن بعد من وراء الجدران. هناك حركة داخل الزنازين. سماع استغفار؛ إنهم الشيوخ الصحراويون الذين رمت بهم الأقدار في هذا المكان البشع. يستعدون للوضوء لقيام الصلاة تحت جبروت الاعتقال. كانوا حتى وقت قريب طلقاء أحرارا. أتخيلهم صغارا ثم شبابا يعيشون في الصحراء ذات الفضاء الشاسع لا تقيدهم إلا سلطة القيم؛ يقاومون الحرارة المفرطة ويسيطرون على المجال. لا ينتظرون شيئا من أحد إلا الواحد الأحد. يستعينون ليلا بالنجوم ونهارا بالمواقع. يعرفون أرضهم ويحبونها رغم قساوتها "أبناء المزن ". هنا في هذه الزنازين المهينة للكرامة؛ هادئون ومستسلمون كالأسود المروضة. آه يا زمان ما أشدك! قال أحدنا:

- سنصلي لعل الله يستجيب!

فكرة جيدة، لقد استجاب الله ليوسف في السجن وهو مظلوم. ألسنا نحن أيضا مظلومين؟ من شيمنا قيام الصلاة، هكذا تربينا عليها. كان آباءنا يحثوننا عليها. يرفضون أحيانا الجلوس معنا ويرفضون الأكل أو الشرب معنا؛ بحجة أننا لا نطيع الله. أتذكر دراستي بالمسيد، حيث الفقيه يعلمنا أركان الإسلام الخمسة ويؤكد أن الصلاة عماد للدين. كان يقول لنا بأن المرء باستطاعته سماع كلام الله وأن يخاطب الله سبحانه وتعالى. ونحن

نسأل كيف؟ فيجبنا بان المسلم يكلم الله في السجود وهو يطلب منه المغفرة والتوبة وكل ما يتمناه، وأنه يستمع إلى كلام الله حين يقرأ القرآن الكريم. وهذا طبعا شجعنا على الصلاة لأننا في أمس الحاجة إلى توجيه الدعوات إليه تعالى.

كانت التغذية تقوم على توزيع خبزة في اليوم للفرد الواحد. لكن من حسن الحظ، أنهم سمحوا لمن يتوفر على النقود بشراء مواد غذائية إضافية مثل: زيت الزيتون والجبن والزبدة والمربى. كانت هذه المواد تفرغ في إناءات بلاستيكية وتسحب العلب الحديدية إن توفرت، خشية استعمالها قطعة سلاح تهدد السلم والأمن في الزنازين. كان المعتقلون يعطون النقود لبعض رجال الأمن الذين يقدمون هذه الخدمة مقابل ما يوفره ويقتصدون من تلك النقود. خدمة بالمقابل. لكن لا بأس، على الأقل هناك من ينظر إلينا بعين إنسانية ويرى أن معاملتنا بطيبة لها بعض الإكراميات التي يوفرها لنفسه لأننا لا نسأل عن الباقي من النقود التي صرفت. أجرها عند الله تعالى " والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ⁶⁷ ". وضعت مرارا السؤال على نفسي كتلاميذ لا نملك نقودا. كيف، سيكون مصيرنا لولا تواجدنا مع أهالينا الذين يقتسمون معنا ما يشتركون؟ كيف، يمكننا العيش على خبزة واحدة في اليوم بدون مواد غذائية أخرى يتطلبها الجسم للاستمرار في الحياة؟ أنا هنا بدون إرادتي ولا رغبة مني؛ أعيش وضعا استثنائيا. أنا المجرم المحتمل أنتظر استنطاقا مطولا وشاملا لكل الأنشطة السياسية وربما العسكرية المحتملة والأمن والاستقرار الذي أهده وحالة الاستنفار القصوى التي كانت عليها "الدولة" بسبب تحركاتي

67 - سورة الكهف. الآية 30

المشبوكة والإجابة عن أسئلة يجهلها حتى واضعوها. فكيف بي الإجابة عنها؟ إنها سخرية الأقدار. يا للعبثية!

شكل ذلك اليوم تحولا في حياتي. أنه يوم الثلاثاء 28 مارس 1976. فعلى الساعة السابعة صباحا أجبرني ثلاثة رجال أمن أن أساق إلى غرفة الاستنطاق. غرفة عارية؛ بها كرسي مستطيل ليطلب مني الاستلقاء عليه. كبلوني بحبل عليه. جرو جسمي حتى يكون راسي متدليا. بكل هدوء يقومون بعملهم وبكل توترنفسى أتركهم مرغما يقومون بعملهم والدهشة بادية علي. أتذكر لحظة أنني قاومت وأردت أن أسأل عن سبب كل هذا، لكن ركلة على وجهي جعلت حدا لكل أمل في الحوار. شعرت بغثيان وكدت أتقيأ. تداركت الأمر. تنحى رجال الأمن جانبا وأخذوا يتبادلون أطراف الحديث. كانوا يتحدثون عن اليانصيب وشرع أحدهم يحكي عن ليلة ماجنة وكيف أن الحياة جميلة إن عرف الإنسان كيف يعيشها. حاولت الاستماع إليهم لعلني أنسى الألم الذي أصبحت تحت وطأته. حاولت التحرك، لم أستطع المقاومة والصبر.

- خويا إنني أتألم.

قال أحدهم: الطاجين طاب.

أقترب واحد منهم وأخذ بأرجلي ورفعهما إلى الفوق. شرع آخر بضربي ضربا مبرحا بدون رحمة ودون طرح أسئلة ما. سياط، ألمه كسيف حاد يخترق نصله جسمي أو كصعقة كهربائية. ألم يهد القلب ويوجعه. توقف قليلا ثم تنحى هو والآخر الذي كان يرفع أرجلي. لم أعد أتابع حديثهم السخيف، بسبب ما أعانيه من شدة الضرب. جاء آخر وبيده سطل ماء. وضع قطعة قماش (الشفون)، بكل هدوء واتقان على وجهي وسكب ماء تفوح منه رائحة كرزيلين وبول وقذارة. كرزلين، مادة كيماوية يتم بها إتلاف المواد التي تجاوزت مدة صلاحيتها. اخترق السائل خياشيمي

وحلقي فأحسست بمرارة وحرقة حادة. حاولت أن انتفض، لكن تكبيلي على الكرسي المستطيل يعيق أدنى حركة. صرخت بأعلى صوتي للتخلص من السائل لأسترجع أنفاسي التي كادت أن تزهق. تحت وطأة التعذيب، شعرت أنني أسقط في هوة سحيقة وأن كل جسمي يؤلني. حرموني من كرامتي وسلبوا مني حريتي. لم تدمع عيناى حفاظا على كبريائي، لكن من فرط الألم كانت روحي تبكي من فرط المهانة. لقد أصبحت ضحية تعذيب ممنهج. التفوا حولي من جديد. فكوا قيودي وجعلوا مني مسلة للتدريب على فن الملاكمة. لكمة في وجهي وأخرى على بطني وثالثة على أنفي الذي لم يقاوم فسال دما غزيرا، بلل أرضية غرفة التعذيب. فرضوا على تطهير المكان، بعدما أتى أحدهم بسطل الماء الذي سكبوا منه الماء الممزوج بكريزيلين على وجهي. أخذت في مسح الأرض لإخفاء معالم مسرح الجريمة. يتابعون حركاتي بوجوه تفتقر لأي حس إنساني. لماذا كل هذه المعاملة السيئة واللاإنسانية الغير المبررة؟ هل حتى الشيوخ والنساء مروا من تجربتي؟ يا للعار كيف يهان الوقار؟ انتهيت من مسح الأرض وبقيت جاثما على ركبتاي انتظر التالي.

- قف يا ولد (...) قال أحدهم.

وقفت، ونظرت إليهم خلسة، فقرأت التعاسة والبؤس على وجوههم. ليست هناك أية تعابير إنسانية على وجوه هؤلاء. ربما، من كثرة ما تعودوا على ممارسة هذه المهنة القذرة فقدوا كل إحساس إنساني، فتحولت طباعهم إلى طباع حيوانية تتملكهم غريزة الضرب والافتراس والتلذذ بسيلان الدم من ضحيتهم. فجأة، وجدت نفسي بين ذئاب مفترسة لا تراعي القيم ولا الأخلاق ولا أحد معصوم من التعذيب؛ مسنون كانوا أو شبابا أو نساء أو رجالا. الكل يمكن أن يصبح ضحية. يكفي أن تجوع الذئاب، لتبحث عن فريسة. نسوا قوله عز وجل "والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات

بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً⁶⁸ طالما اعتبر التعذيب والمعاملة اللاإنسانية والمهينة؛ من سمات الممارسات الوحشية التي تعود إلى القرون الوسطى نظراً لقسوتها والآثار المترتبة عنها من أشكال الإساءة التي تهدد الحق في الحياة والسلامة البدنية والنفسية للإنسان وبالتالي الأمن البشري وتحطيم الكرامة. التعذيب جريمة نكراء تأبأها الإنسانية وتحرمها المواثيق الدولية والقيم الدينية.

سريالية أشكال وألوان التعذيب من طرف الجلال كان لها ثلاثة أهداف:

- الهدف الأول. انتزاع اعترافات بأي ثمن.
- الهدف الثاني. إهانة الضحية وتحطيم معنوياته.
- الهدف الثالث. فرصة للجلال لممارسة ساديته على الجميع.

عنف الاعتقال والطريقة التي تم بها؛ كان عنواناً للمعاناة التي ستلي فيما بعد. إنها فعلاً متاهة لا أول لها ولا آخر. إن ممارسة التعذيب تناقض مقصود الله تعالى في خلق الإنسان. بالنص أكد تعالى على تكريم الإنسان. " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً⁶⁹ ". هل فعلاً سيفلت هؤلاء من العقاب ما دام التعذيب هو أشد صور الهدم التي تقع على الإنسان في كيانه المادي والمعنوي؟ إن التعذيب باعتباره جريمة بموجب القانون الدولي؛ محظور تماماً في جميع الصكوك الدولية، ولا يمكن تبريره في ظل أية ظروف ولا يسمح باستثناءات، حتى في أوقات الحروب وحالات الطوارئ. كما يمتنع أيضاً تسليم أشخاص إلى أماكن يتعرضون فيها

68- الآية 58 من سورة الأحزاب

69 - الآية 70 من سورة الإسراء

لخطر التعذيب، لأنه يعتبر من أبشع الجرائم إهدارا لكرامة الإنسان وأخطرها مساسا بكيانه الإنساني.

انتهت الحصة الأولى من الاستنطاق دون أسئلة تذكر ما عدا؛ هل تعرف فرانكو (محمد سالم ولد السالك)؟ هل تعرف ماء العينين محمد سيداتي؟ هل تعرف الوالي مصطفى السيد؟ ما هي التعليمات التي تلقيتها من قيادة البوليساريو؟ من اقترح عليك الالتحاق بكلية الحقوق والمعهد العالي للصحافة بعد شهادة البكالوريا؟ أسئلة محرجة فعلا. وهل يعقل في سني آنذاك استطاعة الحديث وتبادل وجهات النظر مع محمد سالم ولد السالك أو ماء العينين محمد سيداتي أو الولي مصطفى السيد؟ هؤلاء بالنسبة لنا رموز قضية وزعماء تاريخيين ومتقفو شعب؛ الاقتراب منهم والاستماع إليهم يعد فخرا واعتزازا. سيق بي إلى الحراسة الليلية لأكون بعيدا عن الآخرين الذين سيستنطقون لاحقا، على أساس أنني تنتظرني في الغد، حصة أخرى. جلست على كرسي مستطيل. الشرطي الحارس ينظر إلى بازدرء ومكر، يبحث عن شيء لم يكتشفه المحققون حين رأيي ساكتا وهو لا يدري كم أنا أتألم من فرط تعذيب يوم كامل. هممت بالاتكاء قليلا حتى أستريح من كمادات الضرب على رجلي ووجهي وظهري، حينها صاح بكل عجرفة واستعلاء:

- قم جلس، الله ينعل لك التvisيلة. كحز للقنت (الركن) باش تخلي بلايص لسيادك ها هو ما جايين- يعني بأسيادي الأشخاص الذين سيتم اعتقالهم بالليل في عمليات التطهير- تحركت ببطء وحين رأيي كذلك هم بضربي لأسرع من حركتي، لولا دخول شرطي آخر يسأل عن شيء.

- هذا الويل دين آمو مبرزطني فراسي

- مالو إلا ما كيحشم عطي لمو شي طريحة.

كان منتصف الليل حين اصطف طابور من المتسكعين في مكتب المداومة. حملة أخرى لتطهير المدينة أمام السياح ومرتدي الملاهي الليلة وقاعات القمار. جلس على نفس الكرسي المستطيل رجل مخمور يترنح وشباب متهمون بالسطو والاعتداء على أجنبي سائح. حين لم يجد هؤلاء أين يجلسون، التفت إلي الحارس الأمني وقال لي اجلس هنا وأشار إلى الأرض. على الساعة السابعة صباحا تم اقتيادي إلى قاعة الاستنطاق. تركوني هناك وذهبوا حتى الثانية زوالا، حين رجعوا تبادلوا النظرات فالتفت نحوي أحدهم وقال:

- أعفينا من ضربك، وقل لنا ماذا تعرف عن البوليساريو؟

قال آخر:

- هو قطعاً عضو فعال وليس متعاطفاً؟ بينما أنا غارق في دهشتي طنين صفعة على خدي أعادني إلى رشدي. التزمت الصمت لأنهم مرتبكون في وضع الأسئلة. حتى لا أحظي بنصيب أكبر من الضرب يجب أن أصمت. فهم يسألون عن أشياء يجهلونّها، وكلما حاولت الكلام ستكون فرصة لهم لوضع أسئلة أخرى وتعذيب آخر. تبادلوا إشارات بينهم، اقتادوني إلى مكتب الحراسة. مساء آخر وليلة أخرى من الرعب والسكران وتوافد المجرمين والمبجوثين عنهم. كدت أكره نفسي وأكره الحياة لعبثها. لكنني تداركت ماذا فعلت نفسي حتى أكرهها والحياة حتى أتهمها بالعبثية؟ أجدد بي أن أكره قوانين القمع والتعذيب التي تسمح بأشباه البشر أن يعبثوا بحياة البشر وأن أتحمّل قدرتي بكل طوعية وفخر. أنا هنا لأن مستقبلنا يتشكل في الأفق. انطلقت شرارته من طموح شباب واع بجدية المرحلة وتبعاتها. كل صعب يهون حين تجتمع الإرادة والرغبة والتسلح بالإيمان. سأتحمل ليلة أخرى. شعرت بأمعائي الفارغة تتشنج. أشعر بدوران، إنه الجوع ولا شيء أمامي سوى مقاعد وأناس كريهون في الرائحة

وغليظون في الطباع. كيف سأتحمل غدي وأنا بين جلادين لا يرحمون. رغم التعب وألم الجسم المنهك من التعذيب والجوع نمت. استيقظت على ركل ورفس وسب وشتم، من الفزع جلست انتظر دوري. إنه الحارس الأمني جاء دوره في الحراسة وهو يترنح ورائحة الخمر تفوح منه. ربما فوت ليلة ماجنة وبكل سخط على أوضاعه يصب جام غضبه على الموقوفين. تفاديت النظر إليه خوفا من تلقي حصة صباحية وأنا ما زلت انتظر يوما حاسما من التعذيب والأسئلة الغامضة والغير المفهومة حتى ممن يضعونها. بغتة، التفت إلي الحارس وصرخ في وجهي كي أخلو له الطريق. على الساعة التاسعة صباحا، تم اقتيادي إلى غرفة العمليات كما يطلق عليها رجال الاستنطاق. عند باب الغرفة، وأنا معصب العينين تم دفعي بقوة حتى ارتطم ساقي بكرسي التعذيب وتكبيلي على الكرسي المستطيل كالمرآة الأولى. كان الضرب بطريقة عشوائية دون طرح أية أسئلة. على الساعة الواحدة بعد الزوال وقت آذان الظهر، تركوني مكبلا على الكرسي المستطيل. خرجوا إلى حيث لا أدري. قضيت وقتي في انتظارهم أحاول تحمل ألمي. كل جزء من جسدي ينهار من التعب. لا أستطيع حتى التحرك يمينا أو يسارا إلا وصرخت من شدة الألم. تذكرت خطابات حقوق الإنسان من قبيل؛ تحريم التعذيب الجسدي والنفسي وواجب احترام الحق في الحياة. حاولت أن أنسى أنني مكبل وأن أتيه بأفكاري بعيدا عن هذا العالم المذل للكرامة البشرية حيث الإنسانية لا قيمة لها. لكن ما إن استغرقت في تفكيري هذا، حتى باغتني مجيء الجلادين وهم يتحدثون عن وجبة الغداء اللذيذة. تبادلوا النظرات بينهم كأنهم اتفقوا على أمر ما.

- باقي ما هداك الله وتهنينا وتقول الحقيقة؟

- شوف أنت راه ماشي للحبس سواء اعترفت أو لا. نطق جلادي بالحكم قبل محاكمتي. أي عالم هذا؟

- خليه غادي نحرو فحقو محضر وعاوود أراسو.

أذان العصر. انتبه جلادي إلى أن الوقت يمر وأن عليهم فعل شيء يبررون به جدية عملهم. أخذني أحدهم من عنقي وكاد أن يخنق أنفاسي بحيث، بعد ذلك بأسابيع أشعر بألم حاد يمنعي من الالتفات يمينا أو يسارا. توجهوا بي إلى الحارس الليلي بمكتب المداومة.

- خليه عندك حتى الصباح وما يتقلقل وراه ربما غادي نرجعوا باقي الليلة.

- نعم آس شاف

ليلة ليست ككل الليالي؛ الجوع والاسمنت البارد وانتظار مجيئهم. بدأت ارتجف وأشعر بوهن في جسمي. رجلاي لا تتحملان الوقوف. أحتاج إلى كرسي أو مقعد أجلس عليه. التفت يساري نحو الكرسي المستطيل بجانب استلقيت عليه. نظرت إلى ردة فعل الحارس تجاهلني وما إن وضعت رأسي على ذراعي، حتى نمت من فرط التعب. لا أدري كم استغرق نومي إلا أنني استفتقت على صراخ وضرب. لا أطيق ذرعا بما يدور حولي من كراهية للبشر واحتقار للإنسانية. لا قيمة هنا للقيم من قبيل الكرامة والاحترام. أين الفضيلة؟ تحت جلبه وضوضاء الموقوفين ووقع أحذية الجلادين في الممرات الفاصلة بين الزنازين تشحن الأجواء عنفا. حين تفتح الأبواب؛ يمتلك الإنسان زعر لا يقاوم يكون فيها الإنسان متوترا في استنفار دائم. الحياة في هذه الظروف تصبح رخيصة جدا. في الصباح لليوم الموالي دخل مفتش شرطة. عرفت فيما بعد أنه كان من المشرفين على استنطاقي. وقال لي بكل هدوء.

- قف اتبعني.

تبعته بخطى ثقيلة متعبة. أكاد أحمل رجلا لأضع أخرى كالذي يحمل حملا ثقيلًا. دخلت باب العنبر حيث إخوتي هناك. نسيت الألم والجوع والعطش. أخيرا بين أحضان أهلي. ما أجملها من لحظة وهم يلتفون من حولي بكل حب استطلاع لمعرفة كيف مر الاستنطاق ومدى صبري على التحمل. أحدهم يواسيك وآخر يشد على يدك يربت على كتفك. كلهم أرادوا أن يقوموا بشيء من أجلي. إنه التضامن الذي يمليه الواجب. مشكلة رجال الاستنطاق، أنهم غير متأكدين مما يطرحون من أسئلة ولا ينتظرون جوابا. ارتباك كبير بينهم. يكتبون ما يشاؤون ولا ينتظرون أي توقيع من الضحية على المحضر المعد مسبقا.

كادت الأيام أن تصبح روتينية وكدنا أن نتكيف مع المحيط والجو العام: حملات بوليسية تأتي بمجرمين محتملين ويتم تسريح دفعة أخرى ليأتي دورها في الاعتقال في الحملات التطهيرية الموالية. ما إن يحل الليل حتى تبدأ أسطوانة أفواج الموقوفين من سكارى وسارقين وذوي سوابق الحق العام؛ فتعج باحة الزنازين باللغط والسب والشجار. ينتابنا الذعر أحيانا من مشاهد العنف بين الموقوفين. لا رحمة. البقاء للأقوى. يتدخل رجال الأمن فيخيم السكون من جديد، ما عدا قطرات الماء من الصنابير التي تبدو معطلة على الدوام. شيء مقصود لإزعاج الراحة إن كانت هناك فعلا راحة؟ في الصباح تتبادل المعلومات ونستفسر عما جرى البارحة وما هي ردود أفعال النساء لعلهن ذعرن من هذه الحالات الاجتماعية المسلوبة من كل الحقوق. رويدا رويدا، استجمع قواي وانخرط مع المجموعة بالقيام بكل ما يجعلنا نعيش. بعد أسابيع من عزلتنا، تم السماح لنا بالاجتماع مع المعتقلين الصحراويين.

كم كانت فرحتنا ممزوجة بنوع من الدهشة والاستغراب، ونحن نجد أمامنا رجالا كانوا في أعيننا صناديد وأبطال مجد. كأنهم أسود في أقفاص.

نسمع عنهم حكايات منقوشة على صفحة الزمن الصحراوي ترويها المجالس لتستمتع بها. أنه غدر الزمن! ننتقل من عنبر إلى آخر، نلقي التحية على المجموعات. تحفة من خيرة الناس تجعلك تفتخر بوجودك بينهم رغم قذارة المكان. من كل المستويات الاجتماعية اجتمعوا بإرادة جلال فاقد لإنسانيته من أجل قهرهم. أحيانا، تسمح لنا الظروف أن نجتمع في إحدى العنابر نستمتع بكل شوق لأحاديث شيوخ وشمها الوقار: محمد أمبارك ولد الموحد، مولاي أحمد ولد الليلي، لحبيب ولد أحمد لحسن - هذا الشهم الذي، حين استنطاقه من طرف الضابطة القضائية صفعه على غفلة رجل أمن؛ فالتفت عليه بكل غضب، "واقسم بالله أنه لن ينبس بكلمة ولو أدى ذلك إلى موته إن كانوا يظنون أن الضرب الوحشي بهذه الطريق يمكن أن يؤدي إلى اعترافات"، شغالي ولد مكية، محمد البدا، الولي ولد ببيت، المحبوب ولد لمديميخ، السالك ولد اعلي مولود وسيدح ميارة المتمكن من تاريخ الصحراء ورموزها وشعر المقاومة. كان رجلا مرحا يتميز بحيوية الشباب؛ ماهر في كل أساليب الجذب التي تجعلك لا تمل الاستمتاع معه بحكاياته الشيقة. موسوعة متنقلة. رجال بمعارف واسعة نهل منها كل يوم. نستمتع إليهم ونشاهد فيهم صبر أيوب على تحمل ظلم لم يتصوره أبدا. ترى على محياهم حيرة وأسئلة تفرض نفسها. هل هم مجرمون حتى يستحقون هذه المعاملة؟ أم ذنبهم أنهم ينتمون إلى زمن سقطت فيه كل القيم الإنسانية؟ أم أنهم بكل بساطة ينتمون إلى هوية تأبى إلا أن تتشكل في وطن اسمه الصحراء الغربية؟ كثيرا هي الأوقات التي يتحدث فيها البعض عن مصيره المحتوم: على أي أرض يريد أن يعيش وعلى أي أرض يريد أن يوارى جثمانه الثرى؟ استفدنا نحن الشباب كثيرا من هؤلاء الرجال في الدين وتاريخ وجغرافيا الصحراء وفي عادات وتقاليد وشيم أهلها. بكل هدوء يتحملون هذا الأمر الواقع؛ بالرغم من تركهم عائلات وعوائل مشردة لا

يعرفون عن مصيرهم أي شيء. كل رجل له عائلة ضاعت بفعل هذا الفعل التعسفي. شيوخ بعضهم تجاوز السبعين سنة في زنازين لا تتوفر على أبسط شروط الحياة. تخجل منهم وأنت تراهم في هذه الوضعية اللاإنسانية، التي لا تحترم حتى سنهم ووقارهم. تبا، لزمان فيه يداس الوقار. وأنت تنظر إليهم سوف تكتفي بقول "حسبي الله ونعم الوكيل". بسبب هذه الأفعال الدنيئة؛ أيادينا ليست قادرة أبداً على مصافحة الجلال. أحيانا أخرى تكون لنا جلسة شعرية يتوسطها محمد بوشيبة ذي الصوت الرخيم والشجي. يخلق بنا في سماء النغم. نتجاوز أسوار الزنازين ونتحدى الألم. ألم الغربة والضياح وجهل المصير. ذات ليلة كان محمد بوشيبة يردد " نحية " " بديني جا " وفي قمة التفاعل مع النحية (المقطوعة النغمية) أنشد الهيبة ولد عمر ولد ميارة "كاف" ليرده بوشيبة.

ما	قط	جبرنا	لحكمة	***	تعدل	شي	ماه	بحجة
تغزير	كيف	الروامة	***	وتكتف	لعرج			والعرجة

رد عليه المحجوب بوخير:

الراس	سلت	به	التفكير	***	والتخمام	اكص	الدمجة
ماني	محاكم	فكدير	***	ولا	لاهاي	ولا	طنجة

بعد ذلك بكثير كان " كاف " المحجوب بوخير يتنبأ بأننا فعلا سنبحر في عالم من الاختفاء القسري بدون محاكمة ولا حماية قانونية.

في العنبر الموالي؛ نساء صحراويات صامدات يبتسمن لنا من وراء القضبان ويرحبن بمجيئنا في انتظار القادمين من المختفين الصحراويين. في أعينهن شرارة الحرية غير مباليات بمكان وجودهن مادام من أجل القضية.

لماذا نحن هنا في هذه الزنازين وبالذات في مخفر الشرطة؛ خاصة بعد أن اكتمل الاستنطاق؟ لم أوقع على أي محضر. كتبوا ما شاءوا واحتفظوا به. لا يهمهم القاعدة القانونية التي تنص على قرينة البراءة بقدر ما يهمهم أننا مدانون ولا حاجة لمتابعة الاستنطاق. المهم إعداد المحاضر ووضعها في رفوف النسيان. هم يتكلفون بكل شيء؛ يعدون المحاضر والتهم في حقنا ويوقعونها نيابة عنا. منطوق بلا عدل ولا حق! أو أننا لا نستحق محاكمة عادلة وأن نقف أمام قاضٍ لتقول العدالة كلمتها أو يخلو سبيلنا. ليس هناك أي مبرر قانوني يجعلنا رهائن هذه الزنازين. إنه الشطط في استعمال السلطة، بل إنه عدم احترام القانون والدوس على حقنا بالتمتع بالحرية والكرامة بعيدا عن أي حس إنساني أو معاتبة ضمير. إنه الاحتجاز التعسفي. إلى متى ستدوم هذه الوضعية الشاذة؟ أسئلة يستحيل الإجابة عنها. كيف نستطيع المقاومة ونحن محرومين من أية تغذية صحية؟ ظروف العيش المضمونة دوليا للسجناء لم نحظ بها. خبز حاف على مدار الأربع وعشرين ساعة وماء ممزوج بطعم لكرزيلين. كأننا من أبطال رواية محمد شكري⁷⁰. لا علاقة لنا بالخارج وأي اتصال بالعائلات ممنوع. لا أحد يجب أن يعرف أين نحن؟ مخفون إلى أجل غير مسمى. لا شيء يوحي بأن هناك انفراجا. الكل في انتظار رهيب. أحيانا تشعر بصمت تكاد تظن أن ليس هناك بشر. الاتصال بالخارج ممنوع والأخبار التي نتوصل بها فقط من الحراس لا تعني أي شيء. فبالرغم من التطورات المتسارعة والحرب الضروس الدائرة في ربوع الصحراء الغربية؛ ما كنا نعرف عنها أي شيء. تخشى أن تسأل خوفا من اتهامك وتوريطك في قضية تعني لك الكثير. لا أحد يعطيك أخبارا مؤكدة تساعد على تحمل برودة الزنازين والخبز الحافي والماء الملوث. في جهل مطبق عما يدور حولنا وفي

انقطاع تام عن عائلتنا؛ نعيش قدرنا المحتوم بكل تأن. حتى الموقوفون في الحملات الليلية لا يتحملون وجودنا. يبدوون في حالة مزرية تكاد تشفق على أحوالهم لولا أنهم، أحيانا يسبوننا ويشتموننا بحناجرهم المتأكلة من فعل المخدرات لإرضاء حراس الأمن الذين لا يتدخلون في هذه الأوضاع، إلا إذا نشب شجار بين هؤلاء الموقوفين ضحايا البؤس والجهل. كثير منهم ينقل على وجه السرعة إلى المستعجلات لتلقي العلاجات الطبية بسبب الأمراض المنتشرة في أوساطهم؛ خاصة الأمراض الصدرية والأمراض التناسلية. لم يحظ أحد منا نحن الصحراويين خلال هذه المرحلة من زيارة الطبيب ولا نقله إلى المستعجلات كما يتم مع الموقوفين في الحملات الليلية للأمن؛ خوفا بكل تأكيد من فضح هذا الاحتجاز الغير قانوني الذي قد يكون موضوعا دسما للإعلام ولعائلتنا. عالم مقرف فعلا ! في غياب وسائل النظافة من صابون وشمبوان واستحمام أصبحت ملابسنا متسخة ولا حيلة لاستبدالها بسبب انعدام ملابس بديلة. وفي غياب التهوية المناسبة لفضاء الزنازين مع الاكتظاظ أضحت الرائحة كريهة مع الرطوبة المفرطة. نطل من الكوة لعل بعض أشعة الشمس تتسلل إلينا لتدفئ أجسامنا الباردة. أحيانا نشعر بدبيب على الجلد داخل الملابس. نتلمس مكانه أنه القمل يمتص ما تبقى من دمائنا. يسبب حروقا ما نفك نحكها حتى يسيل الدم. حتى حشرة البق لها نصيبها الأوفر لأنها تدخل من شقوق الأبواب والجدران الرطبة دوما. في كل عنبر من العنابر؛ في إحدى زواياه يوجد مرفق صحي لقضاء الحاجة الطبيعية للبشر. هناك بعض العنابر يتواجد فيها أفراد من عائلة واحدة. أخ مع أخيه أو أب وأبنة أو مع صهره. فوضى أخلاقية تهدم كل القيم. إحراج كبير بيننا عندما يهيم أحدنا بقضاء حاجته. بكل حسرة وانكسار ترى نفسك مجبرا أن تفعلها أمام إخوانك والحياء باد على محياك. هناك حائط بارتفاع بعض سنتمترات يعزلك عن المجموعة التي معك

لتقضي حاجتك. ولأن الحاجة أم الاختراع يقف أحدها أمام الآخر موليه ظهره ليستره حتى يطمئن في خلوته وأحيانا يرفعون ستارا بينك وبينهم. الأعماء المنتفخة بالهواء قد تفضحك، تحاول أن تجعلها مكتومة لكنها تخرج منك بالرغم منك مدوية. الكل متفهم ولا أحد يكثرث، وتمر الأيام بروتينية رتيبة.

أثار انتباهي، قصة اعتقال صحراوي ضمن المجموعة في هذه الزنازين. لكل صحراوي قصة غريبة وأسلوب اعتقاله واختفائه. قد تصلح أن تكون موضوع سيناريو سينمائي. سليمة ولد لمحيظ، شاب صحراوي نشط يمارس التجارة بين العيون ومدينة الطنطان. وكما قلت سلفا، إن العلاقة بين أهاليينا في العيون وأهاليينا في الطنطان متينة جدا. ونظرا لانعدام أي مؤشر للتنمية، مارس الناس تهريب التجارة بين هاتين المدينتين. ولممارسة هذا النشاط التجاري؛ يملك أصحاب هذا الأسلوب سيارات الدفع الرباعي لاندروفر. كان سليمة ولد لمحيظ من ضمن هؤلاء التجار. في طريقه إلى مدينة الطنطان؛ كان الجيش المغربي يقوم بدوريات تمشيطية بين المدن الصحراوية، فضبط السليمة بسيارته مشحونة بالسلع. ألقى عليه القبض وأفرغت الحمولة بعد مصادرتها، واحتفظ به بمخفر الشرطة. تزامن اعتقاله بحملة الاختطافات المشؤومة بالطنطان التي طالت الشيوخ والنساء والأطفال؛ دون مراعاة أي حقوق ولا موافق دولية. بعد إجراء بحث استنطاقي معه وأخذ معلوماته تم إخلاء سبيله بعد تسليمه وثائقه. في اليوم الموالي تذكر أنه نسي ساعته من نوع سايكو 5 (SEIKO 5) وكانت هذه الماركة، من الساعات ذات الجودة العالية وتعتبر ماركة مسجلة وذات قيمة مادية، لا يمتلكها إلا قليل من البشر المحظوظين لأنها تعبر عن الشريحة الاجتماعية التي ينتمي إليها حاملها. فرجع إلى مخفر الشرطة يريد استرجاع ساعته. وجد حراسا جدد تنكروا لوجود الساعة. دخل معهم

في مشادات كلامية، فاعتقلوه من جديد وضموه للمعتقلين السياسيين قصد ترحيلهم لاحقا إلى المخابئ السرية بمحضر مزور قضى بسببه ما يقارب من ستة عشر سنة (16) من الاختفاء القسري. هذه القصة الغريبة والاستثنائية من نوعها - وكيف أن ساعة سايكو5 وما تسببت فيه من مأساة توثق للذاكرة الصحراوية بالشؤم، وكيف تغيرت النعمة إلى نقمة وتحول الفرح إلى حزن وبؤس - تشكل أعلى درجات الظلم والتراجيدية الإنسانية في مرحلة عجز القانون أن يحمي الحقوق.

لعروسي ولد النومرية، شاب وسيم في غضاضة العمر يمارس هو أيضا التجارة الحرة. جاء إلى الطنطان بسلعة لعرضها مع أحد أقاربه بالسوق. بعد بيع سلعته، ذهب إلى منزل المحجوب ولد لمديميغ الذي يعتبر منزله قبلة لكل الصحراويين نظرا لكرمه وحسن ضيافته للغير. كان من قدر الله، أن الليلة التي تمت بها استضافة لعروسي ولد النومرية هي ليلة سوداء ومأساوية غيرت مجرى أسرة بكاملها مكونة من فتيات صغيرات وأم لا حول لها ولا قوة. لكن هذه الأم التي تركت للأقدار مع بناتها لم تستسلم، بل ربتهم أحسن تربية وأعطت صورة حقيقية عن قوة المرأة الصحراوية وقدرتها على تربية أبنائها رغم تكاليف العيش والدراسة. في هذه الليلة بعد منتصفها، اقتحم رجال الأمن المنزل بطريقة تزرع الرعب في منزل كان ينعم بالسكينة والطمأنينة؛ اعتقلوا الأب المحجوب وأبنه محمد. دخل أحد رجال الأمن غرفة الضيافة فوجد لعروسي نائما. سألوا عنه الأب؛ أجابهم بأنه ضيف ولا دخل له بأي شيء. قال رجل الأمن ليذهب معكم حتى يؤنسكم، فأخذه وقضى هو أيضا ما يقارب ستة عشر (16) سنة من الاختفاء القسري. هذه النماذج من الاعتقال التعسفي تبرر بأن الحملة الأمنية ضد الصحراويين كانت حملة عشوائية لا تراعي أي أعراف ولا مواثيق دولية ولا تستند لدلائل تثبت سبب اعتقال هؤلاء. بل هدفها، اعتقال

أكبر عدد من الصحراويين والزج بهم في مراكز الاختفاء القسري وتركهم لمصير مجهول. تعلمت "كافا"⁷¹ من محمد مبارك ولد لموحد، يلخص غدر الأيام والبشر، فيه عتاب ولوم لها. هذا الرجل بليغ وحكيم في كل شيء. ترتسم على شفتيه ابتسامة تحد لما يجري من حوله. يسائل الزمن عن تقلباته وعدم الراحة والقلق والخوف من المجهول.

لياليا يا مول المن *** ما هم سيان فحساني
وثر الليالي ما تحسن *** م ساءت بعد الإحسان

قال لنا ذات مرة في معرض حديثه عن الشعر الحساني؛ بأن اللغة الحسانية كلها منظومة ومتجانسة المعاني وتحمل من بديع الكلام وجناسه ما يجعلها مقطوعة شعرية. عليك فقط أن تتركب وترتب الكلمات لتصنع صورة شعرية.

بعد ثلاثة أشهر من الاحتجاز التعسفي في زنازين المخفر المركزي للشرطة بأكادير. يمكن بكل شرعية وضع السؤال التالي. كيف، استطعنا نحن الصحراويين أن نحيا في هذا الجحيم والضياع بدون مقومات للبقاء؟ صدق المثل القائل بأن، الإنسان هو أصعب حيوان يمكن قتله! إرادة التحدي والتأزر فيما بيننا هي العامل المشترك لتحمل ثقل لا يطاق. كل منا يقدم ما عنده للآخرين؛ وللتاريخ لم يكن لدينا أي شيء ما عدا ثقتنا ومعنوياتنا الكبيرة. كنا نحن الشباب؛ كتلاميذ أكثر استفادة لأننا لا نملك أي شيء وكنا نتلقى كل شيء بمحبة وصدق وسخاء من الآخرين. ثلاثة أشهر بلياليها وأيامها بدون استحمام ولا تبديل ملابس. في أحد الأيام كانت هناك حركة غير عادية بين أفراد الأمن. تساءلنا عن سبب هذه الحركة،

71 - بيت من الشعر باللهجة الحسانية.

خاصة أنها تهم الزنازين التي نقيم فيها. دخل ضابط شرطة وأخذ يسأل عن بعض الأسماء. وحين تأكد من حضورهم، رجع من حيث أتى. مرت أكثر من ساعة ليأتي ضابط شرطة آخر رفقة رجال أمن وبيده لائحة أسماء. أخذ يجول بين الزنازين وينادي على بعض أسماء المعتقلين الصحراويين ويطلب منهم الخروج نحو قاعة الانتظار. كلنا وقفنا نشاهد هذا المنظر وفي أعيننا ألف سؤال. ما ذنب هؤلاء؟ لماذا سيقوا كقطيع غنم نحو الجزار؟ ثم كانت المفاجأة الجميلة؛ أن هؤلاء تم الإفراج عنهم. يعني أن هناك أمل لدينا لعناق الحرية وأهالينا. عشنا تلك الليلة بطريقة مختلفة عن الليالي والأيام السابقة. أتذكر أن أحدا تحدث عن متابعة دراسته، وكيف سيحصل على شهادة طبية تبرر غيابه. وبحكم أننا كلنا تلاميذ ناقشنا هذا الموضوع طويلا وكيف سنستدرك ما فاتنا من دروس وكيف بسبب هذه المدة يمكننا اجتياز اختبارات البكالوريا. حلمنا كثيرا وبالطبع من حقنا أن نحلم وكما قال المثل: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل⁷². نعيش هنا على العناد وعزة النفس رغما عن الجلاء. توالى الأيام، ونفذ صبر الانتظار للإفراج عنا كالآخرين. وأدركنا أن الرحلة لازالت طويلة وشاقة ومؤلمة. انطينا على أنفسنا. كل منا منشغل بهوممه، لكن في نفس الوقت بروح من التحدي والتضامن نعيش حياتنا رغم من قساوتها. أصعب ما في الانتظار هو أنك تنتظر أملا أو حدثا قد لا يتحقق! شيء ما تغير فجأة. بعد ثلاثة أشهر من انعدام كل ما يمكن أن يكون بشير خير؛ تفتح الأبواب على مصراعها ويطلب منا الخروج إلى باحة المخفر. خرجنا ولا أحد منا يصدق هذه اللحظة الرائعة والجميلة التي عانقنا فيها السماء وأشعة الشمس الدافئة. ما أحوج أجسامنا إلى هذه الأشعة. كانت الساعة الواحدة والنصف زوالا والشمس في كبد السماء. في هذا الوقت يكون الموظفون والمرتفقون قد

72 - عبارة شهيرة للشاعر الطغراني من قصيدته (لامية العجم).

انصرفوا. بعد ربع ساعة من خروجنا لهذا الفضاء دخلت سيارتان توقفتا غير بعيد منا ليهبط منهما رجال أمن يحملون مراجل كبيرة. يطلبون منا أن نتوزع على فرق مكونة من عشرة أفراد. قال قائدهم: لقد أتينا لكم بوجبة الغداء من مطعم " ليل / نهار". مطعم ليل / نهار! كيف تغير الزمن مائة وثمانين درجة من بؤس ومعاناة جوع، حيث كثيرا منا أصبح يعاني من مرض فقر الدم بسبب انعدام التغذية إلى ما لذ وطاب من مطعم مصنف على مستوى مدينة أكادير السياحية؟ وضعوا الطعام في أواني كبيرة ووزعوه على المجموعات. لحم وخضر متنوعة ! هذا ما كنا نفتقر إليه. تناولنا هذه الوجبة وبعد الثانية والنصف زوالا أمرونا بالدخول إلى الزنازين. أقفلت من جديد علينا الأبواب الحديدية. رجعنا إلى رشدنا وواقعنا من جديد. ما هذا التناقض أم أن هذا الوضع يعيش على المتناقضات؟ وجبة غذاء غنية بعدها الزنازين الرطبة. كان من الأجدر أن يخلى سبيلنا ونعانق الحرية من جديد. عشنا على هذا الوقع أياما معدودة: طبخ من مطعم "ليل نهار" والركون إلى زوايا الزنازين الباردة من كل المشاعر الإنسانية إلى أن جاء اليوم المحتوم ورحلة الموت المشؤومة.

رحلة الموت. أكدز

السبت 03 يوليوز 1976

أكره الضحايا الذين يحترمون
جلادهم⁷³.

استيقظنا مذعورين؛ خارج الزنازين في الباحة الكبرى التي نتناول فيها وجبة الغذاء هناك جلبة وهدير محركات وأوامر تعطى. كثيرا من الأسئلة تتناسل الواحدة تلو الأخرى. قال أحدها

- صوت محرك شاحنة! نعم قال آخر واتفقنا على أنها شاحنة نقل.

تأهبا لكل احتمال. ما هذا الحظ البئيس؟ جلسنا القرفصاء، ننتظر ماذا سيجري. كانت تقريبا الثالثة صباحا، وعادة هذا الوقت يعتبر في الفهم المخزني وقت المباغثة. تهت في تفكير عميق. ماذا ينتظرنا بعد أكادير؟ إلى أين سترمي بنا الأقدار؟ أ لا يكفي ما عانيناه؟ وقفنا فجأة، حين سمعنا وقع أقدام وزنازين تفتح. فريق من رجال الأمن دخلوا وأخذوا بإخراجنا بطريقة مذلة من العنابر كأنما يريدون التخلص منا بسرعة. في ساحة المخفر المركزي للشرطة، هناك شاحنة كبيرة الحجم ومستطيلة على أهبة الانطلاق. ركبنا الشاحنة أو على الأصح رمي بنا فيها. يتوسط صندوق الشاحنة، كرسي مستطيل جلسنا عليه متقاربين. كل من جلس منا يتم تقييده بمفرده إن كان شابا ويصطفوننا في الأمام ثم يلينا الشيوخ. كل اثنين مقيدان بقيد واحد وبعدها النساء. الشاحنة غير مكشوفة. يحيط بالكرسي الجالسين عليه عدد من رجال الأمن المدججين بالأسلحة التابعين لقوات التدخل السريع (CIM) مشكلين طوقا دائريا يحوطنا جميعا. حين

تم شحننا بهذه الطريقة المهينة وتمت العملية على ما يرام، أخذ حراس الأمن يصفقون بحرارة على نجاح المهمة بسلام. بعد ذلك فور وصولنا للمخبأ السري باكدر عرفنا لماذا كانت حرارة التصفيق لأنهم بكل اختصار تخلصوا منا وسلمونا لأعنف جهاز اشتهر بالقمع والتعذيب إنه: جهاز القوات المساعدة. لاحظ الجميع أن رجال الأمن أخذوا الأب الجليل حيدوك برك وابنه الدحة وعزلوهما عن المجموعة متوجهين بهم لجهة مجهولة. علمنا لاحقاً أنه تم الإفراج عنهم وذهبوا بهما إلى مدينة الطنطان. انطلقت الشاحنة بنا إلى جهة مجهولة. تلاشت فكرة أنه تم إطلاق سراحنا ولم تخطر ببالنا نظراً للطريقة التي تم شحننا بها وكأننا بضاعة ولسنا آدميين. خلال الطريق بدأت أشعة شمس الصيف الحارقة تتسرب إلينا. فقط، صوت العجلات على الإسفلت يصم أذاننا ولهيب الصيف تلفح وجوهنا من ثقب الشاحنة. بدأ التعب ينهك قوانا ولا قدرة لنا إلا الاستسلام لمسيرنا. شعرنا بالعطش والماء ممنوع. طلب جرعة ماء يمكن أن تكلفك حياتك. ذاهبون إلى الإعدام الجسدي والنفسي. أنه الموت يحدق بنا. أتحرك يمينا ويسارا لألمس من يجلس جانبي؛ وجوده بالقرب مني يطمئنني ويجعلني أحب الحياة وأتشبث بها لأن هناك من يتحمل معي ألمي. أريد أن أتحدث إليه لكن هيهات. الأمن من كل جانب. لا أدري لماذا حين يسود الصمت يحلو الكلام؟ أصبحت أشعة الشمس تغمر الشاحنة وتملاً المكان. دخلت بنا الشاحنة إحدى المدن لتتوقف أمام مبنى حكومي. يفتح الباب الخلفي للشاحنة ويصعد إلى داخلها صحراويون شباب. يسدل الغطاء من جديد لإخفاء الجريمة وتدور عجلات الشاحنة نحو المجهول. فيما بعد في المخبأ السري "أكدر"، عرفنا أن المجموعة التي التحقت بنا هي مجموعة الطلبة الذين كانوا في السجن السيئ السمعة درب مولاي الشريف بالدار البيضاء وأن المبنى الحكومي هو مبنى عمالة إقليم وازازات. لا

يمكن أن نقدر كم من الوقت سافرنا على متن هذه الشاحنة الملعونة. الشمس تأتينا أحيانا من اليمين ومن اليسار أحيانا أخرى ثم من الخلف حتى تشابه علينا كم قضينا من الزمن جوعا وعطشا وألما. يداي أشعر بهما ميّتان وكأنّ الدم توقف عن الجريان فيهما من شدة القيد. العرق يسيل على أعيني ويحرقني ولا أستطيع مسحه. أحاول حك أعيني على كتفي اليمنى تارة وكتفي اليسرى تارة أخرى؛ كي أزيل العرق لكن ما يفتأ يسيل من جديد بفعل الحرارة المفرطة. أرفع يدي إلى عيوني مرات ومرات، غير أن حرارة الشمس الساطعة تزيد من سيلان العرق أكثر. أشعر بأن الشاحنة تسير مع منعرجات وطرقات ملتوية. لا أدري كم طال سفرنا لكن الشاحنة بدأت سرعتها تتناقص، وببطء تتحرك وتتلفع كأنها في أزقة ضيقة جدا. تعود الشاحنة إلى الخلف سيرا لتدخل من باب مقوس ينكشف الغطاء. كانت الشمس تميل إلى الغروب وهذا يعني أننا سافرنا ساعات طويلة إلى سراديب الموت. أمامنا طابور من القوات المساعدة. كل عنصر مدجج بعصا غليظة. شكلوا ممرا بينهم وأخذوا في إنزالنا الواحد تلو الآخر. كان بيد أحد عناصر قوات التدخل السريع، صندوق ورق يناولنا منه سندوتش. نأخذه ونصرف مطأطين الرؤوس. فجأة سمعت ضربا بالعصي وسبا؛ انه محمد بوشيبة كان يريد شيئا محاولا الحديث مع أحد عناصر القوات المساعدة، فانهاه عليه دون مراعاة أي ظرف. الضرب بالعصي؟ ألا يكفي ما تلقيناه من عنف وضرب خلال الاستنطاق بمخفر الشرطة بأكادير؟ حتى الحيوانات لا تتحملة فكيف لبني آدم أن يطيقه! دخلنا بهوا ثم ساحة كبيرة تحيط بها جدران من الطين المدكوك عالية وشامخة تكاد تحجب الشمس عنا التي أصبحت تميل إلى الغروب. فتحوا بابا كبيرا دخلنا وأمرونا بالجلوس. جلسنا. أصبنا بالذعر فجأة عناصر من القوات المساعدة فوق السطح مسلحة بأسلحة رشاش ومصحوبة بكلاب حراسة. ممنوع النظر

إلى الأعلى. من باب الفضول، بدأنا نختلس النظر إلى جوانب هذه البناية القديمة التي تحيط بها أبراج عالية من زواياها الأربعة. كانت المفاجأة كبيرة حين أطل علينا رجل أشعث الشعر شاحب الوجه، يتكلم بالحسانية من نافذة زنزانة مقفولة. ما فتئ المختفون أن عرفوه؛ أنه الشهم أعلي بويا ولد عمر ولد ميارة. أسطورة بطولات تاريخية. فيما بعد تبين لي من الاحتكاك به أن سلبياته هي فضائل الرجال؛ شجاع ولا يبالي. عمره يتجاوز السبعين لكن في عينيه حيوية وجرأة قل نظيرها عند أقرانه. حذرنا من أكل الشعرية المطبوخة بالماء وأن نحتاط من الأكل الملوث الذي سيقدمونه لنا. اقترب منه إخوته سيدح والشيخ والهيبة تبادلوا السلام، ثم شرع يتحدث إلى الجميع ويشحذ الهمم. قال: هناك أيضا في البيوت الأخر مجموعة من الصحراويين، وهم بحالة صحية مزرية جدا. وأن هذا المكان تابع لعمالة ورزازات ويطلق عليه اسم "أكدز".

كنا كمجموعة، من المختفين الصحراويين، نتكون من (51) واحد خمسون رجلا، و(07) سبع نساء. وهم كالتالي: الولي ولد ببيت - فتاحي الحسن - سليكة السالك - ماحو بريك - بهان سلامة - جيد ولد كركوب - لعروسي ولد النومرية - سليمة ولد لمحيظ - السكالي السالك ولد اعلي مولود - علي ولد المصطفى - عبيد سهيلي - شغالي سيد أحمد ولد مكية - سيدح ولد عمر ولد ميارة - الشيخ ولد عمر ولد ميارة - الهيبة ولد عمر ولد ميارة - علوات نجيب ولد الطاهر - الضميري عياد - خونة عبد الخالق - أحمد ناجي نيجة - محمد العياد - المحجوب ولد لمديمغ - محمد ولد المحجوب ولد لمديمغ - محمد إبراهيم ولد بدة - الداوي ولد الناجم - الداه ولد بلالي - محمد مبارك ولد الموحد - عبد الرحمان بوكرين - صالح الداودي ولد التاقي ولد عمر - ابراهيم بنجامع - محمد عالي الحيسن ولد محمد - الخليل أماي ولد اعلي ولد الكوري - محمد عالي البربوشي ولد

سيدي محمد - الشيخ سفر ولد الحسين ولد أمحمد - الصغير المغراوي -
يحظيه الديماني ولد أليين - اعلي سالم ولد محمد يحظيه ولد بوصولة -
مولاي احمد الليلي ولد محمد الحسن - المحبوب ولد بوخير - سيدي محمد
ولد بوشيبة - سلوك ولد سيد الشيخ - حمدي ولد فندو - لحبيب ولد أحمد
لحسن - حم البطل ولد البلال - بوبا ولد محمد عبد الرحمان ولد الكوري
- أمانة الله ولد أبيري - الونات محمد لحبيب - سيدمو بابوزيد ولد سعيد -
محمد فاضل ولد عبد الله - خطري الداوي - سلامة ولد عزات ولد جدود -
سلامة ولد منو -

أما النساء فكن:

ميمونة بنت عبد الله - تغلي الليلي - عيشة بنت الشافعي - دماحة بنت
اعلي أحميدات - فاطمة (النعجة) بنت عالي برهمة - فاطمتو دھوار بنت
محمد عالي - مبارك علينا بنت ميلد.

رائحة روث البقر تزكم أنفونا. كانت هذه البناية الضخمة إسطبلا
للماشية ولم يتسن لهم تنظيفها لاستقبالنا، بل ربما نحن في تقديرهم هكذا
يجب أن يكون المكان الذي سنعيش فيه. لا أستطيع أن أميز بين هذا النوع
من السلطة والتابعين لها. هنا، لا تقدر النفس البشرية ولا تحترم الكرامة
الإنسانية. سنبيت الليلة على روث البقر وربما مدة إقامتنا هنا. كم
ستستغرق إقامتنا؟ الله وحده يعلم! أتذكر جيدا أن إخوانا لنا من بينهم
الجيد ولد كركوب وعبيد ولد سهيل والهيبة عمر ميارة: وهم يشاهدون
الأسوار العالية والحرس المدجج بأسلحة الرشاش والكلاب المدربة؛ أنهم
قالوا صعب أن يخرج الإنسان من هذه الأسوار وهو سالم. بعد أذان المغرب
بقليل، أدخلونا - بالتهديد والضرب وأحيانا بالوعيد - البيوت الطينية.
دخلنا بيتا كبيرا به ممر لبית ملحق به. رائحة روث الماشية ورائحة الدخان
ازدادت حدتها بعدما تم غلق الباب علينا بإحكام. أنفاسنا تحتنق. نحن هنا

فريسة جلادين يملكون كل سلطة علينا بما فيها سلطة الموت والحياة. لكن ما فتئ أن خيم الصمت الرهيب، فقط الصراخ من تكسر بأصواتها السكون العميق ودبيب الحشرات بين ثقب القصب الذي يشكل سطح الزنانة. بعد سفر متعب وجوع وعطش وترهيب. الكل بحسب طريقته غط في نوم عميق.

"أكدز"، مركز الاختفاء القسري الرهيب، قرية صغيرة تابعة لإقليم زاكورة. تقع في جبال الأطلس أسفل جبل "كيسان" وتمتد على طول ضفاف وادي درعة. توجد على بعد 80 كيلومترا عن مدينة ورزازات. تعني كلمة أكدز "مكان الراحة" تستغله القوافل التجارية العابرة إلى إفريقيا. لكن، بفعل فاعل أصبحت مكان معاناة واختفاء قسري وتعذيب جسدي ونفسي. لدى أكدز، مناخ صحراوي يتميز بحرارة مفرطة خلال الصيف وبرد قارس خلال فصل الشتاء مع هطول أمطار غزيرة. أكدز المخبأ: عبارة عن قصبة تبلغ مساحتها 6500 متر مربع على طابقين؛ تم بناؤه بالطين سنة 1948. تقول الروايات المحلية أنها أحد قصور القائد الطاغية تهامي لكلاوي الذي أذاق سكان المنطقة الويلات. استغلت في مرحلة الاستعمار الفرنسي كسجن للمناهضين للتواجد الفرنسي بالمغرب والمعارضين لسياسة فرنسا الاستعمارية. استخدمت بصفة رئيسية في احتجاز الصحراويين ما بين عام 1976 إلى 1980 وكأن التاريخ يعيد نفسه بنوع من الملهة. لقد جعل المغرب من هذه المناطق صناعة للبشاعة. يعد مخبأ أكدز في المغرب أحد المعتقلات السرية التي كانت رمزا لانتهاك حقوق الإنسان أثناء ما يُعرف بسنوات الجمر والرصاص في القرن العشرين. بحيث، شكل هذا المعتقل أقبح صور الاختفاء القسري في تاريخ المغرب "الحقوقي" إلى جانب "قلعة أمكونة". حيث، ترك المختفون لمصيرهم بدون رعاية اجتماعية ولا إنسانية ولا حماية قانونية؛ تحت رحمة

الموت البطيء ونزوات الجلادين. عرفت هذه المنطقة بست معتقلات سرية من عهد لكلاوي إلى الحسن الثاني: تكونيت - أكزز - قلعة مكونة - سكورة - المنصور الذهبي وتمذاغت⁷⁴. ضم مركز الاختفاء القسري بأكزز؛ مجموعة معتقلي أحداث مارس 1973. كان عددهم أحد عشر رجلا وامرأة وهم: فاطمة أوحرفو، أكو أفروخ، حدوا فضيل، كجي موحى، زايد جلوق، عرجاوي موحى، أيت زايد موحى، أزدي زايد، فاضلي موحى، اللوزي باسو ووزان قاسم. سقط منهم شهداء وهم⁷⁵:

الاسم الكامل	سنة الاعتقال	سنة الوفاة
أفضيل حدو	مارس 1973	12 يوليوز 1976
كو موحى أفروخ زازة	مارس 1973	18 يوليوز 1976
باسو اللوزي	مارس 1973	06 نوفمبر 1976
فاطمة أوحرفو	مارس 1973	20 دجنبر 1976
وزان قاسم	مارس 1973	29 يناير 1977

كما أحتضن مركز أكزز للاختفاء القسري مختطفين آخرين: معتقل فلسطيني أو لبناني يحمل لقب أبي فادي، اسمه الحقيقي حسب السجلات الرسمية أحمد أحمد عباس المراكشي⁷⁶ من جنسية لبنانية وأصل

74 - حميد مجدي. المخاض النقابي والسياسي العسير. 1999-2013. ورزازات تتحدث ب "لسان حالها " عن المغرب. الطبعة الأولى. ص. 90. وردي استثمار للطبع والنشر والتوزيع. واجهة المرسى طريق بني ملال. قلعة السراغنة

75 - نفس المصدر. ص. 105

76 - نفس المصدر. توفي وحيدا بالمعتقل السري بسد المنصور الذهبي ودفن بسفح تل مجاور للسد ونقلت رفاته إلى مقبرة قلعة مكونة بعد ذلك. ص. 109

فلسطيني ومعتقل من دولة ليبيا، يدعى محمد البهلول علي بنعمر. لا يعرف سبب اختطافهما ولا ما تخفيه حكايتهما الدرامية. كما استقبل معتقل أكذب السري لمدة شهرين تقريبا (من 28 أبريل إلى 30 مايو 1973) في إحدى زنازينه، أفراد عائلة أوفقيز قادمين إليه من معتقل سري آخر باسا الزاك⁷⁷.

مركز الاختفاء القسري بقرية أكذب مربع الشكل يحتوي على تسع غرف وعلى كل جانب منه برج للمراقبة. بداخله سواري وأعمدة كبيرة. عندما تدخل من الباب الرئيسي المؤدي إلى الزنازين، تجد على يسارك زنزانتان، إحداهما عبارة عن مستودع للملابس التي كانت معنا وبها رزمة من الثوب الأبيض. قال لنا رئيس الحرس، إنها أكفان مخصصة لدفننا. بعد يوم وضعوه على رف بالحائط لنشاهده كل يوم كتعذيب نفسي. مما يعني أننا هنا للموت ليس إلا. وهذا يبرر ويفسر لماذا كل هذا الإفراط في العنف ضدنا. ولن أنس أبدا حين قال رئيسهم لنا " احمداوا ربكم، أننا سندفنكم على الطريقة الإسلامية حين تموتون. فالأجدر أن ترموا في مكب النفايات لتأكلكم الكلاب". في الصباح الباكر، استيقظنا فزعا على وقع فتح الأبواب المقفلة علينا. فرقة من القوات المساعدة بالعصي تحتل باحة المكان وعلى السطح آخرون مسلحون. دخلوا يحملون غلايات وكؤوس من معدن الريش مع كيس فيه خبز. كل زنزانة فتحوها يرمون الكؤوس والخبز ويسكبون القهوة بسرعة فائقة ثم يقفلون الأبواب من جديد علينا. يضعون مناديل على أنوفهم لتجنب الرائحة الكريهة التي تنبعث من الزنازين. هناك زعر وهاجس متبادل. في اعتقادهم أننا يمكن أن ننقض عليهم ولردعنا يفرطون في العنف لإذلالنا والسيطرة علينا. لا يقتربون منا. ممنوع الحديث معهم. وبالمقابل، نحن تداركنا نواياهم وعرفنا أننا هنا لسنا لنعيش فكان

77 - نفس المصدر. ص. 102

واجب أخذ الحيلة من بطشهم ضروريا. من شدة الجوع تناولنا الفطور بطعم العلقم وتحملنا مرارة القهوة ووسخ الكؤوس. الخبزة لا تتعدى ربع كيلوغرام. مع الأيام وقساوة الطبيعة من جو حار إلى برد قارس وجاف هناك من يأكل الخبز في حصة واحدة. يأخذون الكؤوس منا ويجمعونها خوفا أن تبقى معنا كإجراء احتياطي لعلنا نقوم بمحاولة حفر أو هجوم عليهم بهذه الكؤوس المعدنية. في حدود الثانية والنصف زوالا، دخلوا من جديد يحملون مرجلا كبيرا فيه وجبة الغداء. حين هموا بتقسيم الوجبة على السجناء نهرهم القائد أمرا: "أعطوا للكلاب الحراسة أولا فهم أولى من هؤلاء الكلاب الحقيقيين". فعلا خرجوا بالمرجل وبعد ربع ساعة رجعوا حين أكرموا الكلاب. ما تبقى سيقسم علينا نحن الصحراويين. رباه كيف تقلبت الأمور بهذه السرعة وضاع هؤلاء الكرام بين حراس لا يحملون من سيمة البشر إلا الاسم. لطفك يا رب. بعد ذلك أعتدنا على هذا التعامل السخيف؛ أخذا بأولوية الكلاب في كل وجبة! هذه المشاهد والأحداث شكلت أثرا سلبيا على نفسياتنا. فهل يعقل أن يهان المرء الى هذه الدرجة؟

سمعنا حركة جديدة في الساحة. تسابقنا نحو الباب. أمر فظيع. شيوخ ورجال أنهمكهم الدهر محدودبي الظهر بثقل هموم البعد القسري ووطأة التعذيب المدمر للذات البشرية. بأثواب رثة يتنقلون ببطء غير قادرين على المشي من هول الوهن، أثقلتهم المخابئ السرية تحت السب وسيط الجلال. أطلال رجال تبكي حزنا على أنقاضها. تروي حكاية أبطال مجد أبدي ستحكيه الأجيال المتلاحقة بكل شغف وإجلال. تصرخ قلوبهم ألما دون أن يسمع لها صوت. كم هو مؤسف، أن تشاهد كل يوم أشكالا من القهر تسد الأنفاس. مشاهد نساء ورجال غدر بهم الزمن ورمت بهم الأقدار حيث، لا يجب أن يكونوا. بأجسام نحيفة ووجوه شاحبة يعيشون تحت قهر نفسي وجسدي بفعل الأمراض والجوع كأنهم أشباح رواية رعب.

من ورائهم حراس قوات مساعدة يصرخون في وجه هذا ويدفعون ذاك بعنف نحو مراحيض التي لا تحتوي على مقومات النظافة والاغتسال؛ فيه يستعمل المختفون قسرا كل ما وصلت إليه أيديهم، من حجارة أو تراب وأحيانا قطع ثوب صغيرة للتطهير. من أجل الضرورة، هناك صنوبر ماء محاذ للمراحيض لأخذ الماء في قارورات بلاستيكية بسعة خمسة لترات كانت تستعمل لزيت المائدة. يفتحون أبواب العنابر الواحدة تلو الآخر لنفس الغرض ثم ينفلون منها من جديد. وضعهم يستطيع أن يكون عنوان قصيدة مرثية. تمارس عليهم معاملة دنيئة تحمل حقدا وانتقاما دفينا يصعب تفسيره. هنا في هذه الأبنية؛ آلاف الحكايات المؤلة تحتاج للنش وتحتاج للكتابة

في الزنزانة الواقعة في الزاوية الشمالية للمعتقل، هناك رجال (06) خرجوا بدورهم: الشيخ ولد حمادي السبطي - خطاري حبدي - احمد لسويدي الشجعي - البشير لبات ميارة - بمبا عبد الله الغيلاني - البلال الحبيب البلال. جميعهم في صحة متدهورة، يمشون بصعوبة، نحيفون جدا من فرط انعدام التغذية. حالتهم الصحية صدمت الجميع. فيما بعد، عرفنا أن الزنزانة التي يوجدون بها كانت مطبخا تقليديا يطبخ فيه بالحطب الذي جعل الحائط أسودا من الدخان والأرضية رمادا وبعدها إسطبلا للماشية بسبب تواجد الروث البقر. يضيق فيها التنفس، ويحتبس الأوكسجين. من يجروا ويزج بهؤلاء الكرام في هذا المكان، لو لم تكن له النية المبيتة، في إعدامهم؟

هناك أيضا غرفة أخرى، تضم مجموعة من الصحراويين (26)، الذين تم اعتقال أغلبهم من الزاك وتويزكي، أواخر سنة 1975، وهم: بناصر حمدناه - شرامها احمد - حمدي ولد بوزيد الرباني - مولاي ولد احمد العظمي - اعلي بويلا ولد عمر ولد ميارة - السالك ولد اميليد - بلال ولد

اميلىد - محمد ولد اميليد - محمد مبارك ولد الصالح - محمد مبارك ولد سيدي مولود - أجدود ولد الخليفة - محمد لمن ولد حم - السالك ولد محمد ولد عالي - اسويدي ولد مبيريك - الحمدو ولد بوسحاب - لمام ولد بابا ولد سعيد - السالك ولد عبد الصمد بولسان - مومن ولد أحمدناه - الناجم ولد احمد لحسن - سويليمة ولد رمضان - بوجمعة ولد محمد لمذن - ابراهيم ولد بوزيد - احمد ولد سويلم ولد الترفاس - سريسر سليمة ولد حسينة - مبارك ولد حمدي ولد السالك - محمد ولد محمد احمد ولد لعروسي⁷⁸. مع توالي الأيام، اتضح أن المجموعة تضم شبابا يتحمل كل أعباء الزنزانة: من نظافة وكنس ويتكفلون بالشيوخ الذين أنهكهم المرض والعياء. هؤلاء الشباب هم: حمدي بوزيد الرباني ويسى، مولاي أحمد العظمي ومبارك حمدي السالك.

في الزنزانة المقابلة لمدخل المعتقل هناك، أيضا مجموعة من الصحراويين وهم: الحبيب ولد محمد فاضل - الحسين ولد المعلوم - يحظيه ولد الركيبي - المهدي ولد احمد بارة - الغالي ولد احمد بارة - محمد ولد احمد بارة - محمد ماء العينين ولد لعروسي ولد الراحل - السلامة ولد عالي - الديه ولد المحجوب - فظلي ولد اعلي سالم بكو - الدويه ولد ابراهيم ولد حامد - عالي ولد اعلي - سعيد ولد اعلي - الزاوي ولد احمد العمار - محمد سعيد ولد عبيد ولد شعبان - محمد سالم ولد اميليد - النفاع ولد عبد الفتاح ولد ميارة - محمد لمن ولد بركة - محمد ولد عبد مولانا - عبيدي ولد محمد البشير - عبيدي ولد موسى - بيري ولد حسينة⁷⁹. في الزنزانة رجال من مختلف الأعمار. يثر انتباهك رجل نحيف بينهم اسمه: المهدي يقوم بكل الأعمال الخاصة بالمرضى، مستعينا بالحبيب محمد

78 - ساعد في لائحة الضحايا الأخ مشكورا لحبيب محمد فاضل تركباه

79 - نفس المصدر السابق

فاضل تركباه، أصغر المجموعة سناً. يساعد هذا في الوقوف لأداء حاجاته، ويتكى عليه آخر ليخرج من الزنزانة. في خضم هذه الملهاة التراجيدية، يبدو لك أن هناك أناساً، خففوا من معاناة ضحايا الاختفاء القسري، على حساب وضعهم الصحي. ونقشوا احترامهم وتقديرهم في ضمائرنا إلى الأبد، لما قدموا لإخوانهم، في هذه الظروف الصعبة. زنزانة فيها اثنان وعشرون شخصاً (22) كلهم مرضى، هو وحده من يقوم بكل شيء، لمؤازرتهم.

زنزانة أخرى، تضم الصحراويين (10) الذين، كانوا بدرب مولاي الشريف، حيث تلقوا ألواناً من التعذيب والقهر. محمد لحبيب خليلي - متالي احمدو - محمد فاضل مولاي احمد الليلي - المختار الإدريسي - محمد فاضل مسعود لفريطيس - الخضر محمد عياد - احمد سالك محمد عياد - معطلا ببديه - محمد الهيبة بوخالد - عزاز محمد سالم الدخيل. شكل هؤلاء فيما بعد النخبة المتنورة، إلى جانب مجموعتنا التي ستقوم بتجربة فذة، تمثلت في فكرة التعليم التي شكلت نقلة نوعية، في عقلية المستفيدين منها بأكدز⁸⁰.

29 نوفمبر 1976، التحق باكدر كل من (03) عبد الرحمان خوجة والسهل محمد عبلا ومحمد لحبيب المجاهد.

في زاوية المعتقل هناك، زنزانة تضم نساء صحراويات (04) وهن: البتول منت سيدي علي وابنتها فاطمة السالك عبد الصمد والمامية السالك عبد الصمد - فاطمة الغالية مولاي احمد الليلي. معهن مغربية ضحية الاختفاء القسري اسمها فاطمة أوحرفو⁸¹ كانت مع مجموعة من المناضلين المغاربة الذين اعتقلوا بعد أحداث مارس 1973. كانت الطريقة التي

80 - الشكر موصول للأخ محمد لحبيب خليلي على تصحيح بعض الأسماء.

81- نفس المصدر.

احتضنتها الصحراويات بينهن، ترجمة لقيم الإنسانية والدينية السمحة التي تجعل محبة الآخر؛ بغض النظر عن جنسه أو وطنه أمراً سامياً. إن واجب المساندة لأي إنسان محروم في محنته الفريدة من نوعها، ضروري وبالغ الأهمية. إنه التسامح بين البشر. فهي الأخرى ضحية قمع وسياسة لا ترحم.

فتحوا الباب علينا ورموا لنا بأغطية لنفترشها بعد طيها على أربعة وبقارورتين بلاستيكيتين مفتوحة. قالوا لأحدنا أن يذهب مسرعاً للمأوى بالماء والأخرى أيضاً للاستعمال الآخر (قضاء الحاجة). بهتنا فعلاً. هل يعقل هذا؟ قضينا النهار كله بنفس الوضعية مقفول علينا وحين حل المساء أتوا بنفس الوجبة وفرقوا علينا ما تبقى عن الكلاب. في باحة المخبأ، تحت حراسة الكلاب ووطأة التعذيب توزع علينا هذه الأكلة السخيفة. تسلمنا تباسيل (صحون) معدنية فيه حساء الدشيشة ما تكاد تأكلها حتى يعم الصداً عليها. تذكرنا نصيحة على بويا ولد ميارة. تجنبنا إتمام الوجبة، لأنها أصبحت كلها سوداء. لحظات لا إنسانية، يستجمع فيها المختفون قسراً قواهم للسباق مع الصداة للحصول على الغذاء. وحين يحل الليل، يتفقد الحراس الأبواب هل هي محكمة الإغلاق ثم يضعون فوانيس بترولية بكل ركن من الساحة؛ إذ ليست هناك كهرباء. يعتقد المرء وهو يعيش هذه الأحداث أنها تمر في أحد سجون القرون الوسطى - نظراً لطبيعة المكان المخيفة - حيث، التخلف يسيطر وحيث لا قيمة للبشر بفعل فكر متحجر ومتعصب لا يؤمن إلا بقوة نفوذه. سلطة مبنية على البقاء للأقوى. لكن المؤسف في الأمر أن هذه الآلام القاهرة تتجسد في آخر عقد من القرن العشرين، بعد ما تشبعت الإنسانية بفلسفة الأنوار وبطفرة حقوقية عالمية وبتأسيس الأمم المتحدة وميثاقها وشرعيتها الدولية المختصة في كل ما يحقق حماية الإنسان من التعذيب والاقصاء وبمجلس حقوق الإنسان

وبتضمنين دساتير "الدول" الحق في الحياة وتحريم التعذيب بكل أوجهه ورد الاعتبار للإنسان؛ بغض النظر عن دينه وعرقه ولونه وانتمائه ووضعه الاجتماعي. أياما - تقريبا - قضيناها في هذه الوضعية الاستثنائية الخالية من أي حس إنساني إلى أن حان وقت عزلنا كمجموعات على العنابر الأخرى نظرا لضيق المكان على المجموعة. أمرونا بالخروج. انهالوا علينا بالعصي والركل والسب والشتم وقسمونا إلى مجموعات صغيرة حسب الفئات العمرية. كل مجموعة تحت الضرب يدخلونها في بيت ويغلقونه. شيئا فشيئا، أصبحنا نتعرف على الصحراويين الذين سبقونا وانسجمنا مع محيطنا. لم يعد يهمنا ضرب الحراس ولا اهاناتهم لنا. الضرر موجود من سوء معاملتهم كالجروح والرضوض لكن نحاول تحمل الألم حتى لا نصغر في عين الجلال. لا قيمة للإنسان هنا. لذا نعطي لأنفسنا قيمة حتى نتحمل.

أحيانا كثيرة، تتلقى المرأة الصحراوية الضرب المبرح بدون شفقة خاصة حين اكتشفوا أننا نحاول التواصل معهن للاطمئنان عليهن ومعرفة الحالة الصحية لفاطمة عالي برهمة (النعجة) التي تدهورت صحتها منذ الزج بنا بالمخبأ السري أكدز. من بين الصحراويات؛ أمهات لنا طاهرات كأنهن قديسات. كلهن وقار واحترام: السيدة المحترمة والورعة البتول بنت سيدي علي وابنتيها المامية وفاطمة. السيدة الفاضلة ميمونة منت عبد الله التقية وابنتها فاطمة الغالية الليلي المثقفة والمتواضعة. فاطمتو محمد عالي دهور ودماحة أعلي حميدات الجريثتان اللتان سجل لهما التاريخ مواقف شجاعة في التواصل والمخاطرة لمعرفة أحوال الآخرين. تغلة منت الليلي. فاطمة (النعجة) عالي برهما التي منذ قدومنا وهي مريضة تعاني. مباركة علينا بنت ميلد. عيشة بنت الشافعي. عانت المرأة الصحراوية كثيرا، من الوسخ وانعدام النظافة، حتى أخذ القمل يعشش في شعرهن إلى درجة أن

فاطمو محمد علي دهوار قصت شعرها لتتخلص من هذه الحشرة المزعجة. لكن رغم ما عشن من ذل وإهانة وانعدام ما تحتاجه المرأة استثناء عن الرجل من نظافة ووسائل تطهير بقين على العهد. كلهن لبؤات ثورة، ومناضلات وطن حق له أن يفخر بإناته.

مع توالي الأيام والليالي، تأكدنا أن التغذية تتكون من الآتي.

وجبة الفطور: قهوة سوداء بدون نكهة، وقطعة خبز حافي

وجبة الغذاء: تتكون من شعرية أو دشيشة، ونادرا مرق بخضروات اللفت أو اليقطين (لخشاش)، عليه آثار وقع أقدام أحذية الحرس

وجبة العشاء: هي نفسها وجبة الغذاء.

رافقتنا هذه التغذية خلال رحلتنا بمحطة أكرز؛ مما سبب في سوء تغذية خطيرة أصبحت تهدد سلامتنا الصحية نتيجة نقص اليود وفقر الدم الناجم عن نقص الحديد مما زاد من مخاطر التعرض للعدوى والإصابة بالأمراض المعدية؛ كالسل مع التعب وفقدان الوزن. وهكذا، ظهرت أعراض سوء التغذية على المعتقلين بالاكنتاب وصعوبة التنفس وجفاف الجلد وتساقط الشعر مع فقدان كلي للشهية. يحتاج جسم الإنسان إلى الطاقة التي يحصل عليها من الغذاء على شكل سعرات حرارية للتمكّن من البقاء على قيد الحياة والقيام بالعمليات الحيوية الضرورية إلى 2500 سعرة حرارية للرجل وإلى 2000 سعرة حرارية للمرأة خلال اليوم. سوء التغذية هذا نتج عنه رحيل عدد من الشهداء. مرة زكمت أنوفنا رائحة لحم. نظرنا إلى بعضنا وقلنا هل هي فعلا رائحة لحم؟ دخلوا باحة المخبأ يحملون مرجلا به العدس! شتان ما بين رائحة اللحم ورائحة العدس. لكن بالنسبة لمن ذاق الحرمان ومحنة سوء التغذية بكل تأكيد سيكون له نفس الإحساس من كثرة ما امتلأت حاسة شمه بالروائح الكريهة. أكلنا وجبة العدس وهي مملوءة بالحشرات،

اعتبرناها بروتينات حيوانية تربت وسط حبات العدس. دخلت وجبة العدس ضمن التغذية أياما حتى أصبحنا نعدّها على قلة عددها. الخضير محمد العياد أخذ حصته بعد أن جففها جعل منها بعد ثقبها بإبرة خياطة سوارا على معصمه ساخرا من هذا الواقع الأليم. شدة صرامة التعامل وقساوة الطبيعة مع سوء التغذية والحرمان من التهوية والتدفئة وغياب الشمس عن أجسامنا، ناهيك عن الضرب والعنف الجسدي الممارس بدون سبب وتناول الأكل في الأواني الصدئة؛ هي سمة معتقل أكدز الرهيب مما عجل بالموت السريع بين الضحايا. لقد شاهدنا كيف تختار الموت ضحاياها بلا رحمة.

كل شيء يبدأ بحلم. الأشياء الجميلة لا تدوم بقدر الشوق الذي تترك أثره فينا. صبرت حتى شكا الصبر من صبري. حتى الألم لم يعد يتحمل ألمي. في ليال مظلمة من الوحدة والصمت وأيام طويلة من الانكسار ليس للضحية ما يستضيء به سوى الأمل؛ فيصمد رغم التراكمات ويؤخر الانهيار في انتظار البحث عن أفق الخلاص. أناس؛ أجبروا على العيش قسرا في مخابئ سرية تحولت إلى مسالخ بشرية وفي قلوبهم الأمل يصارع من أجل البقاء. ضحية تجويع وحشي يلتهم كرامتهم كأنهم أشياء زائدة. الجوع ليس مجرد حالة بيولوجية تشعر الإنسان بالضعف، بل هو أداة قمع سياسي واجتماعي قادرة على تدمير الفكر الحر وتقييد إرادة الإنسان⁸². ما بين لحظة الاختفاء القسري ولحظة انتظار الفرج؛ عاش الضحية كل الانتهاكات الرمزية والعنف الجسدي حتى أضحى الأمل عنده كمن ينتظر ماء من السراب وهو ظمآن. لو أن المستقبل المهيم أقل قسوة مما يعيشونه. كل ليلة ينام الضحية على رهاب الجلاذ وكابوس الخوف من الغد المجهول. وكل مرة تغرب شمس ضحية إلى الأبد. أحيانا، من شدة صبري أصرخ في

أعماقي حتى ظنوا أنني لا أشعر. جميل أن يظن من يكرهك أنك لا تتألم فيزداد الألم لديه مضاعفا. أدور حول نفسي لأكتشف ما بها فارجع مشيا على الأشواك إلى نفسي مخفقا حافي القدمين. أحمل هما ثقيلًا في صدري يبحث عن حقيقة أمر ضائع بين رفوف المكاتب وزوايا الخزانات ودواليب الأرشيف يرفضون تسليط الضوء عليه. لقد تم ذبح الحقيقة بدم بارد من أجل طمسها. أبحث عن جواب عن معاناة عشتها رغما عني. هل للدمعة البريئة على خد المظلوم وقع على الجلاذ؟ من يمارس الشطط في استعمال السلطة، لا يستحق ممارسة السلطة. شتان بين من يريد السلطة لنفسه ومن يريد لها لغيره. ليست أبدا جريمة حين يعبر الإنسان بلسانه ويفكر بعقله. متى كانت الكلمة جريمة؟ متهمكما أضحك على حظي وتبعثر أفكاري وظني الساذج بحسن نية جلادي. لا يمكن توقع الحلول ممن يصنع المشاكل. العدالة تعني الإنصاف والمصالحة تعني الاعتراف وحفظ الذاكرة تعني الأخذ بمبدأ عدم التكرار. وإلا فإننا نعيد إنتاج الظلم من جديد من خلال عملية تدوير قذرة تتعطل فيها الانتظارات الخمس؛ للحقوق السياسية والمدنية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. كيف، تحافظ على كرامتك في زمن كل شيء يدفع لخيانتها والمسافة شاسعة بين تجربة إنسانية مؤلمة مهملّة بين الرفوف لا تنتظر حلا وكلمات محرفة تنتجها عبثية المشهد؟ كم يشتد الحنين إلى الأهل والوطن في هذه الظروف الصعبة. الحنين هو حين لا يستطيع الجسد أن يذهب حيث تذهب الروح⁸³. فتبقى أطلالنا تحكي شموخنا ونحمي وجودنا بشعور أحزاننا، حيث ندخل التاريخ من بابه الواسع دخولا أسطوريا؛ حينها نصبح نحن الأواخر نحن الأوائل.

يا حبيبي لم أتمن البكاء يوماً *** لكن هم الزمان أبكاني
أردت العيش كما تريد نفسي *** ولكن عاشت نفسي كما يريد زمانى⁸⁴

الشيخ الجليل إعيش بناصر حمدناه المزداد سنة 1908، الذي تم اختطافه سنة 1975 من بلدة الزاك. توفي رحمه الله، يوم 06 يوليو 1976، أياما قليلة بعد مجيئنا إلى جحيم أكدز. لم يتلق أية رعاية اجتماعية أو صحية ولا مصاحبة ترميضية مما يدل على أن خطتهم في إعدامنا حبكت قبل مجيئنا. لم يغمض لنا جفن تلك الليلة المشؤومة التي سمعنا فيها خبر وفاة الشهيد. كل منا استسلم لأفكاره الشاردة. كانت الصدمة أقوى منا. هل سنموت هنا، بهذه الطريقة المذلة؟ إكرام الميت دفنه، وهؤلاء يتركونه بيننا؛ لنعرف أن لنا نفس المصير. في الصباح حين أتوا لأخذه، كانوا يحملون العصي ويضربون بطريقة مرعبة كل من تجرأ أو تسول له نفسه الاحتجاج على سوء المعاملة. لكن لا أحد فعلا يجرأ وإلا سيلقى نفس المصير. يحملون الشهيد كمن يحملون كيس قش يضعونه في مستودع مخصص للأموات حتى يحسمون في دفنه. تعابير وجوههم تظهر فرحا وسعادة لقد بدأ التخلص منا. حينها يفتحون الزنازين للفقير مع تعسف وسب وشتم لإذلالنا. ذاك اليوم لم يأخذ أحد فطوره سكبناه في قارورات الوسخ.

شهاد آخر - يودعنا بعد شهر من الحزن على شهيدنا إعيش بناصر - إنه محمد سعيد السلامي، المزداد سنة 1928. اختطف سنة 1976، من بلدة الزاك. أسلم الروح إلى ربه يوم 28 غشت 1976. عانى كثيرا من المرض، دون أن يجد التفاتة رحمة من جلاديه.

يومان بعد رحيل محمد سعيد، يلتحق به شهيد آخر يوم 30 غشت 1976، وهو بيري (زموتي) ولد أمبارك ولد حسينة. ازداد سنة 1918، تم اختفاؤه شهر فبراير 1976 من منزله بالبيرات.

في 02 شتنبر 1976، شهيد رابع ارتقى الى الرفيق الأعلى، الديد الديه ولد المحجوب. ازداد سنة 1918، اعتقل سنة 1975 بمدينة الطنطان.

23 شتنبر 1976، سقط الشهيد محمد الشيخ البشير حمادي (السهبتي)، تحت تأثير المرض الذي لم يستطع مقاومته في غياب أي طبيب، أو رعاية صحية. معروف بمواقفه النضالية. كان قدوة لكل صحراوي يؤمن بقضيته. ازداد سنة 1948 بمنطقة تيرس، تم اختفاؤه قسرا سنة 1976 من مدينة الطنطان.

27 شتنبر 1976، حصدت رحي الموت، الشهيد إبراهيم ولد بوزيد ولد الحبيب. ازداد سنة 1918 بمنطقة تيرسال، اختطف سنة 1976 ببلدة الزاك.

04 أكتوبر 1976، رحل عنا الشهيد محمد مبارك ولد سيدي مولود، تاريخ ازدياده 1933 بمنطقة زمور الذي اعتقل سنة 1976 ببلدة الزاك.

08 أكتوبر 1976، استشهد تحت جبروت المرض، محمد لين ولد حم سيدي عبد الله، ازداد سنة 1938 بمنطقة لحمادة. اختفى سنة 1976 من بلدة الزاك.

15 أكتوبر 1976، انتقل إلى جوار ربه الشهيد، ويسى حمدي بوزيد الرباني، من مواليد 1953، اعتقل شهر فبراير 1976 بمدينة كليميم. شاب وسيم، قوي البنية في عينيه غضب، ورفض لما حوله من ظلم. مناضل جريء من الجالية الصحراوية بفرنسا. جاء لزيارة والدته وعائلته فتم اختطافه حتى وافته المنية في أكدز. بعد الإفراج عنا وإلى حد الساعة، والدته

لم تستوعب استشهاده في أكذن، ولا زالت تحتفظ بكل أغراضه رغم محاولة بعض الضحايا، إقناعها بالأمر الواقع. كان ملازماً للأب أعلي بويا، لا يفارقه قيد أنملة، كل منهما وجد ضالته في الآخر؛ حمدي بوزيد الرباني بحماسته وشجاعته، وأعلي بويا برباطة جأشه وتجربته وحكمته. كل منهما يتمم الآخر. قال فيه أعلي بويا عمر ميارة كلمة ستبقى خالدة إلى الأبد. " لو أطال الله عمر هذا الشاب، لكان له شأن عظيم بين جيله. إنه متميز بشجاعته وتحمله وصبره ووفائه " حين يخرجون إلى باحة المخبأ؛ كان هذا الشاب مع مولاي العظمي لا يبخلان عن تقديم المساعدة للشيوخ الذين، أنهكهم المرض والعياء. تتحسر على رؤيتهم وهم مستسلمون لقدرهم. رجال ليسوا ككل الرجال، بل أبطال شعب رسموا خارطة الكرامة كأسود في الأقفاس. حين تنظر إليهم تشاهد شهامة قل نظيرها وفي عيونهم عزة الشرف.

21 أكتوبر 1976، ودعنا الشهيد خطاري ولد محمد حبيدي، المزداد سنة 1940 بالداخلة. اعتقل سنة 1976 بمدينة الطنطان.

04 نوفمبر 1976، شرامها أحمد البشير بوجمعة، التحق بالشهداء السابقين. تاريخ ميلاده 1929 بالمحبس اعتقل سنة 1976 ببلدة الزاك.

10 نوفمبر 1976، سقطت تحت وطأة المرض الذي لا يرحم: الشابة الصحراوية البطلة فاطمة (النعجة) عالي برهمة. اختطفت سنة 1976 من مدينة الطنطان رفقة أخيها حمدي عالي برهمة وأمها " تكبر ". من مواليد 1956 بالساقية الحمراء كانت قوية إلى جانب أخواتها لكن خانها المرض والوهن واستسلمت لأمر ربها نجمة ترصع قافلة الشهداء. استشهد النعجة كان مؤثراً بعد مرحلة متقدمة من ألمها طلبت من رفيقاتها، أن تطلب من الحرس حقنة مسكنة للألم أو حبة دواء لكن الحارس واجههن بعنف "فقط إن ماتت أخبرونا". هذه الشهيدة في المخفر المركزي للأمن بأكادير؛ تم استدعاؤها ضمن مجموعات تم الإفراج عنها لكنها رفضت بحجة أن

أمها " تكبر " لم تكن ضمن لائحة المفرج عنهم. وفي لائحة لاحقة تم الإفراج عن والدتها والاحتفاظ بها كانتقام منها. لكنها كانت جد مرتاحة لأن أمها تخطت بكل سلام هذه المحنة. هذا الأمر حصل أيضا مع عبد الخالق خونا الذي تم الإفراج عنه وبعد أسبوعين من التمتع بالحرية تم إلقاء القبض عليه مرة أخرى والإفراج عن أخيه أعلي خونا بحجة وجود خطأ والتباس في الأسماء. ما هذه الارتجالية والتلاعب بعواطف المختفين؟ بين الأسئلة المقلقة والإجابات المعلقة يعيش الضحية حالة انتظار صعبة تتعمق فيها المعاناة أكثر ويسقط الجلد في عينيه إلى الحضيض. تنتعش فيه نخوة الشرف فينهل الجأش من ارتباطه بالأصل العميق الضارب في التاريخ وتشرئب طموحاته لمستقبل ممتد من الجرح الى الجرح في تحد لواقع أليم مسلط بين أسوار المخبأ السري، حيث يحتجز كل ما هو انساني وتنعدم الرحمة بأفطع الصور. الجدير بسلطة القمع هذه أن تنظر إلى العالم بمنظار أوسع بدل أن تنظر إليه من ثقب إبرة. سلطة لا تمتلك بكل أسف أية متسع من الوقت لمراجعة قساوتها تجاهنا ولو لحظة واحدة مما عقد من وضعيتنا.

20 يناير 1977، رحل أيضا علوات نجيب الطاهر ولد الحبيب ولد البلال بعد معاناة طويلة مع المرض لم يتلق فيها أي علاج ككل الشهداء الذين سبقوه. مرضه كان نتيجة ركلة على بطنه من جندي لم يحترم حتى الوقار الذي يتسم به علوات؛ الإنسان المرح والخلوق. تاريخ ازدياده 1916 بالساقية الحمراء. اعتقل من ورزازات يوم 29 فبراير 1976.

12 فبراير 1977، محمد ماء العينين سقط شهيدا، اعتقل سنة 1975 بعوينت ايتوسى

المومن ولد حمدناه، أسلم الروح لربها، يوم 18 أبريل 1977. تم اعتقاله بمدينة طاطا، وهو يبيع الفاخر للتزود لعائلته سنة 1976 تاركا ابنته التي لم تتجاوز اثني عشر سنة في السوق وحدها بعيدا عن أهلها.

تاريخ ازدياده 1926 بالساقية الحمراء. نتذكر جميعا نحن الصحراويين كيف كان هذا الرجل بالتواضع والبساطة وكيف كان يحكي بكل ألم عن ابنته التي تركها في مكان لا تعرف فيه أحدا. هل أكلتها الذئاب؟ هل قتلوها أم اعتقلوها؟ هل هي على قيد الحياة أم لا؟ دموع حزن وتأس على ابنته ما تنفك تنهمر على خديه. نحيف الجسم ومريض جدا. كنا قبل حادثة القلم نحاول مواساته والحديث إليه وتقديم ما بوسعنا من مساعدة للتخفيف عنه. هو فعلا استثنائي بوضعيته بيننا. حين اشتد به المرض يوما تم إخراجة إلى باحة المعتقل. ما إن لامست أشعة الشمس غطاءه وجسمه النحيف حتى دب القمل من الغطاء، ومن كثرتة تخيل لنا أن الغطاء يتحرك. إلى هذه الدرجة ذهب بهم العنف والسادية. تطوعنا وأخذنا نقتل القمل وننظف ثيابه. أظافرنا من كثرة القمل تسيل دما يتخثر عليها فنضطر لغسل أيادينا لنستمر أو يأتي آخرون لإتمام العملية. إنها الأخوة في اشد المحن. إنه التآخي الذي يجمعنا نحن أبناء الوطن الواحد. أبنائه بعد الإفراج عن المختفين الصحراويين سنة 1991 بلغ بهم اليأس والحزن مبلغه. حرموا من حنانه وعطفه في طفولتهم. لا يعرفون ولا يتذكرون أي شيء عن ملاحمه ولا هيئته ولا حتى لونه. حرموا من عناقه في طفولتهم وشبابهم. لم يروا له صورة تشفي جرحا غائرا من فرط الفراق. فهم اليوم متشوقون لمعرفة أبيهم الشهيد، ليطفئوا جمرة من جمار الشوق والحنان إليه. هذا الشوق والحنان اللذان سيبقيان إلى الأبد يرافقهم بسبب استحالة تلبية أمنيتهن. رحم الله كل الشهداء وكان العون في عائلات حرمت إلى الأبد من لقاء أوليائها. مشاهدة هذا الشهيد تبعث على الغضب والاشمئزاز بسبب حالة الإفلاس القيمي والأخلاقي التي يتصرف بها الجلاذ. هذه النماذج البشرية تعاني سيكولوجيا من فائض العنف الذي تربت فيه وأثرت على سلوكها. كل يوم يقدمون لنا استعراضا هستيريا ينتفي معه الرجوع إلى

العقل وآداب السلوك. لا يملون من ممارسة العنف والإرهاب علينا. ننتظر متى تكون التفاتة استعطاف منهم. فقدت قلوبهم كل رحمة واستبدلوها بالحجر. لماذا هذه العدوانية الزائدة؟ تأثر لوضعه عبد الرحمان خوجة فانشد شعرا يرثي حالة هذا الإنسان البريء والبسيط، الذي تسلطت عليه أياد الغدر. عنوان القصيدة " مومن المظلوم "⁸⁵

07 ماي 1977، لم يستطع البلال ولد لحبيب ولد البلال صبرا، فودعنا بكل كبرياء إلى الرفيق الأعلى. ازداد بالساقية الحمراء سنة 1916. اعتقل سنة 1976 من بلدة الزاك. رجل أنيق في مظهره هادئ في طبعه. يفرض عليك الاحترام مهما كانت جرأتك. يبتسم قليلا حين تكون للابتسامة معنى ودود وطيب. وأنت تتأمل في تاريخ هذا الرجل تجد العبر ويعتريك الشك والوجع من مقارنة أمنية تتسم بالقهر لا تحترم حتى في الرجال أبسط القيم. بصمت وبإعجاب كنت أنظر إليه وأقرأ فيه تاريخا لوثة الغدر. لا يمكن التأقلم مع هذه الوضعية مهما فعلت لتجاوزها أو تجاهلتها. هناك أمر مروع دائما يذكر بك أنك هنا ليس لتعيش بل لتموت. إنها ثنائية الحياة والموت. فنحن أصلا خلقنا لنموت ولأننا نموت من أجل قضية فنعم الموت!

يوم 19 ماي 1977، انطفأت شمعة الحياة، عند الضميري عياد ولد أعلي. تاريخ ازدياده 1926 بالساقية الحمراء. اعتقل يوم 26 فبراير 1976 بمدينة الطنطان. كان يعمل كإسعافي بمدينة الطنطان تابع للمستشفى الإقليمي. قدم كثيرا من المساعدة والإحسان لأهل البادية. بحيث كان ينقل أمتعتهم ومرضاهم من وإلى حيث يسكنون. تعاطفه وتضامنه مع الصحراويين بالبادية خلق عند السلطات شكوكا. تم اعتقاله بحجة أنه ينقل المئونة إلى صفوف قوات جيش التحرير الشعبي المرابط على الجبهة

73 - انظر ديوان: ليال بلا قمر. مذكرات عائد من معتقلات درب مولاي الشريف. أكرز وقلعة مكونة. للكاتب

والشاعر: عبد الرحمان خوجة. ص. 90

الشرقية بنواحي لمسيد وليبرات. قضى مدة طويلة وهو طريح الفراش. وكغيره من الشهداء لم يتلق أي علاج ولا رعاية اجتماعية. لم يعد يستطيع التحرك، فقط إخوانه من المختفين قسرا من يمدون له يد العون. حوضه تآكل لحمه وبدأ العظم يظهر. يتألم كثيرا لكنه كثير الحمد والشكر لله. ممنون بمعاملة إخوانه له. يدعو لهم بالدعاء الصالح ويعتذر منهم أحيانا. حين وافاه الأجل رحمه الله والشهداء جميعا، عم على وجهه نور ملائكي جعل من حوله ينظرون إليه بكل تأمل لما أضفى الله عليه من ملكوته. لحيته كأنها سنابل ذهبية عليه صفات الشهداء. لم يطق المختفون فراقه وظل لمدة طويلة حديث الجميع. كيف لقلوب هؤلاء الجلادين المتحجرة ألا تنفطر أمام هذه المشاهد الرهيبة؟

10 يونيو 1977، أسلم الشهيد بوبة محمد ولد عبد الرحمان ولد الكوري، روحه للعلي القدير. اعتقل سنة 1976 بمدينة الطنطان. رجل حكيم يبدو انه تلقى تربية فقهية وأدبية رفيعة. قليل الكلام، لكن مداخلته في العادات والتقاليد وحكاية الغزوات والشعر وتلاوة القرآن تؤكد بما لا يدع الشك بأنه من طينة الصحراويين ذي الأخلاق الحميدة. تحدثت إليه أحيانا في مخفر الشرطة بأكادير. انه موسوعة علمية وفكرية شاملة.

16 يونيو 1977، الأم البتول سيدي أعلي؛ الطيبة الورعة رحلت عنا. ترك رحيلها في أنفسنا حزنا عميقا، خاصة أنها تركت زوجها السالك ولد عبد الصمد وابنتيها فاطمة والمامية أصغر فتاة في المعتقل. ازدادت المرحومة سنة 1931 بالساقية الحمراء. اعتقلت البتول مع عائلتها من نواحي مدينة طرفاية يوم 23 مارس 1976. (يصادف هذا التاريخ، ليلة اعتقاله بالطنطان). في مركز الاختفاء السري باكدز هناك عائلات بأكملها زج بها في هذه المخابئ السرية قصد الإبادة. مرض البتول ووفاتها كان عبرة. كانت تمهد الطريق لبناتها حتى لا يتفاجئُ باستشهادها. ظهر

التأثر على ابنتيها فاطمة والمامية. قالت لهن لا تحزنا إنكن بين أيادي آمنة وأنتن بين أخواتكن وأخوانكن بعد وفاتي. فاطمة منت السالك وهي تأخذ وجبة الغذاء سقط الصحن من يدها لم تكن لها رغبة لا في الأكل ولا في الشرب. أرغمها الحارس على تنظيف المكان ولأن وجبة الغذاء سقطت على الأرض لم تستطع جمعها؛ وتلقت ضرباً مبرحاً ورموها بين الصحراويات المختفيات قسراً فاقدة الوعي. تأملت كثيراً نساء وطني؛ لكنهن نساء ونصف. لم يذعن أبداً للذل ولا للهوان. صامدات كمنارة مشرقة من الضوء والإلهام.

دارت رحى الموت بغير رحمة في فضاء المخبأ. ربما ستحصد المزيد من الضحايا، بفعل سوء التغذية وسوء المعاملة والإهمال وانعدام التطبيب؛ بعيداً عن أية حماية قانونية. كثير من الضحايا، تغيرت ملامحهم وبدأت أجسامهم نحيفة وأعينهم غائرة كالأشباح. عانى ضحايا الاختفاء القسري من مختلف الأمراض التي ذهب ضحيتها العديد منهم. كثيراً من المختفين الصحراويين أصيبوا بمرض غريب ناتج عن سوء التغذية. أعراض هذا المرض تمثلت في إصابة الأشخاص بحالة من تغيير لون الجسم إلى سواد وتخثر الدم في الأطراف السفلية، فتتجبر على مستوى الساق ويستمر في الانتشار إلى ما فوق الفخذ مصحوباً بحمى شديدة وجفاف في الجسم وحالة غثيان وتقيء مع إسهال شديد على أثره يتوفى المصاب. لم تعد للإنسانية قيمة. في لحظة من حياة المخبأ السري أكرز، أصبح الضحايا الذين باستطاعتهم التحرك والمشي يعدون على رؤوس الأصابع. من بين المحاولات التي يتم القيام بها للنجاة من هذا المرض الناتج عن المجاعة التي فرضت علينا؛ هو العمل على جرح الساق أو القدم من أجل إخراج الدم الملوث وهي طريقة تقليدية للتداوي. كثير من المرضى في لحظة احتضاره يرغب في شرب جرعة ماء محلاة بالسكر. نبقى عاجزين عن تلبية رغبته،

حتى إن تجرباً أحدنا ودق الباب الموصد علينا طلباً للحرس يتلقى حصة ضرب مبرح. لا يسمح لنا بمناداة الحرس إلا بعد أن يسلم المريض روحه للعلي القدير ليتم إخراجه ورميه في المكان مخصص للأموات سلفاً. عاش الصحراويون المختفون قسراً من العذاب النفسي والجسدي ألواناً، وتجرعوا طعم الموت بأقبح الصور، فازدادت ظروف اختفائهم قسوة وعذاباً. كل يوم يصبح هذا المكان أكثر ظلمة وقنوطاً. كل منافذ الأمل انسدت أمامنا وكأننا نتدحرج بقوة من منحدر نحو الأسفل. آلام تركت آثاراً لن نتمح أبداً مهما طال الزمن. الاختفاء القسري يبقى جرحاً مفتوحاً ينزف في ذاكرة كل ضحية وفي الذاكرة الجماعية. في الاختفاء القسري هناك قاعد استثنائية فريدة إما النجاة أو الموت. حين يصبح المسؤول بلا ضمير يؤنبه والقاضي بلا ذمة تردعه؛ يتجلى الظلم طبيعياً. الاختفاء القسري عكس فشل منظومة تخلت عن التزاماتها الحقوقية والقانونية، وبالتالي تخلت عن القيم الدينية والأخلاقية. كمن يقول شيئاً ويعني غيره. الحق الذي لا يستند إلى قوة قانونية تحميه يفشل في مساعيه رغم صحة مبادئه مما يجعل الدولة تتخبط في وجودها كضامنة للحقوق. السلطة تمارس حيث لا ترى⁸⁶. ولأن القهر يقتل الوطن على الدولة فتح مساحة اعتراف تضمد بها جراح الماضي وتحطم أصفاد التخلف. الألم ليس له نهاية في الاختفاء القسري. لنمت بسرعة إذن. تركونا تحت رحمة. سياط الإهمال، كي يتفرغوا لضحايا آخرين يمارسون عليهم ساديتهم. انطلقت إذن قافلة الشهداء. حسبي الله ونعم الوكيل. لا يمكن تصور عمق الحزن والذعر الذي أحاط بنا. كل منا أصبح ينتظر دوره بحيث، لا يعقل أن يستشهد هؤلاء ونبقى نحن على قيد الحياة. مناظر رحيل الشهداء هذه تحرك من في ضميره ذرة رحمة، أما من ماتت قلوبهم من الجلادين فلا يكثرثون. لهم قلوب ميتة واحاسيس

منعدمة وإنسانية مفقودة. انهم شياطين ووحوش في صورة بشر يستمتعون وهم يشاهدون الضحية يطحن تحت آلة التعذيب والقهر. مرحلة الاحتجاز القسري بأكدز كانت أصعب مرحلة تتميز بالارتجال والمباغنة، حيث تحول الصراع من صراع مع الجلاد إلى صراع مع الموت، لهذا رفعنا شعار التحدي لضمان سلامة ولو شاهد واحد يحكي للتاريخ حقيقة ما جرى بين هاته الجدران التي ابتلعت بكل وحشية الجحيم حريتنا. فظاعة التعذيب وقساوة المخبأ فتحت شهية الموت التي أخذت الأرواح بأبشع الصور رحمة بها من عذاب السجن تاركة الآخرين يعيشون ألما مضاعفا في انتظار دورهم في الموت. الموت حق، لكن أن تموت بالسجن بعيدا عن الأرض وعن الأهل في مكان لم تختره تعني أن الموت قد تضاعف موتتين. عملية إعدام ممنهجة أخضعنا لها لقتل كل ما هو إنساني فينا. هذه الإبادة الممنهجة تعبر عن سادية هذا الجلاد الذي ماتت فيه آدميته. تنبني سيكولوجية الجلاد عادة على كيفية تربيته والمحيط الذي نشأ فيه و"الإنسان ابن بيئته". لهذا فهو يصرف حرمانه ومكبواته على ضحايا لا حول لهم ولا قوة، حيث يجد شخصيته المهزومة أصلا. مع مرور الأيام يزداد الوضع سوءا وتتدهور الأحوال الصحية لنزلاء المخبأ السري أكذ. لا يلوح في الأفق مؤشر على تغيير وضعيتنا. هكذا أرادوا لنا وهم سائرون في تنفيذ خطتهم الجهنمية. مع تفاقم الوضع الصحي للمختفين أصبحت الحاجة ملحة للبحث عن بديل طبي في ظل انعدام الحماية الطبية. لهذا تفضل بعض المختفين بكل جرأة وشجاعة في محاولة لخلق طب تقليدي بديل على غرار الأجداد القدامى. من بين هؤلاء الرجال: سليمة ولد لمحييفظ، بلال ولد أميليد ومحمد العياد. سليمة ولد لمحييفظ أشرف على علاج سيدي جدود ولد الخليفة الذي كان يعاني من ورم في المثانة حتى أصبح الورم يعرقل مشيته. أجرى له عملية جراحية. استأصل الورم وملأ الجرح

بمسحوق الأسبرين - الذي حصلنا عليه بفضل حارس متعاطف، ألمه ما شاهد من ظلم في حقنا - ولف عليها ضمادة من قماش وأخذ يراقب تطورها. بعد عدة أسابيع اختفى الورم وشوفي سيدي أجدود من مرضه. كما عالج الخضر ولد محمد العياد من جرح متعفن مستعملا قطعة من قماش نظيفة طهر بها الجرح مستعملا الزيت والماء الدافئ مع قليل من الشاي الأخضر- حصل عليه كذلك بفضل نفس الحارس - وحوله إلى مسحوق ملأ به الجرح وأحكمه بقطعة القماش وتمائل للشفاء وألتأم نهائيا. كما أشرف أيضا على علاج الساهل عبلا الذي يشكو من الروماتيزم بكيه بالنار واستعمال إبرة حامية اخترق بها لحمه في الساق ممرا خيطا من الصوف يحركه جيئة وزهابا كل يوم حتى شوفي. محمد العياد أشرف هو الآخر على علاج أحمد ناجي الذي كان يعاني من أعراض بوصفير أو ما يعرف بالريقان، وذلك من خلال كيه بالنار على مفاصله العليا والسفلى، فارضا عليه حمية تتكون من الخبز اليابس مع قليل من الزيت حتى تحسنت أوضاعه الصحية. كما أن بلال ولد اميليد هو الآخر أبدع في طريقة الكي وعلاج ألم الرأس. كان يسهر على تتبع أحوال مرضاه. لا يتردد في القيام بأي عملية يراها مناسبة للمريض. أعلي ولد المصطفى أيضا كان طبيب أسنان، يستأصل الأضراس والأسنان بكل تقنية. استفدت من طبه مرة عندما سهرت الليالي من ألم الضرس ومن كثرة الألم قررت أن أطلب منه اقتلاعه، وفعلنا فعل بالرغم من انعدام المخدر. وهكذا استطعنا أن نستغني عن شيء في الواقع هو غير متوفر ألا هو التطبيب.

كنا في زنزانة رقم 7، مجموعة من الشباب المغضوب عليهم. ترى سلطة المخبأ فينا القوة الضاربة التي يجب السيطرة عليها لترويض باقي المختفين الصحراويين قسرا. يحظيه ألبين الديمانى - الخليل علي الكوري أماي - محمد عالي محمد الحيسن - صالح التاقي عمر الداودي - المحجوب

بوخير- سلامة عمر بهان - محمد المحجوب لمديميغ - حم البلال البطل- سيدمو بابوزيد - محمد عالي البربوشي - الشيخ عمر صفر- إبراهيم بنجامع - الصغير المغراوي - عبد الرحمان خواجه - الساهل محمد عبلا - محمد لحبيب المجاهيد. كلما اقتربت الشمس من كبد السماء يشتد الحر ويضيق التنفس من قلة الأوكسجين نظرا لانعدام التهوية. حين أراد أحدنا التبول لأول مرة كانت الصدمة حين لاحظنا أن الزنزانة لا تحتوي على مرحاض. لم نفكر في الأمر إلا حين أملتها الحاجة. ما العمل؟ تحدثنا عن هذا الأمر ولأن البديل منعدم اتفقنا على التبول عند الباب. بفعل الطقس الحار أضحت الرائحة تملأ المكان. في فترة الغداء حين فتحوا الباب علينا لاحظ الحرس أن البول يسيل من تحت الباب. تراجعوا إلى الوراء وأيديهم على أنوفهم وأمرونا بالخروج فانهالوا علينا بالضرب والركل ومنعونا من وجبة الغداء ذاك اليوم كعقاب لنا. الزنزانة ضيقة جدا، بيت مستطيل، خمسة أمتار على ثلاثة سقفها من الخشب والقصب كسائر البيوت العتيقة. بفعل هجرها أصبح السقف مرتعا للحشرات حتى السامة منها كالعقارب. ونظرا لعددها نشعر بضيق المكان وبالحارة تزداد. نتعرق كثيرا بالرغم أننا لا نلتحف سوى سقف البيت. ونحن نغط في نوم عميق عاربي الصدور بسبب الحرارة المفرطة والعرق المتصبب، تفتح شهية الحشرات الجائعة والعطشانة. تمر السحالي من فوق صدورنا باردة الأرجل فننهض مذعورين. كم مرة سببت لنا هذه الحشرات من لدغات وتعنيف من الحرس بسبب ما تخلقه من فوضى بيننا. مرة استيقظ يحظيه ولد ألبين على فأر كبير يأكل من مؤخرة قدمه والسهل محمد باغت أخرى تستعد لأكل شفتيه.

عندما يشعر المرء بالظلم أول مرة في حياته وأن العدالة منعدمة وأن الحقوق منتهكة يجد نفسه مهانا في أدميته ومحروما من حريته. لكنها

سمات الاختفاء القسري الذي لا يرحم. انعدام رقابة أخلاقية أو حماية قانونية جعلت الجلاد يمارس عدوانيته وينفس عن مكبوتاته بكل عنف. تمر الأيام ببطء بلا جديد؛ الضرب نتلقاه يوميا نحن أصحاب الزنزانة رقم 7 بدون سبب فقط لترهيبنا وترهيب الآخرين. ينهكونا بالتعذيب. تأثر كثيرا إخواننا مما نتلقاه من ظلم. وقد نوه الكثير منهم بصبرنا وعزمنا رغم جبروت الجلاد. أعلي بويا والولي ولد ببيت ومحمد أمبارك الموحد وشغالي ولد مكية وآخرون شجعوا فينا الهمة. هذا الجلاد لا تنتهي شهيته من تعذيبنا. أحيانا يخرجون فردا أو فردين من زنزانتنا لكس الساحة. هي فرصة لا تعوض للاتصال بالمعتقلين الآخرين وفرصة للحصول ولو على القليل من الأخبار والمعلومات وأيضا اكتشاف محيط السجن. ذاك اليوم كلفوا الساهل محمد عبلا بكس مستودع الملابس. وهو في مهمته لاحظ وجود قلم مدادي في حقيبة. قلم في هذه الظروف ربما يكون مفيدا لتدوين ما نعانیه أو لتبادل الرسائل بين الزنازين. أخرجه من الحقيبة ووضعها تحتها. لكن مع الأسف كل هذا تحت أنظار الحارس الذي ترك الفرصة للساهل دون أن ينتبه له. حين انتهى تحدث إلى سيدمو عن القلم؛ وسيدمو هذا شاب جريء وغير مبالي بالعواقب. في فترة الاستراحة اتفق هو والساهل مع محمد فاضل الليلى من داخل زنزانتة على مراقبة الحارس وأن يتسلل الساهل محمد إلى المستودع. أخذ القلم وأخذ أيضا علبة سردين وسيجارتين. كانت عملية بالنسبة لنا بطولية لكن ما فتى أن أتى الحرس مدججا بالهراوات فاخرجوا الساهل محمد من الزنزانة وانهالوا عليه بالضرب المبرح ثم استدعوا سيدمو الذي أخذ حصاة الأسد من الضرب المبرح لانتزاع اعترافات منه، لكنه صمد بكل شجاعة ونكر أن القلم عنده. سميت هذه الحادثة بـ " واقعة القلم " بحيث بسببها اتخذت إجراءات فورية في حقنا. منعنا من الاستفادة من الخروج لساحة المخبأ بحكم سجن

جماعي في زنزانتنا لمدة تقارب أربعة أشهر من يوم 08 مارس 1977 إلى 07 يوليو 1977. نتعرض خلالها كل يوم للتعذيب والضرب. كل مجموعة لها حصتها في الضرب على طريقة (عشرة) التي تعني زج عشرة ضحايا يتم اختيارهم من بيننا في ساحة السقيفة بين أفراد من القوات المساعدة لينهالوا علينا بطريقة جنونية وهستيرية بالضرب بالعصي غير أبهين أين ستقع الضربة. كثيرا ما خلفت رضوضا ونزيف دم. كانت مرحلة عصبية، لأن فصل الصيف في أشده وأيضا الضغط النفسي الذي مورس علينا. انهارت أجسادنا بالوهن والجوع وسوء المعاملة، لكن معنوياتنا بقيت مرتفعة بحيث لا يجرأ أحد منا أن يصرخ أو يبدي خوفه أمام إخوانه حتى لا يكون موضوع سخرية. ضربنا وأصبنا برضوض في معاصمنا وأرجلنا وأدمت رؤوسنا لكنها لم تنحني. جعلنا حياتنا في التضامن الجماعي أنجع وسيلة لتحدي الواقع الأليم. الكل يضحي من أجل الكل.

غياب الماء والنظافة جعل من أجسادنا مرتعا للقمل، حيث خيم بشعر الرأس وتحت إبط الأقمصة. تقريبا ثلاثة أشهر بمخفر الشرطة بأكادير، ولأن ما يزيد على سنتين ونحن لم نستحم ولم ننظف ملابسنا هي نفسها على أجسامنا مرقعة ومقطعة. في كل يوم ننكب على اصطياذ القمل. نحصي كم قتلنا ونقدر حجم الضرر الذي ارتوت به هذه الحشرات من دمنا. نضعها بين الأظافر ونضغط عليها لتنفجر دما. يتطاير الدم على وجوهنا، يصيب العين الدم المتطاير فتدمع وتحمر من حرارته كالفلفل. يقع ارتياح شديد حين يتم قتل الكثير منها. لكن ما تفتأ تتجدد في ملابسنا من جديد ونعيد الكرة تلو الأخرى بدون كلل ولا ملل. أصبحت عملية قتل القمل روتينية بيننا. بعد مرور سنتان بدون تبديل ملابس وبدون استحمام؛ أتى اليوم الذي دخل فيه الحرس بملابس مستعملة وزعوها علينا. هناك من لم يحالفه الحظ: إما أن الملابس صغيرة ليست على مقاصه أو أنها كبيرة عليه،

لكن على كل حال هي نقلة نوعية في حياتنا بالمخبا. عبد الرحمان خواجه مهددا القمل أنشد مقطوعة شعرية رائعة تصف معاناتنا مع هذه الحشرة التي تمتص يوميا دماءنا تحت عنوان "نذير في السعير"⁸⁷. للخروج من الدائرة المفرغة وتجاوز الأمر الواقع ونحن لا ندري كم سنقضي في هذه العزلة القاهرة. قررنا إبداع شيء مهما كانت قيمته ملأ الفراغ القاتل. نظمنا يومنا كالتالي: مع الصباح بعد الفطور ندخل في نقاش حول موضوع عام لمدة ساعة يسيره أحدنا. نتبادل الأفكار فيه كل حسب وجهة نظره. بعده يأتي برنامج ثقافي يتعلق عادة بمحاورة شعرية نقسم إلى قسمين أيضا لمدة ساعة يليه برنامج (زين لخلاك) برنامج فكاهي يشرف عليه المحبوب بوخير، يكلف كل يوم أحدنا لسرد وليمة حضرها سابقا أو أي وليمة ولو من نسيج خياله. هناك من هو بارع في السرد يجعلنا نعيش متعة المشوي والفواكه المختلفة والحليب والأعاصير. يصف الموائد كيف هي وما صاحبها من ترتيب وتزيين للقاعة (الصالون) ويصف الحسان اللاتي يشرفن على تحضير الشاي وتوزيع الحلوى بلباسهن التقليدي؛ ملحفة النيلة والايزار الابيض. نغرق في خيالنا ونعيش متعة افتراضية من أكل ما لذ وطاب. نستفيق من حلمنا فقط حين يفتح الحراس الباب ويرمون لنا بإناء فيه مرق من قطعة من اليقطين (لخشاش) أو أحيانا من دشيشة. نتسابق في الأكل ضد الصدا. في المساء سهرة الشريط السينمائي، حيث يبرع الحاكي في وصف اللقطات واللحظات الحاسمة سواء كان فيلما هنديا أو عربيا أو فيلم عن الغرب الأمريكي (رعاة البقر). نقضي أوقاتا ممتعة لا يبخل فيها الحكواتي من الوصف الرائع وعنصر التشويق لإرضائنا. صمنا رمضان إيماننا واحتسابا لوجه الله في هذه الأوضاع البشعة. بمناسبة عيد الفطر فتحوا باب الزنزانة؛ سمحوا لنا بالخروج لمدة خمسة عشر دقيقة لجس

87 - انظر كتاب "ليال بلا قمر" لمؤلفه الدكتور عبد الرحمان خواجه

نبضنا. هل تم ترويضنا أم لا؟ إخواننا في الزنازين فرحوا للإفراج عنا رغم حياة مركز الاختفاء القسري بكل سوءها وبشاعتها. بعد العيد رجعنا لوضعيتنا السابقة. قوافل الشهداء مستمرة ورحى الموت لا ترحم والضمير الحي/ الغائب عند الجلاء والسجان بلا تأنيب. أن تنزع من الناس آدميتهم وتعاملهم بقساوة لهو أفظع انتهاك على الحق في الحياة. صباح 07 يوليوز 1977، فتح باب زنازنتنا على مصراعيه؛ أخذنا القهوة قال لنا الحارس سيتم جمعكم مع إخوانكم مهذا بأسوأ ما عشناه إن نحن حاولنا مرة أخرى استفزازهم. كان يوما استثنائيا. ننقل بين الزنازين ونتعرف على إخوان لنا بالرغم من تواجدنا في نفس المخبأ. كلهم طيبون وفرحون بجمع شملنا معهم. يسألون عن أبسط الأمور من باب الاهتمام والتقرب إليك. ما أطيّب الصحراوي! حتى المرضى يحاولون ستر آلامهم حتى لا يفسدون فرحتنا باللقاء. الكل متفائل ومتحد رغم الواقع المر. أصبحنا نتمتع بفترة استراحة في الباحة. نستلقي تحت أشعة الشمس نستمد القوة من دفئها. نتبادل المعلومات بيننا ونحدث عن مصيرنا.

بفضل خريجين جامعيين في شتى الاختصاصات معنا؛ والذين شكلوا نخبة فذة، جعلنا من فضاء مركز الاختفاء القسري فضاء للمعرفة وتبادل الأفكار الثورية والتنويرية. وهكذا تم تنظيم حلقات حول الحركات التحررية في العالم؛ من قبيل الثورة الفرنسية على الإقطاعية والعبودية التي شكلت مرحلة تأسيس للديمقراطية وحقوق الإنسان سنة 1789 تبلور عنها ميثاق حقوق الإنسان والمواطن. الثورة الأمريكية وإعلان الاستقلال سنة 1776. الثورة البلشفية على الإمبراطورية القيصرية سنة 1917. حركة جبهة التحرير الوطني الجزائرية ومليون ونصف مليون شهيد لطرد المستعمر الفرنسي. حركة المؤتمر الوطني الإفريقي وفرض الفصل العنصري سنة 1950 بجنوب إفريقيا وأيقونة نضال العالمي نلسون

مانديلا. الحركة الشعبية لتحرير انغولا التي خاضت حرب التحرير ضد الاستعمار البرتغالي منذ 1961. جبهة تحرير موزنبيق 1962. الجيش الشعبي لتحرير ناميبيا؛ الجناح العسكري للمنظمة الشعبية جنوب غرب إفريقيا (سوابو). ثورة الحركة الوطنية الكونغولية بقيادة المناضل باتريس لمومبا الذي بمساعدة مرتزقة بلجيكيين تعرض للتعذيب والإعدام على يد سلطات كاتنغا الانفصالية بقيادة مويس تشومبي سنة 1961. الثورة الكوبية بقيادة فيديل كاسترو صحبة رفيقه تشي غيفارا في 1959 ضد الديكتاتورية العسكرية. حركة الاستقلال الهندية بزعامة المهاتما غاندي وسياسة اللاعنف ضد التواجد البريطاني والمطالبة السلمية باستقلال الهند. حرب فيتنام والمعروفة أيضا بحرب الهند و- صينية سنة 1955 ضد أمريكا بقيادة هوشي منه. الصراع بين الشرق والغرب والحرب الباردة الدائرة بين المعسكرين (الشرقي والغربي). أصبحت كل زنزانة عبارة عن ورش معرفي لنشر قيم الثورة وقيم الصحراء. تلقينا دروسا في الشعر الحساني والغزوات التي كان يقوم بها الصحراويون ضد تواجد الأجنبي لأرضهم. نقاش ألهمنا حماسة. نسينا مكان تواجدنا ونسينا الألم المحيط بنا. وبنفس الحماسة تبادرت فكرة، وتم نقاشها بين الجميع وخاصة المهتمين. فكرة تبلورت فيما بعد ونضجت وأعطت أكلها. لكي نقاوم لا بد من القيام بمبادرة تجعلنا نعيش رغم القهر وسوء التغذية والمعاملة. فكرة التعليم وتبادل المعرفة بيننا كانت جد صائبة للأسباب التالية:

- محاولة تجاوز هذا الواقع الصعب،

- جعل المختفون يفكرون فيما هو أجدى بدل انتظار دورهم في الموت

- رفع التحدي لخلق نوع من التضامن لهزم الإحباط القاتل.

تم تشكيل لجنة لهذا الهدف مع مراعاة المستويات لكل مجموعة ليتم تقسيم الحصص الدراسية وتعيين المدرسين. مع الأخذ بعين الاعتبار

الأوضاع الصحية المتدهورة للمختفين. الكل مريض وكيف يمكن أن نجعل منه إنسانا ملتزما لتلقي حصص دراسية. لكن المفاجأة كانت عظيمة حين استحسن الجميع هذه المبادرة التي أضحت مشتتة لإنتاج معرفي بفضلته تغيرت العقلية وتطور الحس الجماعي والتضامني عند المجموعة. ما كدنا نتذوق نشوة هذه المبادرة حتى تم نعي:

الشهيد سهيلي أعبيد ولد محمد، ليلة 22 يوليو 1977. ازداد سنة 1946 بالساقية الحمراء. كان مريضا بحيث أصبح جسده نحيفا بالرغم أنه كان له بسطة في الجسم. أعتقل 18 يناير 1976 بمدينة كليميم. كان في إجازة من عمله بفرنسا لعيادة عائلته.

قررنا تأجيل الزمن الدراسي إلى حين تهدأ النفوس بعد حزننا على الشهيد. بعد ثلاثة أيام، شرعت اللجنة في إعداد الأقسام والمستويات. انطلقت العملية بطريقة رائعة ومبدعة، بحيث صنعنا الأقلام من الصابون (صابون المنجل) والألواح من أثواب سوداء أو بنية لكي يظهر عليها الخط. أصبح كل صحراوي في مركز الاختفاء القسري يحمل لوحة وقلمًا، بعدما كان الجلال يريدنا أن نحمل كفنًا. سما فكرنا في عالم المعرفة بدل التفكير في الموت. من رحم الأوجاع هذه كان الإنسان الصحراوي في غياهب الاختفاء القسري أكثر نبلا من جلاده حين تجاوز واقعه المر. فصدق عليه القول الشاعر

ونغني للموت بل ونراها *** في سبيل الحياة هي الحياة

إن صنع التاريخ أهم من الاكتفاء بقراءته. وحقا سيشهد التاريخ أن ضحايا الاختفاء القسري استطاعوا هزم الاختفاء وهزم الجلال بصناعة تاريخ نوعي تلخص في النهوض بقيم التضامن والتسامح، والارتقاء بفكر المختفين في سماء التعلم والمعرفة. الكل انخرط في هذه العملية. فكانت فرصة لتفتق المواهب؛ فظهر فجأة الشاعر والقاص والمسرحي. نسينا

الاختفاء وظروف العيش وتغذت أرواحنا وعقولنا بما هو أهم. ابداعات في المسرح: مسرحية " لعياط ال ج من راس الكدية لهروب منين؟ من تأليف الأخ الأستاذ محمد لحبيب خليلي. قام بتشخيص الادوار الرئيسية محمد عالي محمد الحيسن ومحمد الساهل. كان الدور يحتم علي حلاقة رأسي على طريقة الصبيان في البادية (عرف الديك) بعدما عثرنا على شفرة حلاقة قديمة. خلال مجريات المسرحية باغتتنا الحراس، فقمتم بتغطية رأسي بلثام أحد الشيوخ. مرت العملية بسلام واستأنفنا أطوار المسرحية بكل تحد. كان المسرح هو بيت مجموعة أعلي بويا عمر ميارة. محمد لحبيب خليلي رجل توازنات، مثقف من رعييل الثورة الأوائل يسعى أن يجعل من المخبأ السري مكانا لتضامن وتآزر المختلفين. موجهها ومشجعا في بلورة التعليم وحاضرا في كل ما يتعلق بحياة المخبأ وعلاقات المعتقلين فيما بينهم. يحظى باحترام وإجماع الجميع عليه، بفضل انخراطه في كل هموم المجموعة. كرجل قانون تعلمنا منه المبادئ الاولى للقانون وتقسيماته من قانون عام الى قانون خاص وبعض تفسيرات القانون المدني والمسطرة المدنية والقانون الجنائي والمسطرة الجنائية. بفضل الأستاذ متالي أحمدو تعمق المستفيدون في مادة اللغة العربية (النحو والصرف) كان أحمدو متالي متميزا في كل شيء جميل. كان حافظا للقرآن الكريم وله دراية كبيرة بالفقه والشريعة الإسلامية وكان يحفظ أغاني أم كلثوم وكل أغاني ناس الغيوان. ثوري وتحرري في أفكاره حتى النخاع وطيب وسريع التأثر والانفعال رغم حسن سجيته، مستعد للتضحية من أجل مبادئه ومؤمن بعدالة قضيته. ومن الأستاذ محمد الهيبة بوخالد تعلم المستفيدون مناهج التحليل وبعض المفاهيم في العلاقات الدولية، يمتلك اللغة الفرنسية واللغة العربية شعرا ونثرا؛ يتميز بسلوك أخلاقي بفضل تربيته في وسط علمي، كبير في همومه وانشغالاته. ومن الأستاذ الخضر محمد العياد، العلوم الرياضية. ومن الشيخ الحسين (سفر)

الجغرافيا وعواصم الدول. ومن صالح التاقي الداودي اللغة العربية والفنون التربوية وأبجديات اللغة الفرنسية. ومن عبد الرحمان أخواجا اللغة الفرنسية والعروض لنظم الشعر، وموجها ومؤطرا في الصحة الجماعية بحكم أنه طالب في كلية الطب السنة الثالثة. ومن مولاي العظمي اللغة الفرنسية والعلوم الطبيعية؛ بحكم انه كان طالبا بمعهد المهندسين للفلاحة بمكناس. ومن محمد سالم الدخيل عزاز اللغة الفرنسية وبعض فنون الادب. ومن الأستاذ محمد فاضل عبد الله ومولاي أحمد الليلي والسالك عبد الصمد، علوم الدين والشرع. ومن الحسن الفتاحي التأطير الدراسي وموجها بحكم أنه أستاذ في التعليم. ومن محمد فاضل مولاي احمد الليلي منوعات من اللغة العربية والعلوم. ومن المختار الإدريسي اللغة العربية وبعض مفاهيم القانون. ومن بهان سلامة اللغة العربية وبعض الفنون الأدبية ومن محمد فاضل مسعود لفريطيس محو الأمية والحساب وأبجديات اللغة ومن محمد عالي البربوشي بعض النصوص الأدبية وأبجديات الفرنسية. ومن المغراوي الصغير قواعد اللغة العربية (الصرف والنحو). ومن الاخ معطلا بابديه العلوم الطبيعية واللغة العربية. كان له الفضل الكبير في رفع معنويات المختفين قسرا وذلك بالاحتفاظ على المذيع؛ المكسب الوحيد الذي نستمد منه قوتنا المعنوية. هي بكل اختصار منوعات موسوعية علمية بفضلها تفتحت العقول وتنورت. كان عصر أنوار بكل امتياز بالنسبة لضحايا الاختفاء القسري. إبداع تخطى حدود الزمن والمكان بالرغم من قسوة الجلاذ والقهر الممارس علينا. لا حرية بدون وعي، ولا وعي بدون معرفة⁸⁸. كلما ازداد الإنسان قراءة قل إيمانه بالخرافات...

فالكتاب هو السياج الوحيد ضد عبودية العقل⁸⁹، فالعقول المستيقظة خطر على من يعيش على ظلامها. حين نعلم الإنسان التفكير فإننا نحمره.

الموت لا يوجع الموتى؛ الموت يوجع الأحياء. هكذا قال محمود درويش الذي ذاق مرارة فراق الأحبة والأصدقاء من أبناء وطنه. ولعل الأمر ينطبق علينا نحن. فكلما حاولنا تجاوز الجلاء والموت إلا وأخبرونا بأنهم هنا من خلال رحيل شهيد عز علينا فراقه. هذا الوحش لا يفتأ يبتلع الضحايا بكل شراسة! ما كل ما يتمنى المرء يدركه. يبدو أن المرض والمجاعة وسوء المعاملة أقوى من إرادتنا. انهارت الأجساد تحت وطأة الأمراض. لم نعد نقوى على الوقوف ولا المشي، وبالأحرى الاستمرار في التعلم الذي كان مصدر تحد لنا ضد جبروت الجلادين. أكثر من نصف المختفين الصحراويين يزحفون، مشلولين لا يستطيعون الوقوف. سوء التغذية فعل فعلته. كاد الجميع أن يفقد الأمل في الحياة، لأن عملية الحد من الحياة جارية بكل عنف؛ حيث التعذيب وانتهاك أبسط حقوق الإنسان. رائحة الموت تخيم، وأنت ترى كل يوم الكفن معلق أمام أنظارك. كلما رحل شهيد ينقص حجم الكفن. عذاب نفسي يومي وسنوات الاعتقال تمر ببطء. من عزة النفس أحيانا يحاول أحد المرضى أن يبذل مجهودا لمساعدتك لكنه أسفا لا يقوى. وأنت تقوم بواجبك تجاههم، ترى في أعينهم عرفانا وامتنانا تعبر عن فخرهم بك وترى أنك تجسد كل أمل لديهم؛ مما يحفزك على القيام بخدمتهم بكل نكران ذات ومحبة صادقة. لأنك بكل اختصار أنت العائلة والوطن لهم. فقط أشخاص يعدون على رؤوس الأصابع من يستطيعون الوقوف أو المشي بصعوبة. كنت من بين هؤلاء المحظوظين. نحاول قدر إمكانياتنا المعنوية أن نقدم المساعدة لمن يحتاج لها. هناك من يريد قضاء حاجته وعلينا أن نوفر له قضاءها وفضاءها. هناك من يريد

شرب كاس ماء. هناك من يريد أن يتكئ على يمينه إن كان متكأ على يساره أو ظهره والعكس بالعكس. في هذه الحالات أتذكر كيف أن المريض يطلب ويتمنى كاس ماء بسكر محلى ولا يجده، وهناك من يتمنى حبة أسبرين للتخفيف من ألمه فيلتحق بربه الأعلى دون أن يحقق له أي مطلب. لكن هيهات، كيف لقلوب هؤلاء الحرس ومسؤوليهم أن يقوموا بخطوة إنسانية ليس لها من التأثير ما عدا الأجر الكبير. "عند ربكم تختصمون"⁹⁰.

عقدت اللجنة المكلفة بالتعليم، والتنشيط الثقافي اجتماعا طارئاً فرضته حتمية الظرف. فتقرر توقيف التدريس إلى حين؛ والتفرغ لمساعدة المرضى لمن استطاع لذلك سبيلا. لكن رغم قساوة الظرف يأبى الضمير الجماعي، إلا أن يحفز كل صحراوي للوقوف إلى جانب كل صحراوي مريض، أصبح عاجزا عن قضاء أموره بمفرده. نحن هنا؛ ومن واجبنا الوطني والديني - باسم المعاناة المشتركة وباسم كل مشترك أنساني وروحي في أرض الغربة - إلا أن نكون الأهل والعائلة والسند لكل محتاج. من بطون المآسي يولد الأمل⁹¹. هناك شخص واحد لم يذق طعم الفشل في حياته إنه الذي يعيش بلا هدف⁹². تلك الليلة بعد هذا الخبر القاسي بتوقيف الدراسة مؤقتا، خيم صمت يشبه الموت. في أرجاء المعتقل تفوح رائحة الموت. هل يمكن أن يكون الحقد والكراهية لنا بهذا المستوى؟ لا رحمة ولا شفقة ولا التفاتة إنسانية تخفف من ألم المختفين. تعدم الإنسانية بهذه السهولة ويستشهد الضحايا الواحد تلو الآخر دون مبالاة. نية الغدر بإزهاق أرواح بريئة تنطوي على دناءة وفظاعة لن يستطيع التاريخ نسيانها. كانت توقعاتنا حقيقية بحيث لم يستطع المرضى تحمل المرض وأصبحنا نعيش استسلامهم كل وقت

90 - سورة الزمر الآية 31

91 - الشاعر أنس الحجري

92 - فريدريك نتشه

وحين. ليس هناك برنامج زمني بل لا تدري نفس بأي أرض تموت ولا تدري أي وقت تستجيب لنداء ربها.

مساء يوم صيفي 05 غشت 1977، حل بمعتقل أكزز مجموعة من المغاربة تضم شبابا تنتمي إلى اليسار المغربي. سميت هذه المجموعة بعد الإفراج عنها بمجموعة " بنو هاشم " تتكون هذه المجموعة من خمسة أفراد هم: عبد الرحمان قنسي- مولاي إدريس الحريزي- محمد النضراني- عبد الناصر بنو هاشم ومحمد الرحوي. اعتقل هؤلاء الشباب سنة 1976. كانوا أيضا مصحوبين بمغاربة آخرين هم لحبيب بلوك أحد المختطفين من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ميلود عبد اللاوي وثلاثة أفراد من القوات المساعدة وهم: أحمد الهاشمي، مولاي الحسن بالقاضي وميلود الراقي؛ كانوا في خدمة عائلة أوفقي⁹³. اندمج معنا هؤلاء الشباب وانسجموا كليا مع الصحراويين. كما تم احتضانهم من طرفنا نظرا لأخلاقهم النبيلة وتضامنهم مع معاناتنا. ربطوا علاقات صداقة لا زالت مستمرة إلى اليوم وانخرطوا في كل الأنشطة التي نقوم بها. أعجبوا بالثقافة الحسانية وأخذوا يتعلمون بعض كلماتها. كما تأكدوا أن للشعب الصحراوي هوية متنوعة وغنية تميزهم عن أي هوية أخرى. وعبروا غير ما مرة عن تضامنهم مع قضية الشعب الصحراوي. نفترق فقط حين يحل الليل وكل مجموعة يقفل عليها في الزنزانة المخصصة لها. في الصباح يأتون ألينا ويتنقلون بين الصحراويين في محبة ووثام. يقضون النهار كله بين ظهراننا. بعد سنة تقريبا من العيش معا، عزلوهم عنا في قسم آخر من سجن أكزز بكل حسرة وأسف. قل التواصل بيننا وبينهم إلى أن تم نقلنا جميعا في رحلة الألم ليلة 23 أكتوبر 1980 إلى سجن قلعة مكونة. وانقطعت الأخبار بيننا حتى تم

93 - حميد مجدي. المخاض النقابي والسياسي العسير. مصدر سابق ص.102.

الإفراج عنهم قبلنا، لأننا رجعنا إلى مرحلة الصفر وسوء المعاملة والأبواب المقفلة.

الهيئة عمر ميارة الشهيد من مواليد ميجك سنة 1936. كان خلال حياته معنا في المخبأ السري بأكدز وقبله في مخفر الشرطة المركزي بأكدير، إنسانا متدينا يتجنب حشو الحديث. صادق في كل أفعاله وطيب في أخلاقه. غادرنا وفي عينيه شيء يريد قوله لكنه لم يستطع. ينظر إلى إخوانه والمختفين المجتمعين من حوله. تكاد ترى ابتسامة على شفتيه. تلك الابتسامة التي ودعنا بها إلى الأبد. اعتقل يوم 27 فبراير 1976 بمدينة الطنطان وهذا التاريخ له دلالة سياسية حيث جسد إعلان الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية بعد جلاء آخر جندي إسباني من الصحراء الغربية. توفي الشهيد الهيئة سنة بعد ذلك 27 شتنبر 1977. كانت اللحظة عصيبة وحرجة وأنت ترى الإخوة أعلي بويا وسيدح والشيخ جالسين مستسلمين لقضاء الله وقدره بجانب أخيهام الهيئة عمر ميارة وهو يسلم الروح إلى خالقه. كم هم أقوىاء الإيمان رغم صعوبة الفراق وقساوة المكان.

كان الحزن مضاعفا ذاك اليوم المشؤوم بحيث من عجائب القدر أن المهدي ولد أحمد لحسن بارا من مواليد 1943 بمدينة العيون. اعتقل في نفس اليوم الذي اعتقل فيه الهيئة عمر ميارة وتوفي في نفس يوم وفاته (اختطف 27 فبراير 1976 وتوفي 27 شتنبر 1977). سئما الشهيدان هذه الحياة الرديئة. كان الشهيد المهدي إنسانا رحيما ومعطاء. سخر حياته في المخابئ السرية لخدمة المرضى. بذل أكثر من جهده حتى انهارت قواه أمام المصاب الجلل الذي حل بالمختفين الصحراويين. نحيف القامة لكنه أكثر صرامة وعزما. نموذج الرجل الذي يقدم التضحيات بدون ملل ولا من. مؤمن أن العمل من أجل الآخر هو هبة ربانية يمنحها الرب لمن تجلت فيه

صفات المحبة والسلام. ينتقل بين المرضى لمواساتهم. كان الوهن والضعف باديين عليه؛ لكنه تناسى ألمه وضعفه من أجل راحة الآخرين دون كلل حتى وافاه الأجل بكل صمت وهدوء. غادرنا بنفس الصمت والهدوء الرهيبيين تاركا في قلوبنا جرحا لن يندمل. صورته نقشت بذاكرتنا الجماعية نحن المختفين قسرا بأكدز. وأعماله سطرت بمداد من ذهب إلى الأبد. المهدي نموذج التضحية السرمدية.

وسط هذا البؤس لا أحد يفكر في نفسه. أحلامنا تناثرت تحت أقدام جلاذ؛ يدوسها بكل همجية. تفكيرنا أصبح جماعيا في مصيرنا. وكيف نقدم المساعدة لمرضانا في غياب أية رعاية صحية. الوضع متجهم والأفق مسدود! كيف لدولة بمؤسساتها الدستورية ممارسة ظاهرة الاختفاء القسري في حقنا؟ لماذا يموت بيننا من يستحق الحياة أكثر وأفضل من الجلاذ؟

محمد أمبارك الموحد؛ في غضب لا يوصف يمشي جيئة وذهابا. شارد الفكر. انتبه له أعلي بويا عمر ميارة والشيفالي سيدي احمد مكية وسيدح عمر ميارة. استدعاه أعلي بويا وقال له ما بك يا ولد لموحد؟ تمهل محمد أمبارك قليلا وفرك فروة رأسه بقوة وأنشد يقول:

فالحبس وف لموت وقهرا *** واحزم من ذا يا خـليـلو

كلت مريا خبر الصحرا *** وأخبار الشعب شطاري لو.

بعزم وإرادة قررنا مواجهة مصيرنا. صعب جدا تحمل هذه البشاعة وأصعب من كل هذا أن هذه البشاعة الممنهجة مقصودة من جلاذ يسعى لقتل كل ما فينا من إنسانية بوحشيته. لكن نسي هذا الأخير، أننا سنساعد إخواننا مهما كان مصيرهم (الحياة أو الشهادة) ومهما كان ضعفنا. وفي هذا الصدد أنشد أيضا محمد مبارك الموحد قائلا:

كلت أنا لرجيلي لعرب *** فالرب ادير اعتقادو

كلما تعقدت الأمور؛ تتوفر عناصر الانفراج. إنها لطاف الله الذي يمهّل ولا يهمل. ذات صباح حيث اشتدت المحن، وكاد الأفق أن ينسد قنطا على المختفين. دخل علينا رجل ببذلة بيضاء مصحوبا برئيس الحرس، وفرقة من القوات المساعدة. وضعوا طاولة وسط فناء المعتقل، عليها صندوقا. طلبوا منا إخراج المرضى ليفحصهم المرض. لا يمكن تصور الفرحة التي احتلت قلوبنا فجأة، ممرض بالمعتقل لمعاينة المرضى! إلهي ماذا تغير؟ هل حانت صحوة ضمير الجلاّد ليكفر عن معاملته السيئة؟ أم أن ضغطا خارجا عن إرادته تدخلت لتصحيح ما أفسده؟ أخذ الممرض المزعوم يعاين المرضى، وي طرح أسئلته التافهة وكأنه لا يدري ما وقع لهؤلاء حتى أصبحوا في هذه الوضعية. يعطي لهذا حقنة، وللآخر أقراص أسبرين أو فيتايمينات. في الصندوق على الطاولة ليست هناك مضادات حيوية. فقط حقنات وأقراص فيتايمين. هو مسبقا - كما المشرفون - على المخبأ يدركون أن سبب الوجع الجسدي والألم النفسي؛ هو المجاعة وبشاعة المكان. استعمل القائمون على المخبأ السري المجاعة، كأسهل وسيلة للتخلص منا. المجاعة في بلد مشهود له بثروته الفلاحية والزراعية، حيث تعج أسواقه بالخضر والفواكه على أشكالها. بعد ساعتين من فحص المرضى. انصرف الممرض والحراس تاركين، دينامية جديدة وحيوية عند المختفين الصحراويين. في اليوم التالي جاء الممرض بنفس الطريقة. وزع الحقن والأقراص على المرضى على أمل أنه سيرجع قريبا. يوزع ابتسامة صفراء تفوح منها رائحة الكراهية. بعد زهابه أسر علينا أحد الحرس بأنه فرد من القوات المساعدة تلقى تربصا سريعا لهذا الغرض. جلاّد وممرض! أيعقل هذا؟ الممرض (أسعيد) لا يمتلك خبرة قوية في تحديد الأدوية المناسبة للمرضى، بل يتخبط

خبطة عشواء وكل ما وقعت عليه يده من أقراص فهي صالحة للمريض. فما ينفع آلام الرأس بالنسبة له ينفع أمراض الروماتيزم وأمراض المعدة. وما ينفع للحمى ونزلات البرد ينفع في علاج الأمراض الصدرية والإسهال. في المساء دخل علينا الحراس يدفعون عربة اليد (تستعمل عادة في حمل مواد البناء) محملة بالتمر. أخذوا بدعوة فرد من كل زنزانة؛ يمدونه بحفنات من التمر لتوزيعها على المعتقلين. لا بأس. إنها خطوة محسوبة خاصة أن هذه المادة الحيوية قد يكون لها مفعول سحري على صحة المرضى. وهكذا كان فعلا. كانت الفكرة رائعة حين اقترح أحدنا بأن نفرك التمر مع الماء بأصابعنا لنحضر منه حساء يستطيع المرضى شربه بكل سهولة. خاصة أولئك الذين ترهل عاجهم من فقدان مادة الكلسيوم وتتحرك أسنانهم بشكل رهيب. من بين ضحايا هذا المرض الفتاك؛ بسبب المجاعة إلى جانب آخرين. بمبا عبد الله الغيلاني والمختار خطري الداوي وعبدى محمد البشير خليلي.

بمبا فقد كل قواه للمشي بل، حتى الوقوف لم يعد يستطيع إليه سبيلا. تصلبت ركبته على ذقنه. نحيف جدا الى درجة أننا أحيانا نعجز عن وضعه في غطاء لحمله. لا يستطيع أن يلتفت يمينا أو يسارا. يعاني من شلل كامل. كل أعضائه توقفت وظائفها.

المختار خطري الداوي بفعل سوء التغذية؛ هو الآخر تتساقط أسنانه ونقوم بإرجاعها لعاجه الذي أصبح كالمرهم مترهلا. نطلب منه أن يبقى عاضا على شفتيه وألا يتكلم. عانى كثيرا. فقد كل شهية. لا يستطيع الأكل خوفا أن يبتلع أسنانه وعاجه المترهل.

عبدى محمد البشير خليلي هو أيضا عاش نفس المحنة؛ أسنانه تتساقط تباعا لان العاج الذي يحكمها فقد كل صلابة. يتألم أينما لمستته. قررنا أن نتعامل معهم بطريقة يشعرون من خلالها براحة نظرا لما

يعانونه من ألم. كلهم فضلوا الموت على أن يتعذبوا هكذا، لأن الجلاذ رفض أن يمنحهم الحق في الحياة وأن يلتفت بكل وخز ضمير إلى الجريمة التي يرتكبها في حق هؤلاء.

بفضل حساء التمر؛ حين نقطعه إلى قطع صغيرة نضغطه بين أصابعنا بالماء حتى يسهل شربه. نقدم لهم بجرعات من هذا الحساء لتغذيتهم. بعد أسابيع من المعاناة والألم شعروا بتحسن ودبت الحياة في أجسادهم النحيفة من جديد بعد صراع طويل مع الموت. لكن في الأخير انتصرت الحياة واستعادوا عافيتهم؛ مع وهن رافقهم إلى خارج أسوار المخابئ كحال كل الصحراويين المختفين قسرا بسبب ما عاشوه داخل هذه الأسوار الظالمة. استمر الحال على هذه الوضعية تقريبا أسبوعا. كل مساء عربة يد مملوءة بالتمر. استطعنا أن نحصل على مخزون من هذه المائدة بفضل تطوع من يعتبر نفسه في غنى عنها ليتبرع بحصته لفائدة المرضى. حتى إذا تغيرت الأوضاع إلى الأسوأ يكون لدينا مخزون تمر نقدمه لمن يحتاجه من تغذية. حتى وجبات الأكل تحسنت قليلا ببعض الخضراوات؛ كالجزر والبطاطس. بدأت أحوالنا الصحية تترمم وتتحسن. المختار خطري الداي تعجب بكل استهزاء كون الخضر كالبطاطس مازالت تنبت بالمغرب. أخذ يتفحصها ويبتسم. نظر إليه محمد مبارك ولد الموحد وأنشد بكل سخرية

تجيكم تتواطى *** بطاطا يا بيبي

يا بيبي بطاطا *** بطاطا يا بيبي

أمر آخر كان له الوقع الطيب في أنفسنا؛ استبدال الصحن المتأثرة بالصدأ بصحن أخرى بلاستيكية بفضلها أصبحنا نأكل - ما يجودون لنا به بعد الكلاب - بكل أمان من سموم الصدأ. كما سمح لمن يتوفر على نقود محتجزة عند إدارة المخبأ السري أن يعد لائحة بحاجياته لتقوم هذه باقتناء

المواد المطلوبة. قليلون جدا من يتوفرون على نقود. لكنه الحس الجماعي والتضامني والكرم الصحراوي الموسوم بالشهامة. بعد توفر هذه المشتريات، تم تقسيم المختفين إلى مجموعات. كل فرد يملك مالا تكلف بشراء ما يحتاجه هؤلاء؛ من زيت زيتون وجبن وعلب سردين وحليب مجفف (نيدو) وشاي وسكر وأشياء أخرى. كما ركزت المجموعات على تلبية طلبات المناضلات الصحراويات الصامدات. كان هذا مبررا لإدارة المعتقل لتوقيف دفعات التمر، معتمدين على ما نشتره بأموالنا الخاصة. لكن مع الأسف لم تغط هذه إلا شهرا واحدا " لتعود حليلة الى عاداتها القديمة". تحسين الوضع في هذه الفترة كان فقط على حساب ما يمتلكه بعض إخواننا من نقود. في حين أن تحسين الوضع كان يجب أن يكون محل إرادة إدارة المخبأ السري. لهذا شيئا فشيئا أصبح الوهن والمرض ينتشر بين الضحايا الصحراويين. إدارة المخبأ تدرك أن حرمان الضحايا من الأكل الجيد ومن التطبيب هو العقاب الذي يستحقونه للقضاء عليهم. خاصة أن التعامل معنا يتأثر بالهزائم التي تحصل على ساحة المعارك بين الجيش المغربي وجيش التحرير الشعبي. كل هزيمة تعني حصة ضرب وتعذيب كانتقام منا على الخسائر التي تلحق بهم. الظروف الأخيرة بالقدر الذي كانت سيئة بالنسبة لنا في المخابئ السرية كانت أيضا أسوء بالنسبة للمغرب الذي عرف ضغطا دوليا، سياسيا وحقوقيا فرض عليه تغيير سياساته تجاه المعتقلين السياسيين والمغتربين المغاربة والصحراويين المختفين قسرا.

هل هي بداية الانفراج السياسي بالمغرب، يقول أحد الرفاق؟ بل قد تكون بداية الإفراج عنا، يقول آخر؟

رغم الحصار الإعلامي استطعنا تتبع أخبار الصحراء الغربية والمعارك العسكرية والتحرك الدبلوماسي على مستوى منظمة الوحدة الإفريقية

والأمم المتحدة ومنظمة دول عدم الانحياز. ذلك أن الصحراء الغربية تعتبر ضمن اللجنة الرابعة؛ قضية تصفية إستعمار حلها طبقا للقانون الدولي هو: إجراء استفتاء حر وعادل طبقا لمبدأ 1514 الذي يكفل ويضمن حق تقرير مصير الشعوب في الحرية والاستقلال. هذا ما تضمنته وتتضمنه كل القرارات الإفريقية والأممية.

الجيد ولد محمود كركوب أزداد بتيغزرت سنة 1943. أصبحت صحته تتدهور. يتألم كثيرا ولا يستطيع النوم. عاجزين أمامه لا ندري ماذا سنفعل؟ جالسون من حوله، نواسيه وندعمه معنويا. ليس ضعفا منه أبدا لكن المرض وألمه يشندان عليه. اعتقل يوم 08 فبراير 1976 من مدينة الطنطان. كان يمارس التجارة الحرة بين الطنطان والمناطق المستعمرة اسبانيا. قوي البنية مفتول العضلات وجريء ويتميز بتواضع منقطع النظير وسهل التواصل. مرح في أسلوب تعامله يجذبك إليه بكل سهولة. لكن المرض جعل منه هيكلا عظيما. شفتاه جافتان من فرط الحمى والسواد يغزو أسفل الجسد إلى أعلاه. قضى أسبوعا في هذه الوضعية ليسلم الروح إلى ربها يوم 19 أكتوبر 1977. مغامراته وقصصه كانت محط إعجاب عندنا وكنا في سمرنا وأحاديثنا نتذكرها احتراما لروحه الطيبة والظاهرة.

في خضم هذه المأساة، وتفاقم الوضع الصحي إلى الأسوأ للمختفين. طرأ على السياسة الإقليمية حدث انقلاب عسكري لما يعرف ب "اللجنة العسكرية للخلاص الوطني"؛ بقيادة المقدم المصطفى ولد محمد السالك على الرئيس الموريتاني المختار ولد داداه بتاريخ يوليوز 1978. بعد فشل الجيش الموريتاني في حربه في الصحراء، وتدمير الضباط من الخسائر التي لحقت القوات، وقناعة الضباط الأحرار الموريتانيين أن حربهم في الصحراء الغربية؛ حرب عدوان وحرب جائرة. حصلنا على هذا الخبر بفضل أحد

المختفين؛ الذي كان يقوم بعملية تنظيف ساحة المعتقل، حصل على قطعة من جريدة مغربية مرمية على الأرض. كان هذا الخبر كقميص يوسف على مقلتي يعقوب. ارتاح له الجميع وبدأت الطمأنينة على المعتقلين، حتى المرضى نسوا مرضهم. أكد أن التطورات القادمة ستكون حبلًا بالمفاجآت السارة. على الأقل خصم في الصراع تم إبعاده ذليلاً. نظام ولد داداه تحالف مع المغرب وإسبانيا لتقسيم أرض الصحراء الغربية؛ طبقاً لاتفاقية مدريد الثلاثية وعمل على خلق العداء بين الشعبين الموريتاني والصحراوي. لكن أحرار موريتانيا رفضوا الأمر وقاموا بإصلاح ما أفسده الرئيس المختار. تناولنا هذا الحدث بكل أبعاده وتأثيره الإيجابي على قضية الصحراء الغربية. بعد شهر من الانقلاب العسكري، زار المخبأ السري مسؤول أممي وقام بجولة من على السطح ملثماً ينظر إلى المختفين وكأنه يخشى أن يتعرف عليه أحد أو يخشى الاقتراب من المختفين خوفاً من أن يصاب بعدوى فيروس ما. كل شيء هنا سري ويمر في الكتمان المطبق. لكن هناك من بيننا من تعرف عليه وذكر اسمه أنه: رئيس مديرية مراقبة التراب الوطني (DST) حفيظ بنهاشم. بعد أيام دخل الحرس ساحة المعتقل. نصبوا طاولة وشرعوا في أخذ معلومات المعتقلين. اليوم الموالي في إطار تحسين الوضعية للمعتقلين تم إقرار كل يوم خميس علة سردين بين كل مختفين صحراويين. اتضح بأيام قليلة بعد ذلك أن الزيارة والتسجيل قامت به سلطات المخبأ في انتظار أي احتمال قد يقع. لكن لم يقع أي شيء. عم اليأس بعد أن تيقن المختفون أنه كان فقط أسبوع مشمس. توالى الأحداث بسرعة فائقة واشتدت الحرب الضروس بين طرفي النزاع. انعكس هذا علينا وأصبحنا نأخذ حصتنا من الضرب كلما كانت هناك هزائم عسكرية. أتذكر أحد الحراس كان متعاوناً معنا، طماعاً في كل شيء يراه

عندنا ونحن على المثل العربي "مكره أخاك لا بطل"⁹⁵ " كنا نمده بعلب السردين والصابون مقابل تلك المعاملة. قصير القامة مكتنز الجسم، أفجح يمشي وكأنه كبش غنم حتى أطلقنا عليها لقب "الكبيش" جمجمة رأسه تعكس بلادته وقبح منظره. كأنه من الأقوام البائدة. مرة على إثر معركة "أمكالة" دخلوا علينا مدججين بالعصي وأخذوا يضربوننا وهو يقول لنا " شفتوا اشدرتو لنا في أمقالة " تعجبنا كثيرا من منطق هؤلاء. بعد أيام كان في مناوبة الحرس، بدأ يتطلع إلينا ويبتسم لعلنا نمده بشيء. لكننا اتفقنا على حرمانه ولما تأكد من نيتنا تجاهه طلب المسامحة منا قائلا انه نفذ أوامر رئيسه التي يخشى إن لم ينفذها سيعاقبه الله. تأسفنا على عقليته وقررنا أن نعاقبه نحن قبل عقاب الله الذي لا محالة آت.

أواخر 1978، تم نقل النساء الصحراويات إلى معتقل آخر. حاولن الاعتراض على نقلهن بطلب من المختفين الصحراويين لكن الحراسة فرضت عليهن تحت العنف الترحيل. لتكتب فصول مأساة جديدة من الحرمان والفراق. كان وجودهن بجانبنا بنفس المخبأ طمأنينة. نتعرف على أحوالهن اليومية وتبادل مستجدات القضية الوطنية. كانت صدمة كبيرة بحيث؛ كيف يمكن عزل النساء عن عائلاتهن في هذه الوضعية الصعبة ويتركن لمصير مجهول؟ لكن بفضل صبرهن تحملن الفراق واستطعن أن يخلقن بيئة مناسبة لظروف عيشهن. كانت أيضا فرصة لفتح الزيارة بين العائلات.

تزداد الظروف القاسية قساوة ومع تغير الطبيعة المناخية لمنطقة أكدن؛ المتأرجحة بين الحرارة المفرطة والبرد القارس تشدد المعاناة. المجاعة تفتك في أجسادنا النحيفة. والمرض يلتهمنا والموت المفترس يبطش بنا.

95 - الشخص الذي يقوم بعمل وهو مكره عليه

الحراس حين يتخلصون من بقايا الخبز يضعونه في صندوق ورقي بالقرب من الباب الكبير. في الليل تعبت به الفئران ومع الصباح، حين تفتح الأبواب الموصدة علينا بسبب الجوع نتسابق للحصول على هذه البقايا ونلتهمها دون أن نتذوق لها طعما. نبحث فقط عن شيء يسد رمقنا بغض النظر عن ظروفه البيئية ومضاعفاته الصحية على أرواحنا. هو الجوع القاتل نتيجة هندسة الهيمنة الممارسة علينا. يقول الشهيد شيجالي سيد أحمد مكية في هذا الصد

جهد ألرجلي يصبح مسكون *** ولي بيه أكيس الكبة

وتبان الكبة ورثت هون *** فرجلي كلت محبة

في هذه الأثناء شيجالي ولد سيدي أحمد أمكية المامي، المزداد سنة 1918 بأغوينيت، يشكو من وعكة صحية. حالته تتدهور يوما عن يوم، وأصبح نحيفا جدا إلى درجة؛ لا يستطيع معها الوقوف. أعلي بويا عمر ميارة؛ بالرغم من كبر سنه وضعف جسمه بفعل سوء التغذية وانعدام الرعاية الصحية لا يبرح مكان تواجد صديقه. يقدم له ما تيسر من الطعام ويسقيه ويدلكه رافضا من المختفين الصحراويين الذين معه أن ينوبوا عنه في تقديم مساعدته خوفا أن يلومه شيجالي في التقصير. سمح فقط للخليل ولد اعلي ولد الكوري والمحجوب بوخير بالقيام بالأعمال التي لا يستطيع انجازها؛ من غسل ثياب المريض وتنظيفه وتنقيله من مكان الى آخر حيث يجد راحته داخل الزنزانة. قضيا أعلي بويا عمر ميارة وشيجالي سيد أحمد مكية مرحلة الشباب والرجولة معا. عرفا معنى الصداقة والأخوة. قليلة هي الأوقات التي يطلب فيها أعلي بويا من أحد أن يقوم بعمل ما من أجل المريض. قام بأشياء تجاه صديقه الحميم بكل تواضع وتفان جعلتنا نقدر أفعاله ونحترم هذا الشيخ الجليل الذي يجسد ذاكرة لهذا الشعب. تعب شيجالي وخارت قواه فأسلم الروح إلى ربها. استشهد مودعنا بصمت رهيب،

يحاول النظر إلى صديقه أعلي بويا كأنه يريد عناقه. بكى أعلي بويا بشدة وغضب على فراق صديقه ما لم يبكه على أخيه الشهيد الهيبة. تأثرنا كثيرا. وأدركنا أن وضعنا كهذا تبكي فيه الرجال هو أبشع مكان يمكن أن يخطر ببال أحد على الإطلاق. شيغالي اختطف سنة 1976 بمدينة الطنطان واستشهد 16 يوليوز 1978. في ستينيات القرن الماضي كان أعلي بويا وشيغالي ضابطين في سلك الجيش الملكي المغربي. قررت السلطات فتح مركز للدرك الملكي بمدينة الطنطان وتعيين ضابط صف عليه اسمه الملالي، طويل وقوي البنية. صادف ذات صباح وهو يقوم بدورية روتينية بالمدينة بعلي بويا وشيغالي خارجين من منزل ولد ميارة بعد أن تناولا وجبة الفطور- كانا صهرين وزوجاتهما أخوات- كل منهما ركب سيارته لكن السيارتان اصطدمتا. وقف عليهما الدركي وطلب منهم تسليم أوراق السيارتين وأنه سيعد في حقهما محضر حادثة سير. لم يستسيغا أمر الدركي؛ فركبا سيارتيهما وكل منهما يسير إلى الخلف ويصطدم بسيارة صديقه وهم يضحكون والدركي يستشيط غيظا ثم تابعا طريقيهما دون أن يلتفتا إليه. قصة نادرة جدا عن هذين الرجلين الفذين في كل شيء. حكاية تداولتها اللقاءات بكل إعجاب واستغراب. هذه القصة من بين أخريات تعبر عن عمق الصداقة التي تربط هذين الرجلين.

تموت الرجال تباعا ولا ضمير يتحرك. ومع هذا نتابع كل تطورات ومستجدات القضية الوطنية. نحرس جيدا على ألا يعلم الحراس بوجود مذياع لدينا، ولهذا نستمتع إلى الإخبار فقط ثم نخفيه بين السطح وخشب السقف، حيث كانت هناك حفرة. لكن ربما فطن الحراس لمعنوياتنا المرتفعة أو من خلال شك أو وشاية باغتونا بحملة بحث، ردوا السجن سافله على أعاليه. قلبوا الأفرشة. بحثوا في كل مكان يبحثون عن شيء يكون مبررا لتعذيبنا. رجعوا بخفي حنين لكن جعلوا المخبأ كأنما أصابه زلزال.

أخذنا أنفاسنا بعد حملة التفتيش هذه. وكان خبر المذيع أنه في مكان آمن، بردا وسلاما على أنفسنا. لقد وضعوه في قنينة ماء ملفوف بالبلاستيك حتى لا يتعرض للتلف. فكرة رائعة. بعدها كان الحديث مشتتلا بين وجهتي نظر مختلفتين. هناك من يريد إتلاف المذيع حتى لا نتعرض لنفس التفتيش مستقبلا وما نتج عنه من خوف وهناك من أكد على ضرورة الإبقاء عليه؛ لأنه مصدر إلهام لنا. ولا معنى لحياتنا بدون مذيع ونحن مختلفون قسرا بعيدا عن العالم وبلا اتصال خارجي. لذا هو وسيلتنا لمعرفة ما يجري وسيتم الاحتفاظ به ولو كلفنا حياتنا ما دمنا هنا لنموت. فسيان كان المذيع أو لم يكن فخطر الموت يحوم كالشبح في سماء المخبأ السري.

لا يخلو يوم من عمليات التفتيش، لكن هذه المرة كان مصحوبا بعنف خطير. ذات يوم حلق عصفور فوق سماء المخبأ مغردا كأنه يندب حال سجناء لا حول لهم ولا قوة. انتبه الحرس على أن العصفور يحمل ملصقا على إحدى رجليه. وقع استنفار عام. العصفور يحمل رسالة من المختفين الصحراويين إلى خارج أسوار المخبأ. لم يهدأ لهم بال حتى اصطادوا العصفور وحصلوا على الملصق؛ لكن ليس فيها شيء مثيرا للشك. ربما أطفال دوار آكدز كانوا يلعبون مع هذا الطائر غير المحظوظ. دخلوا علينا السجن والارتياح باد على وجوههم، لكنهم أقفلوا علينا الأبواب لمدة أربع وعشرين ساعة وتركونا في ظلام دامس. فقط بصيص نور من القناديل البترولية ينساب بين شقوق الأبواب والكوات الصغيرة. حمدا لله أن العصفور لم يحمل شيئا مريبا وإلا كان الوضع مختلفا.

النفاع ولد عبد الله ولد ميارة، تاريخ ميلاده سنة 1930 بالساقية الحمراء. اعتقل سنة 1976 ببلدة الزاك. بدت عليه علامات الوهن من شدة المرض. أسلم الشهيد النفاع روحه يوم 20 نوفمبر 1978 ليرصع إلى جانب الشهداء تاريخ مأساة صحراويين داخل المخبأ السري آكدز. هذا المرض

الفتاك لا يرحم. انه سوء التغذية والحرمان من العلاج. وجد هؤلاء الجلادون في إعدامنا وسيلة أشد من قتلهم لنا. إنه الموت البطيء بفعل المجاعة وعدم التطبيب. بفعل هذا الوضع أصابنا اليأس في خضم إفلاس حضاري وانهايار أخلاقي فقد الجلاد فيه آخر نقطة في رصيد الأدب واللباقة والاحترام لنفسه. موسوما بصور القبح والتشوه والبشاعة النشاز التي تفكك كل القيم التي بنيت عليها الإنسانية وتفكك أوصال المجتمعات البشرية لتحولها إلى مصدر مشع للطاقة السلبية القاتلة والمحبطة للهمم. موغل هذا الجلاد في صحراء التخلف والجهل. متورط في خنق أنفاس المختفين الصحراويين قسرا ومصادرة حقهم في الحياة. صارخة هي مظاهر العدوانية في كل تصرفاته تجاهنا؛ بأشكال العنف اللفظي والجسدي المؤثثة لفضاء المخبأ السري.

جرت العادة كنظام داخلي للمخبأ السري أن تخرج كل مجموعة وقتا معينا من الزنازين لقضاء الحاجة والنظافة والتزود بالماء. خلال هذه العملية يقوم المختفون بجولة دوران حول الباحة كنوع من الرياضة، لمساعدة الجسم على خلق التوازن. بعضنا يمشي الهوينى والبعض الآخر يمشي مسرعا. هي الفرصة الوحيدة لدينا لممارسة رياضة المشي. كانت الشمس ساطعة والجو يميل إلى الحرارة. كنت أتجول مع صديقي ورفيقي عبد الرحمان خواجا؛ طالب في كلية الطب تم اختطافه في سنته الثالثة جامعية. كنا نتحدث باللغة الفرنسية. بالنسبة لي فرصة لتطوير مهارتي في هذه اللغة التي أعشقها لأن عبد الرحمان من الطلبة الملمين بها جيدا. بينما كان إخواننا منهمكين في أمور أخرى. انتبه الحارس بأننا نتحدث لغة ليست اللغة العربية فشك أننا نخطط لأمر ما فصاح بنا وأمرنا بالوقوف وإلا سيطلق النار علينا. رفعنا أيدينا إلى الأعلى ننتظر مجيء الحراس. دخلوا مدججين بالعصي. لكن تدخل رئيس الفرقة حين سمع ملاحظة

الحارس الذي أوقفنا. حكى بأننا كنا ندور حول باحة السجن بخطى سريعة وأننا كنا بالنسبة له نتحدث بلغة غير مفهومة لديه مما جعله يوقفنا مهددا بإطلاق النار علينا. نظر قائد الفرقة ألينا وأمرنا بالدخول دون أن يضربنا. جلسنا مبهوتين مصدومين. كان المجرم سيقتلنا. عرفنا حينها أن أرواحنا رخيصة جدا عند هؤلاء أشباه البشر. شكلت هذه الحادثة مدخلا جديدا في حياتنا وأن تواجدنا في هذا المخبأ السري على كف عفريت وأن نوعية القوات التي تحرسنا تتسم بالجهل والحدق والغضب نحونا. غضبت فعلا مما جرى حتى كدت أذوق طعم الغضب في فمي كالعلقم. أريد بصقه على وجه هذا الجلاد.

حدث آخر شكل انقلابا في حياتنا إلى الأبد حين استغل أحد الحراس الفرصة وحاول فرض علينا أن نضرب بعضنا وهو يتفرج علينا. ذكرتني هذه الحادثة بفيلم أمريكي عن أسرى أمريكيين باليابان خلال الحرب العالمية الثانية، وطريقة التعامل المذلة معهم تحت عنوان " غير منقطع Unbroken" حين فرض مسؤول السجن الياباني على الأسرى الأمريكيين ضرب أحد أصدقائهم. يتفنن الجلاد في أي شيء يجعلك تكره نفسك.

كان الخبر أيضا استثنائيا؛ حين أتى أحد السجناء بقطعة جريدة من باحة السجن حيث كان ينظفها بمعية مختفين آخرين فيها نبأ هجوم جيش التحرير الشعبي الصحراوي على مدينة الطنطان يوم 28 يناير 1979. ويشير الخبر أن البرلمان المغربي عقد جلسة طارئة لدراسة الموضوع. كانت جلسات نقاش وتحاليل للخبر في كل الزنازين. وبعد تقييم الوضع اتفقنا على كتمان الأمر والعمل على عدم التهور مع ضبط النفس حتى لا يشك الحرس. لا شك أن هذه العملية العسكرية ستكون لها انعكاسات على وضعنا، لكن سنكون حذرين أكثر.

أكتوبر 1979، تفاجئنا بدفعة جديدة من المختفين الصحراويين زج بهم معنا في أكرز تتكون من: خمسة (05) رجال اختطفوا من بلدة ليرات. قضاوا أكثر من ستة أشهر بجماعة أيفران نواحي بيزكارن وهم: محمد صالح أعلي منو ديلل - السالك أعلي منو ديلل - محمد الشيخ محمد سالم البخاري - محمد لحبيب أعلي بركان - محمد مبارك محمد يوسف بوسنة.

من النساء

نساء هن: عزيزة أعلي منو ديلل - رحمة أعلي ديلل - خديجتو عبد الفتاح ميارة - فاطمة عبد الفتاح ميارة - منينة عبد الله حسينة منيصير - منتو محمد حسينة منيصير - خديجتو محمد حسينة منيصير. (07)

عملية الاختطاف والاختفاء القسري لا زالت مستمرة إذن. متى تنتهي هذه الدرامة؟ بعد كل هذه الاعتقالات والاختطافات والاختفاءات التي استمرت من سنة 1975، لازال نزييف الاختفاء القسري ينخر الجسم الصحراوي وأبواب المخابئ السرية مفتوحة لاستقبالهم. كضحايا اختفاء قسري، كل وافد جديد يحمل معلومات وأخبارا وأشياء جديدة تجعلنا نعيش متعة اللحظة رغم قذارتها ونتحدى جبروت المكان والزمان والجلاد.

خلال هذه الإثناء، انشغلنا بتدهور صحة سلامة أيت إيبورك ولد عالي ولد أبا لحسن. ازداد سنة 1943 بالساقية الحمراء. اختطف يوم 07 يناير 1976 بمدينة كلميم. أصبح نحيفا وفقد الرغبة في الأكل والشراب - مع العلم أن ليس لدينا ما نقدمه له من شراب وأكل، ما عدا ما نتوصل به من وجبات الغداء أو العشاء؛ من ديشيشة وشعرية -. الدواء منعدم والأمل في الحصول عليه أمر مستحيل. بعد أيام من المعاناة ودعناه إلى مثواه الأخير شهيدا وبطلا ومؤمنا بحتمية القدر. كان ذلك يوم 03 نوفمبر 1979. كل الشهداء ترى على وجوههم نورا ربانيا. عوضهم الله عن الظلم الذي عاشوه والتعذيب الذي مورس عليهم بغير ذنب كغيرهم من المختفين

الصحراويين. هندسة التعذيب والهيمنة الممارسة علينا؛ من خلال الحرمان من أبسط الحقوق: كالتطبيب والتغذية السليمة؛ عكست بكل وضوح ذهنية الجلال في السيطرة لإذلالنا في سراديب المخابئ السرية والسيطرة على كل قدراتنا في التفكير خارج أسوار أكذ وسلب كل ما هو ايجابي فينا حتى نبقى حبيسين لهندسة هذه الهيمنة الجهنمية. رباه ارحم نفوسا تتألم ولا تتكلم. فقساوة الانتهاكات مليئة بالحكايات البشعة. كل دمعة من هؤلاء تحكي قصة مؤثرة بعدما شبت مراكز الاختفاء من الموت. فكم من شهيد ذهب إلى القبر يحمل لحظات سعيدة لم يعيشها، كان يوما يحلم ويتمنى أن يعيشها. لكن رغم الوجد نضجا. حين نتألم فإننا نتعلم. الحياة مدرسة والفرق بين الحياة والمدرسة؛ أن الحياة تمتحنك لتعطيك درسا والمدرسة تعطيك درسا لمتحنك! لا شك أن في مثل هذه الظروف المذلة تسقط الضحايا.

كل الأحزان تصبح أقل ألما حين تعلم أن هناك أمرا مهما يجعلك تفرح رغم قساوة المكان. بحيث في هذه الأثناء التي نتعذب فيها نفسيا وجسديا؛ محرومون من أبسط الحقوق الأساسية التي تجعلك إنسانا. صدر قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 34/37 الصادر في 21 نوفمبر 1979 في الدورة 34 للجمعية العامة للأمم المتحدة؛ وقد أصبحت الوثيقة الثامنة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة فيما يتعلق بإقليم الصحراء الغربية تماشيا مع قرارات الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية ودول عدم الانحياز قصد إنهاء الاستعمار؛ حاثا المغرب على "الانضمام إلى عملية السلام وإنهاء احتلاله لإقليم الصحراء الغربية"، بفضل المذايع استطعنا تتبع أحداث القضية الوطنية ومتغيراتها. كما استطعنا أيضا تتبع التحولات الجيوسياسية على مستوى العالم. مثلا في سنة 1979 انتصرت الثورة في إيران على نظام الشاه المستبد. هذه الثورة التي استمرت ستة عشر شهرا

شاركت فيها كل الفئات الاجتماعية نظرا للظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة. كما تابعنا بأسف كبير الحرب الإيرانية العراقية التي اندلعت من سبتمبر 1980 إلى غشت 1988. ثماني سنوات من الحرب المدمرة بين ثورة فتية في إيران ودولة واعدة في العراق. لو تضافرت الجهود بينهما لكان الشرق الأوسط ينعم بسلام بدلا من التهديد الدائم من المعسكر الغربي؛ خاصة الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني الإسرائيلي، ولتمت مساندة الشعوب التواقة للحرية والاستقلال. كما استغربنا التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الاتحاد السوفيتي؛ هذه التحولات الخطيرة التي جزأت الاتحاد السوفياتي إلى دول وشعوب. والسؤال المطروح هو كيف تم هذا في الاتحاد السوفيتي؛ الدولة التي تأسست على الاشتراكية وطبقة العمال ونبذ الطبقة واستغلال الشعوب؟ ألم يكن من الأجدر أن تقوم الثورة في الأنظمة الغربية التي تأسس اقتصادها على البورجوازية والفردانية والطبقية والليبرالية المتوحشة؟ إن "البروسترايكا" أو إعادة الهيكلة اعتبرناها مؤامرة ضد المعسكر الشرقي لهيمنة القطب الواحد. كما عرفت هذه الفترة إطلاق سراح الثوري والمناضل الأممي ضد الفصل العنصري في جنوب إفريقيا؛ السيد نلسون مانديلا سنة 1990. كان الإفراج بعد 27 سنة من السجن، بريق أمل لنا وأن قضايا الشعوب مهما طال الزمن منتصرة لا محالة. منحنا المذيع فرصة تتبع كل أحداث العالم ومنحنا قوة معنوية انتصرت على الجلال وأساليبه في تحطيم معنوياتنا. لهذا حين جاءنا قائد الحرس في أحد الأيام وأخذ يخطب علينا، كنا داخلنا نضحك في أعماقنا وهو يفرض علينا أن نستمع له ولتحاليله البليدة.

محمد الشيخ محمد سالم البخاري. شاب يافع في مقتبل العمر، قطفته المنية كزهرة لم تكتمل النضج. اعتقل يوم 22 يناير 1979. لم يخطر بباله بشاعة المخبأ ولا المعاملة السيئة التي تلقاها. فكانت صدمته

كبيرة هو الذي كان يحلم بغد أفضل وبمستقبل مشرق. عانى كثيرا رغم صغر سنه وضاع الحلم من بين يديه وانسد الأفق أمامه. استسلم للمرض وهو في غضاضة العمر. استشهد شبلا ليلتحق بقافلة الأسود التي سبقته إلى دار البقاء يوم 23 ماي 1980⁹⁶.

سبعة وعشرون شهيدا سقطوا خلال خمس سنوات بسبب الإهمال والظروف السيئة. هؤلاء الفرسان ترحلوا عن ركب الحياة بعد أن تعبوا من رحلة أليمة وسنوات عجاف. أكدز أصبح طاحونة للموت ومدفنا لأناس لن تموت خصالهم أبدا. لا حراسه يرحمون ولا المسؤولون عليه يبالون بالأرواح التي تزهق ظلما كل يوم؛ بسبب الجوع والمرض والاهمال والحرمان من أبسط الحقوق الأساسية. حتى النواة الصلبة لحقوق الإنسان من قبيل: الحق في الحياة وتحريم التعذيب والحق في السلامة الجسدية التي يفرض على المتحاربين احترامها تم الدوس عليها بلا شفقة، بل بكل كراهية وعدوانية. تم التعامل معنا وكأننا لا نستحق الحياة. هؤلاء الشهداء تكفل الشيخ الجليل والعلامة مولاي أحمد الليلي بغسلهم وتكفينهم بمساعدة أحد ضحايا الاختفاء القسري الصحراويين.

تحت إكراه وجبات تغذية خالية من السعرات الحرارية لا تسمن ولا تغني من جوع. كأننا نتغذى على الزقوم. الأفرشة مهترئة: غطاء مطوي على أربعة ثم أفرشة محشوة بالتبن لا تصلح للنوم ولا للجلوس بعد ذلك أفرشة عادية قليلة السمك مع الوقت لا تقي برودة الأرضية (الضس) في فصل الشتاء. التطبيب منعدم بعد أسبوع المشمش الذي طل علينا منه ممرض جاهل وحقد يبيع لنا الدواء مقابل علب السردين التي كنا نحصل عليها في إطار التغذية لتحسين وضعيتنا، بحيث علبة سردين واحدة بين

96 - تاريخ اعتقال ووفاة ضحايا الاختفاء القسري الصحراويين اعتمدناه من شهادات المختفين قسرا ومن التقرير

الختامي. لهيأة الإنصاف والمصالحة. ص: 68

اثنين كل يوم خميس. مشاهد مأساة يصعب على أصحاب القلوب الضعيفة مشاهدتها. هل من رحيم؟ الوهن يغزو أجسامنا النحيفة. أحيانا يعم صمت رهيب وأتخيل نفسي كيف ستكون موتي بعدما شاهدت من فظاعتها وهي تلتهم رجالا ليسوا ككل الرجال. لقد ألغينا كل أحلامنا لنركز على واقعنا المرير في انتظار أن نحلم من جديد ويتجدد لدينا الأمل. على حافة الهاوية متروكين لمصيرنا، عزاؤنا الوحيد أننا هنا من أجل قضية حتما ستنتصر وأن الرجال تخلد بعظمة ما تركه من ورائها.

وصف الشاعر عبد الرحمان خواجا هول وفضاعة سجن أكاذ ورسم بشاعة المعاملة اللاإنسانية التي تمارس في أحشائه.

السجن في أكدز

يا للتنعاسة، والشقاء والكمد *** من واقع موجه للقلب والكبد!
في سجن عار يموت الأبرياء به *** بالجوع، والمرض الفتاك والنكد
صاغت ليالي الأسى جدرانه فجعا *** كأنه للأسى مستودع أبدي!
والعيش فيه حثالة تعد قرى *** قد لفها صداً في الليل دون غد
تأبى الكلاب عروجا صوب ركنتها *** قد آثرت نومها بالجوع والمدد
في كل زنزانة تجمعت نفر *** ترجو هواء وراء باب لم يرد
ملقون في الزمهرير القاتل ازدحموا *** والسأم في دهمهم نار، وفي الخلد
إن يشتكوا ألما لقوا زبانية *** قد ألقوا لغة الكلام بالعمد
وسبهم عزلا بالقهر قد غلبوا *** ما حول أعزل غير الصبر والجلد
أضناهم البؤس فاستحال حالهم *** يبكي بصب الدموع عين متدد
تورمت منهم الأطراف موجعة *** تحفها الكدمات السود بالعقد
والجسم قد نحلت منهم بقيته *** والشعر صبغته السواد لم يعد
إن يخرجوا للفناء يزحفون ثقل *** " أمواتا بعثوا - عجا - من اللحد "
أثوابهم رقعت كأن ألم بها *** طوى ذوبها الذي يبدو على الجسد
والقمل يتخذ الأسمال قاعدة *** يؤذي ضئيل الدم للقوت مفتقد
والموت يترك للآلام مهلتها *** حتى تسيء إلى الأرواح بالأمد
فيختم النتن والإسهال شقوتهم *** موت الفظاعة لا ينال من أحد!
قد جاز للأرض أن تهتز غاضبة *** سخطا على ما حوت في هذه البلد
ولتبك كل حنون منذ أن وضعت *** عل النحيب يهيب محنة الولد!

شهداء مركز أكدز⁹⁷

الاسم الكامل	تاريخ الاختفاء	تاريخ الوفاة
أعیش احمدناه بناصر	1975	29 يوليو 1976
السلامي محمد سعيد	1976	28 غشت 1976
بیری زموتي بن حسينة بن محمد	1976	30 غشت 1976
الديد الديه ولد المحجوب	1975	02 شتنبر 1976
السبطي محمد الشيخ بن البشير بن حمادي	1976	23 شتنبر 1976
إبراهيم ولد بوزيد ولد الحبيب	1976	27 شتنبر 1976
محمد مبارك ولد سيدي مولود	1976	04 أكتوبر 1976
محمد الأمين ولد حم	1976	08 أكتوبر 1976
ويسي حمدي ولد بوزيد	1976	15 أكتوبر 1976
حبدي خطاري ولد محمد	1976	21 أكتوبر 1976
شرامها أحمد ولد البشير	1976	04 نوفمبر 1976
برهمة فاطمة (النعجة) بنت علي	1976	10 نوفمبر 1976
علوة نجيب ولد الطاهر	1976 / 02 / 29	29 يناير 1977
محمد ماء العينين	1975	12 فبراير 1977

97 Témoins des victimes de la disparition forcée et le Rapport final. Volume 2. Vérité et responsabilités des violations. Commission nationale pour la vérité, l'équité et la réconciliation. P. 55

مع الاستعانة برفاق الاختفاء القسري بأكدز

المومن ولد حمدناه	1976	18 أبريل 1977
البلال ولد لحبيب ولد البلال	1976	07 ماي 1977
الضميري بن علي عياد	1976 / 02 / 26	19 ماي 1977
بوبة محمد عبد الرحمان	1976	10 يونيو 1977
البتول بنت سيدي علي	1976 / 03 / 23	16 يونيو 1977
سهيلي أعبيد ولد محمد	1976 / 01 / 18	22 يوليوز 1977
الهيبة ميارة ولد عمر	1976 / 02 / 27	27 شتنبر 1977
المهدي ولد احمد لحسن بارا	1976 / 02 / 27	27 شتنبر 1977
كركوب الجيد ولد محمود	1976 / 02 / 08	19 أكتوبر 1977
شغالي مكية ولد سيدي احمد ولد مكية	1976	16 يوليوز 1978
النفاع ولد عبد الله ولد ميارة	1976	20 نوفمبر 1978
سلامة ولد علي ولد أبا لحسن	1976 / 01 / 07	03 نوفمبر 1979
محمد الشيخ ولد محمد سالم ولد البخاري	1979 / 01 / 22	23 ماي 1980

رحلة الألم. قلعة مكونة

ليلة 23 أكتوبر 1980

" إن الشروط المعيشية جد صعبة في هذه الأماكن، لقد كان يتعين معاقبة عائلات عناصر البوليساريو.... كانوا رجالا ونساء من بينهم شيوخ يتجاوز سن بعضهم الثمانين وكذلك أطفال، محمد الشيخ توفي وعمره 14 سنة، ومونة طفلة لا يتجاوز سنها 12 سنة لا أعرف مصيرها حالا " مقتطف من شهادة أحد حراس قلعة مكونة ⁹⁸.

ونحن نعيش مصيرنا المشؤوم، حدث أمر لم يكن بالحسبان. هناك سجين يقال إنه من بلد لبنان. بلاد الأرز والمناظر الخلابة وبلاد الفن والجمال. ألقى عليه القبض وزج به في أكدر القاحل؛ حيث لا ماء ولا خضرة ولا وجه حسن يغمر العين عشقا وجمالا. أكدز المدفن حيث ظروف الاختطاف أشد قسوة، مع انعدام أدنى شروط الحياة، علاوة على التعذيب الجسدي والنفسي بدون مبرر. هذا السجين كان يحظى بشيء من الاهتمام أكثر منا. كانت ملابسه يتم تنظيفها وغسلها من طرف المختفيات الصحراويات. كتب رسالة لأحد المختفين يقترح فيها عملية فرار من السجن. كان لا يدري أن الحراس يفتشون ملابسه ذهابا وإيابا من عند النساء. تعرض اللبناني لأشد أنواع التعذيب لانتزاع اعترافات منه. لمن وجه الرسالة؟ كيف حصل على وسيلة الكتابة؟ كما أحيل أحد الطلبة من المجموعة التي حملت فيما بعد الإفراج عنها اسم: "مجموعة بنو هاشم" محمد النضراني إلى الاستنطاق والتعذيب قصد التعرف على من هي الجهة المشاركة في عملية الفرار الجماعي المقترحة من طرف اللبناني. كان صامدا

98 - الوالي سلامة، حوار المتدن، اليسار، الديمقراطية والعلمانية في المغرب العربي. المخزن واشكاليات الاختفاء

وصبوراً. وحتى لا يتأذى أحد من إخوانه أو منا تحمل بكل جلد كل أشكال التعذيب. لم ننج نحن الصحراويين من هذه المحنة، بل تم استدعاء أفراد منا واستنطاقهم. عشنا أياماً عصيبة؛ بحيث كل يوم يتم تفتيشنا والبحث عن حجة تجعلهم ينقضون علينا. يحطمون كل شيء أمامهم ويقلبون الأفرشة. يستفزوننا بل يضربون بلا رحمة.

كان الوقت عصراً؛ حين أخبرنا أحد الحراس بأنه سيتم نقلنا إلى جهة مجهولة، وأنه من الأحسن أن نتلف أي شيء يشكل خطراً علينا. انفق الإخوان على التخلص من المذياع مصدر إلهامنا ووسيلتنا الوحيدة لمعرفة ما يجري من أحداث؛ سواء تعلق الأمر بقضية الصحراء الغربية أو بالقضايا العالمية. كان من حسن الحظ أن الحارس الذي أخبرنا هو من زدنا بهذه الوسيلة الإخبارية (المذياع). كانت الفرصة ذهبية أن سلمناه إياه وودعناه شاكرين له ما قام به تجاهنا. احترازاً لبسنا ما يمكن أن نلبس من ملابس مستعدين لمغامرة رحلة أخرى: لا ندري كيف ستكون عواقبها. ما إن حل الظلام حتى سمعنا صوت محركات شاحنات تقترب من باب المخبأ السري أكدز. يبدو أن ما قاله لنا الحارس حقيقي وجدي. سيتم نقلنا إذاً إلى جهة مجهولة. كم سنعيش رباه في هذه العوالم المجهولة؟ فتح الباب الكبير على مصراعيه ودخلت فرقة من القوات المساعدة تحمل هراوات ومدافع رشاش. اصطفوا وسط باحة المعتقل وأخذوا يفتحون أبواب الزنازين الواحدة تلو الأخرى، بدأ من اليمين إلى آخر زنزانة أتواجد بها مع مجموعتي. كل حارسين يأخذان المختفي قسراً بينهم ويجرونه مسرعين خلف الباب؛ داخل "سقيفة العمليات"⁹⁹ يخضعانه لتفتيش بطريق مهينة، يرميان المختفي داخل الشاحنة العسكرية. هنا تكتب سيمفونية ألم جديدة. يلقون بنا

99 - اسم أطلقه المختفون قسراً على بهو في مدخل المخبأ السري أكدز حيث كنا نتلقى ضرباً عشوائياً بالعصي مع الركل واللكم.

مكتوفي الأيدي خلف الظهر ومعصوبي العينين على الأرضية الحديدية للشاحنة العسكرية، في ليلة شديدة البرودة والحراس يشبعون الجميع ركلا وشتما. بحبل واحد يربطون أكبر عدد ممكن من المختفين بطريقة وحشية. مكبلي الأيدي والأرجل ومعصوبي العيون نرمى في الشاحنات. لا مجال هنا للرحمة أو الشفقة. يؤدون مهامهم بكل جدية للقضاء والسيطرة على هذا العدو المحتمل، الذي أنهكته سنون الظلم والألم والجوع والمرض. لا أحد يقوى أن يدافع عن نفسه، بل نستسلم لهذا الوحش المفترس الذي لا يبقي ولا يذر. دماؤنا مستباحة وأرواحنا بخسة الثمن. في خضم هذا الهول المرعب، نسمع فقط أوامر الضابط باللغة الفرنسية الذي كان يتظاهر بأن لديه معرفة تفوق جنوده وأنه متميز عليهم. أطفئوا المصابيح وفي ظلام حالك تحركت الشاحنات. نساق كالخراف إلى المجزرة. كل مرة حين يريدون دفن أحد شهدائنا يطفئون المصابيح - القناديل البترولية - حتى لا نعرف ما يقومون به.

نقشت في ذاكرة الاختفاء القسري ليلة 23 أكتوبر 1980؛ كليلة إعدام بكل المقاييس لكل ما هو إنساني وقيمي وأخلاقي. أهكذا تموت الإنسانية وتنزع الرحمة من قلوب قاسية؟ لما شرعت الشاحنات في التحرك بدأت رحلة الشؤم. رحلة ألم فاقت كل وصف. كل فترات اختفائنا، كانت الرحلات قاسية وأليمة. لكن هذه كانت أشد وطأة وقسوة. داخل الشاحنة أطلقوا علينا أضواء كاشفة تزيد الجو المشحون حرارة. لم أدر كم هو الوقت ولا المسافة التي قطعناها، لنصل إلى نهاية رحلة الألم هذه. المؤكد هو أننا أمضينا الرحلة بالصراخ والعيويل بسبب المنعرجات التي تمر منها الشاحنة؛ بحيث يشتد الحبل على معاصمنا وتحسب نفسك مكبلا بحبل كهربائي. لا تجد بدا من الصراخ حتى تنسى ألم المعاصم والأرجل وهي تدمي. تشعر بدبيب في أصابعك وكأنها تفقد الحياة، تحاول تحريكها لكنك

لا تستطيع. من فرط الألم نجد راحة في ضرب الجنود لنا بأعقاب الرشاشات وبركلنا بالأرجل، لأن ضربهم لنا ينسينا قليلا من ألم التكبير، فلا تدري بأي ألم ستشعر هل ضغط الحبل على معاصمنا وأرجلنا أو ضرب الجنود لنا؟ شعرت بشيء بارد يسيل من رأسي على وجهي تذوقته؛ انه الدم يسيل من ضربة من جندي على رأسي. أثرها باق إلى اليوم على جمجمتي. بعد سفر رهيب مر علينا كأنه قرن. توقفت الشاحنات العسكرية وشرعوا بإنزالنا. فكوا عنا القيود ونزعوا العصابات عن أعيننا. رغم الظلام الحالك شعر الجميع براحة استثنائية. أخيرا انتهت رحلة الألم، وليكن بعدها ما يكن، لا يهم صراحة بعد أن اجتزنا هذه الفترة الصعبة من حياتنا. داخل الغرف المظلمة نتلمس إخواننا ونتبادل التهاني على نجاتنا من موت محقق. نسأل عن الحالة الصحية لكل منا. هناك من التزم الصمت من هول ما وقع. لم تمر رحلة الشؤم بدون أضرار مع الأسف، كان ضحيتها الشيخ الجليل أحمد سويلم الترفاس الذي تلقى ركلا مبرحا بأرجل الجنود ومؤخرات الرشاش على مستوى بطنه، حتى تضررت مسالكه البولية. أياما فقط من وصولنا قاد الشهيد أحمد سويلم الترفاس قافلة شهداء قلعة مكونة. اعتقل الشهيد سنة 1976 واستشهد يوم 28 أكتوبر 1980. كما تضررت معاصم العديد من الضحايا بفعل القيد؛ كمولاي العظمي وآخرون الذين لم تستو معاصمهم إلا بعد ترويض طويل الأمد من طرف الإخوان الذين يتبادلون أدوار الممرض المروض. وثق الشاعر أمانة الله ابيري هذه الرحلة الليلية الرهيبة بقصيدة شعرية حسانية.

خالك ليلة فشهـر عشرة *** اليوم الثالث والعشرين
ما كط جبرها ولد امرة *** فالموتى ولا فالحيين

في صباح اليوم الموالي دخل رتل من جنود القوات المساعدة، اصطفوا أمام أبواب الغرف، يحملون الهراوات. بصوت مهدد للحراس، يدخل المختفون قسرا في جو مشحون بالظلم والتعسف واستعمال الكلام الساقط والبذيء وعدم التقيد باحترام القانون واحترام الذات البشرية. كان من الضروري احترام الحد الأدنى للذات البشرية ولو في الشكليات التي لم تحترم هي أيضا في حدها الأدنى. لا شيء ممنوع هنا. تذكرت يوم مجيئنا إلى معتقل أكدز حين كنا نمر بين صفين من الجنود وهم ينزلون علينا بكل عداوة بالضرب والركل. يفتحون الغرف الواحدة تلو الأخرى ويأمرونا بالخروج للتزود بالماء والذهاب إلى المراحيض. أول هاجس كان عندنا هو معرفة المكان الذي نحن فيه لأنه يختلف تماما عن اكدز. هنا أسوار المخبأ ليست بالعالية جدا. الأبواب من الحديد على خلاف أبواب غرف اكدز كانت من الخشب. الطقس تغير من جو جاف باكدز إلى جو رطب. في الصباح اليوم الموالي في المخبأ الجديد، شعرنا ونحن مقفل علينا في الزنازين أن الجنود يجدون صعوبة في فتح الأبواب. حين فتحت الأبواب ابهرنا بهذا البساط الأبيض الذي يكسو باحة المخبأ. قال أحد انه الثلج! كيف الثلج؟ هل نحن في منطقة جبلية أو ماذا؟ سيكون هذا الطقس له مخلفات صحية صعبة علينا كثيرا، نحن أبناء ثلاثية: الصحراء والشمس والكثبان. كانت أول مرة أ لمس فيها الثلج وكأنه أكوام من القطن. بياضه الناصع يؤثر على النظر فتغمض عينيك من شدة انعكاس الضوء عليه. بعد محاولات كثيرة لمعرفة أخبار وأوضاع النساء بعد رحلة الألم التي عشناها جميعا؛ أخبرتنا أحد الأخوات أنهن بكل خير بعد تجاوز محنة رحلة الألم وأن المنطقة التي نتواجد بها اسمها قلعة مكونة. البناية عبارة عن ثكنة عسكرية قديمة في زواياها الأربعة أبراج مراقبة. يبدو أنها كانت بناية مهمة وأننا نعمرها بعد طول إهمال. بدأنا الاختفاء القسري من جديد ورجعنا إلى مرحلة الصفر

كأنما اختطفنا أول مرة. انطلقت رحلة الرعب وغياب المنطق والحس الإنساني من جديد. سوء التغذية والعزل في الغرف طوال اليوم والتفتيش والضرب والإهانة. فقط حين نخرج بالتناوب نختلس النظرات ونلوح بالإشارات إلى إخواننا في الزنازين الأخرى الذين يطلون علينا من النوافذ كأنهم أسود في أقفاص. كلفوا خمس حراس من الرعيل الذي كان معنا في جحيم أكدز ليواكبوا تعذيبنا في هذا المكان. لا أدري كيف تم اختيار هؤلاء بدل الآخرين. لكن تأكد مع مرور الأيام أن حقدهم لنا واستعدادهم للبطش بنا، هو ما ألهم لتولي هذه المهمة. كيف يستطيع هؤلاء ممارسة التعذيب وهم في كامل وعيهم؟

تبعد قلعة مكونة بحوالي 90 كيلومترا إلى الجنوب الشرقي من مدينة ورزازات، إذ كانت في الأصل ثكنة عسكرية أنشأها المستعمر الفرنسي من أجل إخضاع القبائل الثائرة في الجنوب الشرقي بمباركة من التهامي الكلاوي الحليف الأساسي للحماية الفرنسية بهذه المنطقة المقهورة. استعملت كمركز للاختفاء القسري منذ 23 أكتوبر 1980 حين احتضن هذا المخبأ الرهيب أعدادا كبيرة من المختفين طيلة سنوات الجمر والرصاص، فأصبح إلى جانب أكدز الرهيب مختصا في اختفاء الضحايا الصحراويين قسرا. الارتفاع المهول لدرجات الحرارة خلال فصل الصيف والبرد القارس طيلة الشتاء بحكم طبيعة المناخ الصحراوي الذي يسود في البلدة، شكل خطرا على صحة المختفين الصحراويين فيما بعد، فضلا عن التهديد المستمر للعقارب والأفاعي. بمعتقل قلعة مكونة السري زنازين مبنية بالطين ومغطاة بالقصب والتراب. لا ينفذ لها الهواء إلا عند فتح الأبواب الحديدية، لأن النوافذ مغلقة دائما. عرفنا بعد ذلك أن هناك زنازين انفرادية للتأديب والتعذيب لا تتجاوز مساحتها مترا مربعا بدون نافذة. مع اقتراب فصل الشتاء تغير الجو. فصل الأمطار في بدايته والثلوج فوق القمم

وعلى أبراج المراقبة تعكس بردا قارسا لا يطاق. أجسادنا الضعيفة بفعل سوء التغذية لا تتحمل هذا الطقس. ظهرت وسط السجناء أمراض جديدة لم نعرفها في المخبأ السري آكز؛ كنزلات البرد والحساسية والأمراض الصدرية والبواسير وأمراض المسالك البولية. الشيوخ لم يستطيعوا التكيف مع هذا الطقس الغريب عليهم. أصبحوا يعانون صعوبة التنفس. الشيوخ الذين أرهقهم السجن وسوط الجلاذ هم أكثر عرضة للأمراض.

فقدنا المذياع وسيلة تواصلنا مع الخارج، وتتبع الأحداث الوطنية والدولية. لكن المعتقلين اكتشفوا طريقة جديدة لمعرفة ما يجري من أحداث. جدران السجن مبنية بالطريقة التقليدية وليس بالإسمنت. كانت هناك شقوق في الحيطان منها يتسرب صوت مذياع الحراس. الأبراج الأربعة التي تهيمن على المخبأ يوجد تحتها غرف يسكنها الحراس. استطاع المختفون قسرا بفضل سلك معدني عثروا عليه صدفة، أن يوسعوا شق الحائط حتى أصبح ينفذ إلينا حديث الحراس وصوت المذياع بكل وضوح. كل ليلة، وقت نشرات الأخبار يستمع الحراس إلى أخبار الصحراء الغربية، والتحليل السياسية والعسكرية من خلال الإذاعة الوطنية للجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية التي يتابعونها بكل اهتمام. نعرف أين وصلت القضية الوطنية، فتزداد معنوياتنا ويكبر الأمل فينا، فننسى عذاب المخبأ ومعاملة الجلاذيين. هكذا عوضنا ضياع المذياع بهذه الوسيلة الأقل خطورة. بسبب العزلة المفروضة علينا، اكتشفنا طريقة نمرر بها الأخبار من خلال رموز اتفقنا عليها " الناقة " تعني المذياع " الحليب " تعني الأخبار و " أهل الغنم " تعني جيش التحرير الشعبي أو الثوار. لهذا الناقة والحليب وأهل الغنم متفق عليها بيننا أنها أخبار مهمة تعني القضية الوطنية.

طريقة اختفائنا ومعاملتنا من طرف زبانية المخبأ مبنية على المفاجأة. في أحد الأيام باغتونا وكسروا صمت الهدوء بعد ما تكيفنا مع واقعنا الجديد وحياتنا الجديدة. وجوههم متجهمة وأعينهم الحاقدة تخترق أجسامنا. بكل عدوانية أخذوا يخرجوننا الواحد تلو الآخر بالسب والضرب والألفاظ النابية، يرموننا مقيدي الأيدي ومعصوبي العينين في الشاحنات. يبدو أنها رحلة عذاب أخرى نحو المجهول. كم ستستغرق رحلاتنا السياحية القسرية في هذه المخابئ السرية؟ فحسب القوانين والأعراف الدولية؛ للسجناء الحق في أن يسجنوا في أماكن قريبة من عائلاتهم، وأن تكون هذه السجون في أوطانهم. لكن نحن لسنا سجناء نحن ضحايا اختفاء قسري ما يجعلنا عرضة لأماكن مجهولة لا يستطيع أحد التعرف عليها، حتى لا يفتضح أمرها. لأن الدولة المسؤولة عن اختفائنا تريد ذلك كعقاب لنا. في كل رحلة نفقد عزيزا استشهد من فرط سوء النقل والمعاملة. اللهم أحفظنا هذه المرة من موت محقق. بعد ساعة تقريبا من الرحلة توقفت الشاحنات. أخذوا يرموننا كالأكياس على الأرض. معصوبو العيون، لا ندري أين سنقع هل في حفرة أم في فرن أو هاوية؟ ما إن تصل الأرض حتى يسرع بك جنديان من القوات المساعد إلى داخل منزل كبير. المكان يغمره عبير البرتقال - كانت رحلتنا خلال فصل الربيع - المكان مختلف تمام عن أكدز وقلعة مكونة من حيث العمارة. تبدو عليه صفات القصور. قد يكون من قصور القائد لكلاوي الذي طوع المنطقة ظلما وجورا. وسط فناء القصر وبين الأشجار الوارفة الظلال توجد ساقية تجري بالماء وهي طريقة تقليدية يستعملها سكان القرية لسقي ضيعاتهم. ربما لكلاوي في تلك الفترة أراد أن تمر من قصره للتحكم في السكان وفي أرزاقهم. استرجعنا أنفاسنا بعد أن اطمأننا على الجميع أنهم بسلام. وأخذنا ندرش في سبب رحلتنا بواضحة النهار نحن الذين دأبنا على السفر في الليل المظلم. فعلا أسبوع قبل رحلتنا لاحظنا

وجود طائرات مروحية في سماء قلعة أمكونة تقوم بعملية تمشيط للمنطقة. وأن هناك حركة غير عادية وسط صفوف الحرس. لكن نحن اعتدنا على هذه التغيرات المفاجئة حتى أصبحت روتينية بالنسبة لنا.

يقع معتقل سكورة على بعد حوالي 38 كيلومترا من ورزازات المدينة. عبارة عن قصبة في الأصل في ملكية عائلة أيت الشعير من أعيان سكورة، قبل أن يستولي عليها التهامي الكلاوي وينصب فيها خليفة. القصبة عبارة عن بناية كبيرة على شكل قصر. طبيعة مقامنا الجديد جعلتنا نستعيد شيئا من الحياة بفضل شقشقة الطيور وأريج الورود وعير الأشجار. في الليل تفوح رائحة المسك من بعض شجيرات الورود. جميل هذا الهواء العليل لو كان خارج أسوار المخبأ. شيء ثمين في حياتنا نعتبره غذاءنا الروحي افتقدناه وهي الأخبار. افتقدنا كثيرا طريقة تتبعنا لأخبار القضية الوطنية واشتد الحنين إلى " الناقة ". لبثنا في القصر عدة أيام ثم تم نقلنا إلى قلعة مكونة مرة أخرى. ما إن وصلنا حتى هرعنا إلى الحائط نعانقه من جديد لعلنا نرتوي من حليب الناقة بعد ظمأ طويل. المهم أننا بجانب ناقتنا وأن المخابئ السرية، مهما اختلفت في عمارتها وطبيعتها تبقى بالنسبة لنا مخابئ قهر وألم وعذاب. رحلتنا لم تكن بريئة من قلعة مكونة. ملك المغرب الحسن الثاني قام بزيارة إلى قلعة الورود / الأشواك بالنسبة لنا. كان ذلك شهر أبريل 1981. ولكيلا يفتضح أمر المعتقل السري بهذه المنطقة، تم ترحيلنا تعسفا إلى منطقة سكورة التي عرفناها لاحقا. وقد وضعت الصحفية الفرنسية سؤالا على الملك عما إذا كان يوجد معتقل سري بقلعة مكونة فأجابها " قلعة مكونة هي عاصمة الورود. " " في قلعة مكونة لا يوجد شيء سوى الورود. " لكن الورود ليست، ورود المروج والهضاب، بل هي ورود بذرت هنا بفعل الظلم والبطش لتنبت أملا جديدا يتأسس على ربوع الصحراء الغربية، وسخطا عارما على القهر والتعذيب.

معالم مقبرة أخرى في قلعة مكونة أصبحت تضم شهداء صحراويين على غرار مقبرة أكدز. بعد أحمد سويلم الترفاس. قافلة الشهداء تشد الرحال. أينما حللنا سنترك رجالا أو نساء من طينة العظماء، بعيدين عن أوطانهم وبعيدين عن عائلاتهم؛ يموتون في أرض الغرب بلا حياة، من جلد وضع مسبقا مخططا جهنميا للقضاء عليهم. فقدان أي شهيد يعني أن الحزن فينا يتجدد، وأن للحرية ثمننا وأنه مهما عانينا وقاسينا، فهناك ما يجعلنا نتشبث بالحياة أكثر.

يوم 27 ماي 1983، رحل إلى الرفيق الأعلى السالك عبد الصمد الرجل الورع والمتدين. أصبح يشكو من وعكة صحية ألزمته الفراش. يتميز بالصبر والصمود. اعتقل مع زوجته الشهيدة البتول سيدي وابنتيه المامية وفاطمة. تألم كثيرا لكنه كان يقول لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. يحاول جاهدا ستر ألمه حتى لا يتأثر من حوله. كان كثير الأسئلة عن الصحراء والقضية وتطوراتها. يريد أن يعرف أي شيء يثلج صدره. يبتسم وتبدو الراحة على وجهه رغم ألم المرض حين يسمع خبرا مفرحا عنها. على فراش الموت يسأل فقط عن أين وصلت القضية الوطنية وهل من أخبار عن الصحراء الغربية؟ السالك ولد عبد الصمد من مواليد 1916 بالساقية الحمراء. تم اختطافه فاتح مارس 1976 بنواحي مدينة الطرفاية.

في هذه الأثناء تم تنقيب القوات المساعدة المشرفة على تعذيبنا وقمعنا، وتعيين ضابط آخر. من خلال مظهره وكلامه يبدو طيبا. لكن المظهر دائما يخدع. " إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا¹⁰⁰" من خلال هذه الآية الكريمة ارتسمت لنا معالم الرجل. سياق هذه الآية الكريمة هو حين استقبل الرسول (ص) سجناء الكفار، فخطبهم بهذه الآية

الكريمة. هل يومئ لنا بأننا لسنا مسلمين وأننا كفار وأنه تجوز معاملتنا هكذا. لكن الرسول الكريم أوصى بالمعاملة الحسنة للأسير، ولو لم يكن من دينك. تغيرت نسبيا أحوال السجن وأخذ يكتف الزيارات إلى المعتقل، ويراقب ويسأل ويتكلم كثيرا. أتى بملابس مستعملة وكانت فرصة لتغيير ملابسنا المرقعة، انتهزنا الفرصة لتجديد لوحات الكتابة بالصابون. لم ننقطع أبدا عن الدراسة بل جعلناها ملاذا لنا لتجاوز واقعنا المر، وأيضا بفضل المذيع المتوفر عند الحراس، كنا نتابع الأنباء والتحليل وكل شيء يخص قضية الصحراء الغربية. حتى الحراس مهتمون لأنهم لا يغيرون أمواج الإذاعة، يبقون فقط على إعلام الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب، لتتبع أخبار المعارك كمن لا يثق في إعلامه الرسمي. لم تدم طيبوبة الضابط الجديد المسمى " صالح " وجفت دموع التماسيح لديه. كثر عن أنيابه وظهر بوجهه الحقيقي فأصبح " طالح ". أخذ ينكل بالمخفين ويمارس عليهم أقوى الضغوط النفسية والجسدية. لتنفيذ إرادته، اجتهد الجنود في ضرب وتعذيب الضحايا لأبسط الأسباب ومرات كثيرة بدون سبب. دخل علينا مرة والحقد يتطاير من عينيه، أمر بتحليق رؤوسنا وشواربنا ولحاننا، أقسم بكل إيمانه أنه فقط رحمة بنا، لم يأمر بتحليق حواجبنا وأننا جد سعداء مهددا لنا، برميننا كجيف في مكب النفايات حين قال " احمداوا الله أننا ندفنكم على الطريقة الإسلامية حين تموتون. الأجدر أن ترموا في المزابل لتأكلكم الكلاب كالجيف ". حتى الشيوخ بوقارهم، لم ينجوا من ممارسته هذه لإهانة نخوتهم. لكن هيهات له. مزاجية الشخص تحولت إلى الأسوأ كما عرفنا من بعد، إثر وصول ضحايا صحراويين جدد لمخبأ قلعة مكونة. كلما جاءت مجموعة إلا وانقلب السجن رأسا على عقب، وتغيرت المعاملة من سيئ إلى أسوأ، بحسب مزاجية وعدوانية النقيب. ليس هناك معيار خاص لطريقة التعامل معنا.

رغم المعاناة كان بداخلنا شيء يرفض هذا الواقع، بل يتحده " في كل إنسان شيء لا يقهر"¹⁰¹. إن كانوا يريدون موتنا، فنحن نريد الحياة وسوف نعيش. سنهزم اليأس الذي يحاول أن يسيطر على نفوسنا. لهذا تأسينا بعضهم في التاريخ نكل بهم وعاشوا ألوان الاضطهاد. تجاربهم التي صقلتها المعاناة هي مثال لنا. الرسول الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام وما عاشه، من ظلم أقاربه حاملا رسالة سلام وتسامح أبدي. موسى عليه السلام وهو في التابوت، حيث رمته أمه في النهر خوفا من بطش فرعون، فنجأ وأعيد إلى أمه كي تقر عينها به. يوسف عليه السلام في تحمله ظلم أخوته، فجلس على عرش مصر. أيوب في صبره لألم المرض. الصبر فضيلة لتجاوز المحن. سقراط الذي أعدم وهو يدافع عن أفكاره في الديمقراطية. عمر المختار الشيخ المجاهد الذي أعطى الدليل على أن الشعوب التي تعترف بقيمتها وتاريخها لا يمكن إبادة، مهما عاشت من ويلات الظلم والاضطهاد. المناضل العالمي نيلسون مانديلا الذي واجه الفصل العنصري وبنى دولة حديثة مبنية على قيم حقوق الإنسان والعدالة والمصالحة. المناضل الحر باتريس لمومبا الذي رفض احتلال بلجيكا لبلده ومات شهيدا من أجلها. توماس سنكار رمز النضال الأفريقي. الشهيد الولي مصطفى السيد الذي سخر حياته وقدمها قربانا في محراب الحرية ليعيش الشعب وقبله محمد سيدي إبراهيم بصيري وهما لم يتجاوزا الثامنة والعشرين من العمر. شخصيات أثبتت أن أيمان الإنسان بقضيته، لا يمكن أن يضعفها أي قمع مهما كان حجمه.

لم يقتصر مذبأ أكدز السري على المختفين الصحراويين لسنة 1976؛ بل بعد رحيلنا منه إلى مذبأ قلعة أمكونة؛ حل به ضيوف صحراويون آخرون، ليزوقوا مرارة التعذيب والألم. كأن أكدز أرض ميعاد لغير

المحظوظين من الصحراويين، الذين طالتهم آلة الاختفاء القسري. لقد تخصص هذا المركز الرهيب للاختفاء القسري، في إيواء الصحراويين حتى أصبح مع مركز قلعة مكونة، مقرونا بكل ما يتعلق بتراجيديا ظلم وتعذيب، وصراخ وألم، وأنين ستظل وشم عار على جدران هذين المخبأين السريين.

انطلاقا من 1981، تم ترحيل صحراويين مختطفين إلى أكزز، لتدور طاحونة التعذيب من جديد في مشهد مرعب. شهر أبريل 1984، تم أيضا ترحيلهم بعد ذلك إلى مخبأ قلعة مكونة؛ ليصبح تجمعاً لكل ضحايا الاختفاء القسري الصحراويين.

12 يوليوز 1981، التحقت مجموعة من المختطفين الصحراويين بأكزز وهم (14): يحظيه أكدر الملقب بمصباح - عمر الحسان بوتكنيش - محمد أسكران - بشرايا أبا حازم - العثماني محمود - بوجلال عالي - عميمي سريد - بلاغ إبراهيم - حميتي الجميعي - بلة علوات - أمربيه ربو ماء العينين - ديحان خطري البوهالي - نجيب الإفريقي - السالك التروزي.

من النساء التحقت بمركز الاختفاء القسري قلعة مكونة يوم 14 فبراير 1982: هند (اهنيو) أحمد ناجي - خديجتو لمغيمظ. (02)

بعدها بأيام التحق بهم من درب مولاي الشريف (28): سيدي أحمد رحال - عمر ولد الشيخ أعلي بهان - مسعود ولد الشيخ أعلي - جناح المختار ولد عبد الله - المحفوظ الحيحي الروبيو - بوشلعة الركبيبي يحظيه - إبراهيم البشير السباعي - الركبيبي محمد سالم بيصة - محمد سالم ولد عمير - محمد فيظل ولد العروسي - لعروسي بنصالح - البشير اعمنة - محمد بويأبيري - عبيد ولد عبد القادر الدعكي - المين ولد عبد القادر الدعكي - البمباري مصطفى - عبد الله ولد الشويخ - الحبيب الإدريسي جاميكا - يحظيه المامي - الاغظف لعسيري - محمد بوصولة - العثماني

محمد سالم - السالك ولد بهية - الطاهر اليزيد - أبهي محمد فاضل -
سيدي ابراهيم أعبيليل - أحمد سالم عبد الحي لبروتو - محمد بمبا كاية.

من النساء: منة أعلي بهية - أخديجة العبد (غذانة) - المعلومة منت
مامين - عبدة بنت مامين - فطمتو خندود - نفيسة الحبيب - فطمتولام
الحيرش - المكولة سيدي يحي - السالكة محمد الناجم البخاري - يهديها
حيمودة - المستحية حيمودة - الدكجة الطالب - السالكة بابا خيا - السيدة
بوتباعة - سكيانة جد اهلو - البتول ابراهيم - منت أخوالها حمادي -
السيدة محمد عالي أحميدة - مباركة بنطالب - اكليمينه اليزيد - فاطمة
الزيعر محمد الشيخ - متو علي سالم محمد مولود (أنزوم) - منتو حسنة
الركيبي - منتو سكيانة أحميدة - رغبة الكديري - السالمة الليلي¹⁰². (26)
وبتاريخ 4 يوليوز 1982. التحق بقلعة مكونة كل من (06): الزيغم
صالح - ابراهيم الاسماعيل - محمد الاغظف فضيلي - عبد العالي عبد
المجيد بوسروال - ولدا محمد الشيخ البخاري - بلح خطري البوهالي.
من النساء الأخنتين: مريم محمد الشيخ البخاري (النيهة) - السيدة محمد
المساوي (02)

التحقت مجموعة أخرى من (14) فردا بمركز مكونة يوم 10 غشت
1982 دون أن تمر بأكدز. البلال ولد فديد - عياش الطيب ولد الجيلالي
الملقب دبو - عثمان السويح - النعمة بابيت - الطنجي عبد المجيد -
الطنجي الحسين - المحجوب بيه - أمبارك ولد الداهاة - علي حسن كربالي
الملقب بعلوية - سويدي محمد أحمد ناجي - بوحودة مولاي لفديد -

102 - تمت الاستعانة بالرفيق يحظيه خليفة محمد مصباح، سكيانة بنت جد اهلو، فطمتو لام الحيرش والدكجة الطالب.

البشير بوتباعة - محمد سالم ولد آبا أحمد محمود الملقب بزيرويل - محمد
ولد الحسين ولد محمد (خايمي)

يوم 14 يوليوز 1982، اعتقلت بمدينة الطنطان خلال زيارتهم للعائلة؛
النجاة محمد عالي خنيبيلا وزوجها ابراهيم اعلي سالم خنيبيلا مع ابنتيهما
حياة التي لم تتعدى ربيعها الثالث - من الجالية الصحراوية بالديار
الفرنسية - تم نقلها الى مدينة أكادير ليلتحق بها زوجها بعد أن تركوا
حياة الابنة بمدينة الطنطان. اعتقل والدهما محمد عالي اخنيبيلا وابن عمها
عمر الفاخوري بنفس المدينة للضغط عليها. سبعة أشهر بمخفر الشرطة
من الاستنطاق والتعذيب. مقابل الافراج عنها وعن زوجها ومنحها كثيرا من
الاغراءات المادية بالداخل والخارج، اقترحوا عليها تزويدهم بكل المعلومات
المتعلقة بالمناضلين الصحراويين. غير أنها رفضت رفضا قاطعا مفضلة
الاختفاء القسري على المس بمبادئها. تم الافراج عن أبيها وابن عمها بعد
خمس عشرة يوما من الاستنطاق والتعذيب. في 13 فبراير 1983، تم
التحاق النجاة محمد علي خنيبيلا وزوجها بقلعة أمكونة حيث تعرضا لكل
أنواع الحرمان من تغذية وتطبيب داخل زنازين انفرادية قبل أن تنضم إلى
مجموعات المختفيات الصحراويات الأخريات¹⁰³.

في 18 فبراير 1983 تم ترحيل مجموعة من ضحايا الاختفاء القسري
الصحراويين من الداخلة إلى أكادير ثم إلى قلعة مكونة (08). اختطفوا
غشت 1981: ابراهيم حمودي الطيب الصبار- أمبارك الحسين عبد الله
حيجي - الصديق يحظيه عبد الله بلاهي - عمي بابا - أمبارك فراحي -
السملالي الحسين - بنعلي عبد الهادي المصور - ماء العينين محمد سالم
ولد المختار.

103 - شهادة ادلت بها ضمن شهادات سلسلة التعريف بضحايا الاختفاء القسري باكدز وقلعة مكونة. من اعداد:
العربي حسن أحمد ومراجعة سلمها الناجم.

في 14 أكتوبر 1983. مجموعة أخرى من الصحراويين التحقوا بقلعة مكونة وهم (09): البشير لخفاوني - سيد احمد الباهمو - أباتي الصالحي البشير - أمحمد الكيحل البشير - أحمد محمد لميسة - محمد لمحيظ - ابراهيم أحمد بابو. كما تم التحاق: لمابط أحمدو - عوبة سيدي محمد مبارك بهذه المجموعة.

من النساء: - سكيانة بنت الحسان - دكالة لمام الخراشي (02).

في 26 فبراير 1984 التحقت بقلعة أمكونة دفعة جديدة (15) وهم: محمد سالم العياشي - محمد عبد الله البشرة - سلامة الصبار - أحمد لحبيب زريكنات - محمد أمبارك زريكنات - محمد عبد الله عدنان - مصطفى ابراهيم عبي - ابراهيم عبد الرحمان - محمد فاضل عبد الله الحبيب - ابراهيم عالي الزروالي - الدحة حمدي برك الزروالي - يحظيه الركبيبي ولد الناجم (باني) - حمنة محمد أمبارك سيدي أعلي - مصطفى أحمد حم الإدريسي - سيدي نافع الإدريسي.

في تاريخ مارس 1985. دفعة أخرى التحقت بمعتقل قلعة مكونة وهم (05): الفيلالي عبد الباقي - محمد بوجمعة الزريكنات بجة - الديش جامع- الريكاص ناصر- سيداتي لكوارى.

من النساء: السالكة بنت لحسن - الزوينة بنت مفتاح - لهبيلة يحظيه أمبارك- سباحة الحبيب الساعدي. (03)

20 يونيو 1987 تم اختطاف صحراويين من مدينة السمارة (02) وهم محمد الأمين العياشي - بلة الكنتي تم نقلهما إلى العيون بسياسمي وجدوا أمامهم مجموعة من الصحراويين المختطفين من مدينة العيون تتكون من (12) رجلا وأربع نساء. وهم نويصر الكوري - أزلي الحسين - المحفوظ ولد حم ولد العبد (سيدي) - محمد سالم أعلي بيبا - اليداسية سيدي احمد - النومري ابراهيم - النومري المحجوب - السويح ابراهيم - السويح أعلي

سالم - النومرية حمادي - فنشي عبد الله (البزار) - عليات ولد الناجم ولد لبيهاث (علوت).

من النساء هن: بايا لالة وابنتها دماحة ميارة - عزيزة منت أعلي موسى - الداود غليلي محمد سالم محيمد (03). تم نقل هؤلاء لمدينة أكادير وبعده إلى قلعة مكونة شهر ابريل 1988 حيث قضاوا فيه 24 ساعة وتم تحويلهم لمعتقل سكورة وبعد مدة تم إرجاعهم إلى مكونة ليلتحقوا بالمختفين الصحراويين الآخرين¹⁰⁴.

يوليو 1989 اعتقلت مجموعة من الصحراويين بنواحي زاكورة كانوا يريدون الالتحاق بمخيمات اللاجئين الصحراويين وتم نقلهم إلى مخبأ سكورة ومن ثم إلى قلعة مكونة وهم (04): محمد اللود النومرية - المحجوب محمد النومرية - سويلم النومرية - ابراهيم بوسينية.

سنة 1989، رحل معتقلان صحراويان آخران إلى مركز الاختفاء القسري مكونة، بعدما كانا في مخبأ سري مجهول هما (02):

- محمد البشير ولد مولاي أحمد الليلي، الذي اختفى عام 1983. وللأسف، بعد ثلاث سنوات من العزلة، عانى الشاب محمد البشير من اضطرابات نفسية، مما زاد من معاناة أسرته.

- محمد مولود ولد بوهدة شيخ جليل يبلغ من العمر عتيا.

الغاية من سرد هذه الأحداث هو الوقوف على مسلسل الاختفاء القسري الطويل الذي لم يتوقف طيلة فترة اختطافنا حتى أياما قليلة قبل الإفراج عنا. من 1975 إلى 1989. على ما يزيد من 14 سنة من الاعتقالات والاختطافات والاختفاءات القسرية.

104 - بمساعدة محمد الأمين العياشي والحسين الطنجي ومحمد الزريكانات. مشكورين

انتشر المرض يفتك بالمختفين بعيدا عن الأنظار الخارجية. تفنن الجلاذ في إبداع كل ما يؤلم النفس والجسد. تصلنا معلومات من القسم الآخر من المخبأ، حيث يوجد المختفون الجدد؛ أن صور التعذيب متعددة وغير محتملة. تدهورت الأحوال الصحية للمختفين الصحراويين قسرا. لماذا أينما رحلنا نجد سوء التغذية، وسوء المعاملة في استقبالنا؟ كيف لأجسادنا أن تتحمل هذا الظلم؟ وضعية أصعب من أكدز. لم يعد يقوى أحد على التحرك. يومان تقريبا، لم يستطع أي مختف الخروج، والأبواب مفتوحة. أدرك الحراس أن أمرا خطيرا يحصل. بعد أيام، شهد مركز الاختفاء أمكونة زيارة طبيب. حين وقف على وضعية المختفين، كانت ردة فعله قوية: محتجا على ما شاهده من بؤس ومعاناة. رفض معاينة المرضى، ثم رجع أدراجه قائلا لرئيس الحرس " هؤلاء ليسوا مرضى؛ بل جياع، حسنوا التغذية والمعاملة وسيشفون بسرعة "

احتجاجا على الوضعية المزرية للمعتقلين، ورفضاً للأمر الواقع. قررت النساء خوض إضراب عن الطعام. تلقينا الخبر بكل دهشة، وقمنا باتصالات بهن لإقناعهن بالعدول عن هذا التصرف، لأنه سيكون محنة أخرى يصعب تحملها. تعنتن في الموقف وقررن خوض الإضراب؛ لذا كان من الواجب التضامن معهن. لكنهن رفضن بحجة أن؛ الشيوخ والمرضى لا يستطيعون تحمل تبعات الإضراب، وأنه سيكون انتحارا بالنسبة لهم. بعد مداوات حثيثة وجدية، ونظرا للحالة الصحية لكثير منا، قررنا عدم الخوض مرغمين في هذه المغامرة. خاضت النساء إضرابا عن الطعام لمدة اثني عشر يوما. عانين من كل أشكال التهديد والتنكيل، والعزل والسب والضرب. بقين صامدات، غير متأثرات بما يتلقين من معاملة، في سبيل التضحية من أجل الجميع تحت شعار " إما أن نكون أو لا نكون"¹⁰⁵.

قررت إدارة السجن التفاوض مع النساء. تمت الاستجابة لجل مطالبهن بما فيها تبادل الزيارة وتحسين التغذية والتطبيب. التغذية على قلة افتقارها للسعرات الحرارية يبدو أن مذاقها تغير. أخبرتنا النساء أنهن تكلفن بالطبخ. كان استياء كبيرا من طرفنا، نصحن النساء بعدم الطبخ لأنهن ضعيفات، لا يستطعن القيام بهذا العمل الشاق. لكنهن رفضن وقلن، إنها وسيلة للخروج من روتين المخبأ اليومي. فشرعن يخبزن العجين، وعلى ذكر الخبز كانت النساء تعجن ثلاثة أكياس من الدقيق؛ كل كيس وزن خمسين كلغراما مما جعلهن يعانين كثيرا بسبب عدم قدرتهن على التحمل، حتى أن أياديهن يسلن دما ويقمن بوضع ضمادات من قماش ملاحفهن لكي يعجن تحت التهديد. تحت نار الخشب يطهين الغذاء والعشاء بما توفر لديهن من مستلزمات الطبخ ومواده. حتى الحراس يستفيدون من الخبز المخصص لنا. رغم كل ما يعانیه النساء من أمراض وتعب وحرمان لم يتقاعسن عن أي شيء يمكن أن يحقق ولو قليلا من الراحة للمختفين قسرا. نادر بل فذ نموذج المرأة الصحراوية. شامخة في صمودها، كريمة في جودها ومعطاءة في تضحياتها. الآن على الأقل نأكل طعاما مصنوعا من أياد طاهرة ونقية. كان المجرم " موح الطباخ " شريكا في جريمة تجويعنا بأكدر. كان يعطي الأولية للكلاب وما تبقى يوزع علينا نحن. إهانة ما بعدها إهانة. لم نستسغ إلى اليوم، بعد سنين من الافراج عنا كيف تعاملوا معنا هكذا وفضلوا الكلاب عنا. تنوعت التغذية بالقطنيات والخضر مع بيضتان للفرد في الأسبوع وعلبة سردين في الأسبوع بين فردين. مع الأيام أدركنا أن الطبخ وعجين أكياس الدقيق هو عقاب ممارس على الصحراويات بسبب خوضهن إضراب الكرامة. فرضوا عليهن تحضير الكسكس بدقيق القمح الرطب لتعذيبهن، بحيث يصعب تحضيره بهذه المادة. المختفيات الصحراويات عانين كثيرا وأصبحن يلبسن فقط، ما توفر

من ملابس مستعملة يأتي بها إدارة المخبأ. اختفت الملحفة وضاعت معها الهوية. لكن الصحراويات تفنن في خياطة ملاحف من هذه الملابس المستعملة ولو أنها لا تفي بالغرض. لكن الحاجة أم الاختراع. كما أن الرجال كانوا خلال الزيارة العائلية يمدونهم بملابس تناسبهن لخياطة الملحفة.

المختفيات قسرا في غياهب المخابئ السرية، بكل من أكدز وقلعة مكونة تميزا لهن؛ أطلق عليهن المكونيات (نسبة الى مخبأ قلعة مكونة) الذي كان تجمعا مأساويا لنساء صحراويات رفضن يوما الانبطاح ونموذجا لنساء عشن أفضع الفظاعات وأبشع المعاملات اللاإنسانية؛ من قهر وتعذيب ولامبالاة تجاوزا لكل القيم الدينية والأخلاقية والحقوقية.

كانت الصحراويات مجموعات كالتالي:

مجموعة الطنطان: فاطمة الغالية مولاي أحمد الليلي - فاطمتو محمد عالي دهور - أمباركة علينا ميلد - عيشة الشافعي - دماحة أعلي حميدات - ميمونة عبد الله - تغلى محمد الحسن الليلي - مريم (النيهة) البخاري - النجاة محمد عالي اخنيبييلة - السيدة محمد المساوي - فاطمة محمد علي برهمة النعجة التي استشهدت بأكدز. (11)

مجموعة البيرات: أعزيزة منو - فاطمة عبد الفتاح - خديجتو عبد الفتاح - خديجتو محمد منيصير - منتو محمد منيصير - منينة منيصير - رحمة دليل. (07)

مجموعة العيون: سكيانة منت الحسان - فاطمتو خندود - سكيانة منت حميدة - البتول منت الصالح ولد ابراهيم بالوعبان - الزوينة مفتاح - أهديها حيمودة البلال - المستحية حيمودة البلال - الدكجة الطالب وية - متو علي سالم أنزوم - مينتو حسنة الركبيي - اكليمنية الطيب اليزيد - فاطمتو لمام الحيرش - السالكة محمد الناجم البخاري - لالة ميارة -

دماحة غيثي - أعزيزة موسى - غلي محمد سالم - خديجتو لمغيظ -
السيدة منت البشير بوتباعة - السيدة منت محمد عالي ولد أحميد -
أمباركة منت بنطالب - سكيينة جد اهلو - فاطمة الزيعر - منت أخوالها
الخرشي - رغبة الكديري - نفيسة النفاع - السالمة سيدي المختار الليلي -
دكالة زيدان - السويلكة لحسن - لهبيلة يحظيه - سباحة لحبيب - زيناها
سيدي عبد الهادي.(32)

مجموعة الطرفاية: هند (اهنيو) أحمد ناجي - المامية السالك عبد
الصمد - فاطمة السالك عبد الصمد - البتول منت سيدي أعلي التي
استشهدت بأكدز. (04)

مجموعة بوجدور: السالكة بابا خيا - خيرة أعبيليل. (02)

مجموعة الداخلة: أخديجة محمد العبد (غدانة) - المعلومة منت
الدرجة - أعبيدة منت الدرجة - منة بهية. (04)

هناك حكاية مأساوية لكل امرأة صحراوية؛ في تفاصيلها الصغيرة
تحمل قصصا كبيرة تسكن وعي ووجدان كل مختلف نظرا لجسامتها.
دخلت مراكز الاختفاء القسري. حكاية تعذيب وظلم واكراه بدني ونفسي
فاقت كل التوقعات. لكل سيدة مختفية قسرا حكايتها، إن سمعت إحداها
تحكيها، تدرك أن القمع والمعاملة اللاإنسانية، والمهينة والحاطة بالكرامة
الإنسانية بلغت ذروتها، وأن المثل والقيم والأخلاق أصبحت في خبر كان. هن
هنا ليمتن، وتتم اهانتهم بكل بساطة من طرف جلاذ يتلذذ بكل سادية في
تعذيبهن، وينتقم منهن بدون مبرر.

من الممارسات الغريبة؛ ما حصل مع السالكة بنت محمد الناجم
البخاري التي اختطفت وهي حامل. تحت التعذيب والقمع جاءها مخاض
ونزيف، تم على إثره نقلها الى المستشفى لتضع رضيعتها. بعد أربعة أيام
من رضاعتها نزعوها منها لتسليمها لدار الايتام، بعدما أبعدوا أخيها

الممرض الذي يشتغل في نفس المستشفى الذي أنجبت فيها طفلتها لكيلا يعرف عنها أي شيء. من حسن الحظ أن الممرضة كرامة بنت الحبيب بمساندة ممرضة أخرى فاطمة بنت علوة¹⁰⁶ اقترحتا على إدارة المستشفى تسليم الرضيعة لأسرتها. بفعل الصدمة دخلت في هيسيريا بكاء وصراخ لتفقد عقلها، وتغيب عن هذا الواقع المليء بمشاهد القبح. من سنة اعتقالها 1980 إلى سنة ترحيلها مع المختفيات الصحراويات من درب مولاي الشريف الى مخبأ أكدز السري سنة 1982 وهي فاقدة رشدها. عاشت - بنفس ملابس الولادة دون تنظيفها ومنحها ملابس أخرى حتى تعفنت من فرط الاوساخ والقمل - خارج نطاق القانون والمنطق؛ ألوانا من التعذيب النفسي والجسدي. نزعوا منها مولودتها، ووضعوها في خرقة ملطخة بالدماء، وسلموها لعائلتها. قضت السالكة في الاختفاء القسري ما يزيد على أحد عشر سنة، وهي على يقين أنها فقدت رضيعتها. كما أن أهلها تأكدوا من استشهاد ابنتهم السالكة، تحت التعذيب بمبرر تسليم الطفلة بالخرقة الملطخة بالدماء. وطيلة سنوات الاختفاء، بعد كل صلاة أو مناسبة دينية كانت العائلة تقرأ الفاتحة على روح فقيدتها. كما أن السالكة في كل صلواتها تندب حظها بفقد مولودتها دون أن تعرف مصيرها. عند الإفراج عنها، عرف وسطها العائلي مزيجا من الفرح والحزن والمفاجأة بنجاة ابنتهم من الاختفاء القسري، وفرحا وحزنا بقاء الأم المسلوبة الحرية مع طفلتها التي وجدتها بنتا كبيرة. هذه الواقعة تعبر عن مكر جلد، وعبث سياسي مورش دون مراعاة لحقوق الإنسان. السالكة بنت محمد الناجم البخاري قدمت شهادتها المؤلمة، أمام الدكتور كارلوس بستاين الذي ألف كتابا عن شهادات مختطفات سياسيات من بقاع العالم، بلغت ما يقرب

106 - ممرضتان كانتا في فترة الحقبة الاسبانية ودخلتا خدمة التمريض بعد انسحابها من الصحراء الغربية

مأثتان وستين حالة تمت دراستها. أكد أن فظاعة ما عاشته السالكة البخاري وابنتها يتجاوز كل القيم الكونية.

بكل اعتزاز لعبت المرأة الصحراوية دورا طلائعيا في النضال والتضحيات الجسام. لا شيء يغير من عزائمهن طالما هن هنا من أجل الحرية. عرفت المرأة الصحراوية في تاريخنا بأنها رمز للصبر والتحدي ولكل شيء جميل. الرفع من شأنها في مجتمعنا الصحراوي أمر بديهي فهي: الأم والزوجة والأخت ومربية كل هذه الأجيال، التي جعلت منه مشغلا للانعتاق والصمود والكرامة. يفتخر المجتمع بكل رجل يكرم ويحترم المرأة ويصبح مثالا للشهامة لدى الجميع. في هذه الزنازين تلاحظ أنهم نساء من عالم آخر؛ تشع منهن مفاخر شعب وتتناسل منهن الجرأة والإقدام. لا الخوف يمنعهن ولا الحواجز تعرقلهن ولا سياط الجلاذ ولا السحل أو المخابئ السرية. جبلن على حب الحرية في فضائه الرحب الصحراء الغربية. لن يتفلسن إلا صبا ونسيم هذه الأرض. كم تأملت المرأة الصحراوية وعانت في هذه المخابئ من غياب كل الحقوق الأساسية. المرأة الصحراوية رمز العزة في مجتمعنا تداس اليوم أمام أعيننا ومن خلالها تداس كرامتنا وشهامتنا. لا شيء يبرر أو يعوض هذه الممارسات غير اللاتقة في حق أمهاتنا. بحكمة الأم ميمونة بنت عبد الله والأم البتول بنت سيدي، ينهلن المختفيات قسرا من معالي الصبر. صامدات يتحملن انتهاكات الجلاذ ويتحملن ظروفًا قاسية محرومات من العيش الكريم. يشجعن ويواسين بالرغم من كل شيء إخوانهن الصحراويين. الكل يزرع الأمل والتحمل في الآخر. الثورة أنثى كما يقال وهي رمز للخصب تمنح الكرامة والحرية والمساواة والعدالة. الثورة منطلق التغيير الإيجابي نحو الأفضل وتصحيح أوضاع متخلفة وفاسدة هيمنت زمنا طويلا على عقول البشر واستبدت بأفكارهم. الثورة تؤمن

بالوحدة وترفض التشرذم لأن القبلية سبب مأساة كل الشعوب وسلاح المستعمر لاستعبادها. "سنصير شعبا حين ننسى ما تقول لنا القبيلة"¹⁰⁷ .

الثورة مشروع مجتمعي متكامل وبديل لكل أفق محدود لأنها تعني؛ الانفتاح والانعقاد وتحرير الإنسان من تقاليد وعادات بائدة كبلت العقل الحر وصادرت الوعي. إنها تعني التغيير المتكامل وليس إعادة تدوير الواقع الجاثم على تفكير البشر. الثورة هي ذاك الكمال الذي ينشده الإنسان، كبديل لكل شيء يعيق التقدم والتنمية واستهداف المستقبل. تنظر إلى السماء من أجل الإلهام وتمعن النظر في الأرض كموطئ قدم. لهذا يعانق الثوار قمم الجبال ويغازلون النجوم في عنانها لتحرير السهول والسفوح والهضاب. هكذا تعيش الثورة بنضال حرائرها واستماتة أحرارها. حين تصبح الثورة فكرة وتتحول إلى سلوك وتتبلور إلى استراتيجية ومنهج؛ عندئذ يهون كل شيء من أجلها. المرأة الصحراوية ستظل رمز الخصب والإبداع. إنها بكل اختصار عنوان صمود شعب.

رمز الصومود

منكن حيا الدهر كل مكارم *** بذلت لنيل المبتغى وعظائم
فشارة التحرير، كن على المدى *** وعلى العدى كنتن رمز عزائم
أنتن في الأوطان، بؤرة ثورة *** قد فجرتها معجزات ملاحم
بين الربوع، لكن ذكرى في العلا *** وفضيلة فاقت مفاخر قائم
كم قدرة برزت مواهبها متى *** كشفت حجاب تخلف ومظالم
قد عارض الضعفاء نصر قضية *** وبنوا لها بالجد شر محاكم
خذ حجبا نسخت مقال جهالة *** لك في نساء الربع خير مقاوم
بلغت معاليهن أسمى منبر *** وجعلن بالأخلاق صرح مكارم
بإرادة الأبطال أضرم الوغى *** ومضين للأعداء سر هزائم
من نسوة الصحراء دوت صرخة *** هزت ربوع الربع بعد تراكم
سل في السجون صمودهن شجاعة *** من التجلد، رغم بطش مداهم
في قهرهن، إذا المخابئ تفننت *** نبعت من الآلام، روح تلاحم
رمز الصومود إلى المعالي سرمدًا *** إن المعالي، نور كل دعائم

لم يعد هناك ما يخشاه ضحايا الاختفاء القسري بعدما ذاقوا كل
ويلات وصنوف المعاناة. أحيانا يبلغ بك اليأس أن تجازف بحياتك لتعيش
وكثيرا ما ترفض مجبرا تحت الضغط أمرا يقلص من مجالك الحيوي غير
مبال بالنتائج مهما كانت سلبا أو إيجابا. يعيش المرء مرة واحد ويموت
مرات عديدة؛ لذا العيش بكرامة أفضل من عيشة مهانة. بيننا شيوخ بلغوا
من العمر عتيا. رفضوا هذه الحياة البئيسة وحاولوا الإضراب عن الطعام.
فضلوا الموت على أن تهان المرأة الصحراوية أمامهم في المخابئ السرية بكل

عدوانية. لكن من وهن الجسم لم يستطيعوا التحمل فخارت قواهم مكرهين بفعل سوء التغذية وسوء المعاملة. أعلنوا الاضراب وبعد يومين ظهرت أعراض ضعف وعدم القدرة على الوقوف من بينهم؛ سلامة ولد ديلل الذي كاد أن يفقد الحياة نتيجة تدهور صحته فجأة. كل المختفين الصحراويين يعانون من الأمراض وأجسامهم نحيفة لا تقوى على التحمل. حتى أولئك الذين نعتبرهم أصحاء، هم في خدمة مرضاهم وإن خاضوا الإضراب؛ فإنه الموت الجماعي.

في إطار تحسين الوضعية، أتوا لنا بأحشاء بقرة مرشوشة بالمبيدات، طرد الذباب المتراكم عليها. أمروا النساء بغسلها لإعدادها وجبة للمختفين. لم ينفع معها الغسيل، وطلب منهن رميها في القمامة بفعل الرائحة النتنة المنبعثة منها. وأخبرتنا النساء بعدم أكلها لما قد تسببه من مشاكل صحية خطيرة. ذهبوا بها لكن، في اليوم الموالي أتوا بها كوجبة عشاء. تناولناها بإلحاح من الجوع. ما إن مرت ساعتان حتى فعلت فعلتها فينا. تسممنا كلنا. أصبنا بإسهال شديد وغثيان وتقيء. بتنا نتناوب على سطل النفايات، ولأن الأمر كان أشد مما نتوقع، هناك من أفرغ أمعاءه بالقرب من الباب. بسبب الرائحة الكريهة اختنقت أنفاسنا، وأصبحنا نبحث عن مصدر للهواء والباب مقفل علينا من الخارج. إنها عملية اغتيال جماعية مدبرة بكل حبكة. في الصباح عندما فتحت باب الزنزانة، خرج النزلاء مسرعين لاستنشاق الهواء النقي بعد ليلة تسمم مقصودة كادت أن تقتلنا جميعا. الكل مذهول من هذه العملية/ الجريمة. البعض فقد الوعي والبعض يزحف خارج الزنزانة لا يقوى على الوقوف. كان لهذه الواقعة تبعات صحية خطيرة علينا، هناك من لازمه مرض أمعاء ومعدة مزمنة. من الجانب الصحي؛ كان من الواجب القيام بعملية غسل الأمعاء والمعدة لتخليصها من بقايا السموم. نجونا من عملية الإعدام هذه. وضعيتنا

الصحية تتدهور يوما عن يوم بسبب سوء التغذية. القطنيات لم تتحملها أجهزة الهضم، فكانت سبب مرض كثير من المختفين بالأمعاء. إقامتنا بقلعة مكونة شبيهة بمقامنا بأكدز بكل الحثيات والفصول المتشابهة:

- مرحلة: الموت البطيء من خلال سوء التغذية وعدم التطبيب.

- مرحلة: اتسمت بنوع من الاعتدال، مع كثير من الإهمال في التعامل، مع تغيير في الوجبات الغذائية دون تحسينها.

- مرحلة: تتسم بتغيير في التغذية، مما منح أملا في الحياة. رحلتنا في أكدز وقلعة مكونة؛ كلها بدون استثناء عذاب وقهر، وتجويع وحكم بالإعدام.

انطلقت الزيارة بين العائلات يوم كل جمعة. كنا ننتظر هذا اليوم المبارك بفارغ الصبر، لأن فيه تلتقي العائلات بعد طول فراق ويتم تبادل الأخبار المحصل عليها هنا وهناك. اعتبرت النساء أن المختفين الصحراويين كلهم أباء وأخوة وأبناء. لهذا توسعت دائرة الزيارة إلى أفراد آخرين للاطمئنان على المجموعة، حتى لا يشعر أحد بالميز. والحديث عن الزيارة المتبادلة بين العائلات يدفعنا إلى الحديث عن العدد الهائل للأسر في المخابئ السرية التي تبلغ نسبتها أكثر من أربعين بالمائة وهم كالتالي:

- عائلة محمد العياد (الأب وأبناؤه الخضر وأحمد سالك)

- عائلة مولاي أحمد الليلي (الأب والأم ميمونة والابنان محمد فاضل ومحمد البشير والأخت فاطمة الغالية والعمة تغلي والخال محمد فاضل والسالة سيدي المختار الليلي وإبراهيم الاسماعيلي)

- عائلة السالك ولد عبد الصمد (الأب والأم البتول منت سيدي والابنتان فاطمة والمامية)

- عائلة لحبيب ولد خليلي (لحبيب وعمه عبيد محمد البشير)

- عائلة منو ولد ديل (الأب سلامة والزوجة مريم "النيهة" البخاري وأبنت أخيه عزيزة وأخويها السالك ومحمد صالح ورحمة ديل)
- عائلة أحمد ناجي (الأب وابنته هند وابنه سيدي محمد)
- عائلة الفتاحي الحسن (الزوج والزوجة السيدة)
- عائلة المهدي بارا (المهدي وأخويه الغالي ومحمد)
- عائلة حم البطل (حم ووالدته عائشة بنت الشافعي)
- عائلة أعلي بوياء ميارة (الإخوة أعلي بوياء والشيخ وسيدح والهيبة والبشير ولد لبات أهل ميارة)
- عائلة السالك ولد علي مولود (السالك وأبناء أخيه أعمار محمد وأسلمية وأعلي ولد مصطفى)
- عائلة لكوارى (سباحة والابن سيداتي)
- عائلة النومرية (إبراهيم - المحبوب - محمد - سويلم - العروسي وأخويه المحبوب وحمادي)
- عائلة المحبوب لمديمغ (الأب المحبوب والابن محمد)
- عائلة الدعكي (الأم السالكة خيا وابناها محمد لمن وعبيد)
- عائلة لحبيب ولد احمد لحسن (لحبيب وأخوه الناجم)
- عائلة البوهالي (الأخوان بلح وبركة)
- عائلة أولاد اميليد (الإخوة محمد - سلوك - بلال وابن العم محمد سالم)
- عائلة منينة منت منيصير (منينة وبنات أخوها خديجتو ومننو والعم محمد ولد عبد الله ولد منيصير)

- عائلة محمد سالم عبد الحي لبروتو (الزوج محمد سالم والزوجة فاطمة بنت الزيعر)
- عائلة الطنجي (الحسين وعبد المجيد)
- عائلة أهل ميارة (الوالدة لآلة بنت ميارة وابنتها دماحة بنت غيثي ولد ميارة)
- عائلة أهل البخاري (ولدة محمد الشيخ البخاري وأخته مريم "النيهة" ومحمد الشيخ محمد سالم البخاري ابن العم)
- عائلة العثماني (محمود ومحمد سالم)
- عائلة أهل فديد (البلال ومولاي)
- عائلة زريكنات (محمد - أمحمد وأحمد)
- عائلة بابيت (الولي الأب والابن النعمة)
- عائلة البمباري (المصطفى وزوجته السيدة بوتباعة)
- عائلة أهل باهية (السالك وأخته منة)
- عائلة السويح (عثمان - إبراهيم وعلي سالم)
- عائلة الشيخ أعلي (عمر ومسعود وسلامة)
- عائلة أهل أبيري (أمانة الله ومحمد بونا)
- عائلة أهل اليزيد (الطاهر اليزيد وأخته اكليمنية ليزيد)
- عائلة أهل الدرجة (المعلومة بنت الدرجة وعبيدة بنت الدرجة)
- عائلة أهل عبد الفتاح (فاطمة عبد الفتاح وخديجتو عبد الفتاح)
- عائلة أهل اخنيبييلة (ابراهيم اخنيبييلة وزوجته النجاة محمد عالي اخنيبييلة)

- عائلة أهل الحيرش (فاطمتو لمم الحيرش وزوجة أخيها السالكة البخاري).
- محمد أمبارك ولد سيدي أعلي وبنات أخته الشهيدة البتول (فاطمة والمامية).
- عائلة المجاهد (عالي وسعيد)
- عائلة الزروالي (ابراهيم عالي والدحة حمدي)
- عائلة أعيليل: (سيدي ابراهيم - خيرة أعيليل)
- عائلة الإدريسي (مصطفى أحمد وسيدي نافع)
- عائلة أهل يحظيه (لهيلة يحظيه أمبارك - مغلاها يحظيه أمبارك ويحظيه المين الديماني)
- عائلة أهل البلال (أهديدة أعلي سالم حيمودة والمستحية أعلي سالم حيمودة البلال).

تألم كل أفراد هذه العائلات بآلام مضاعفة. فهو يعيش معاناته ومعاناة أمه ومعاناة أبيه ومعاناة أخته ومعاناة أخيه ومعاناة زوجته ومعاناة عمه ومعاناة خاله ومعاناة ابن عمه؛ ناهيك عن الألم الجماعي. ليس هناك مفر من الألم. انه يحاصره من كل جانب. خطورة الاختفاء القسري المتعلق بالصحراويين تكمن في تجاوزه للأفراد ليشمل عائلات بكاملها، مما جعل الألم مضاعفا.

بالرغم من كل هذا القهر، تأقلمنا نسبيا مع هذا الوضع وأخذنا نسايره ونرفه عن أنفسنا. في اللحظات البسيطة هناك سعادة أبدية. استفادت أيضا النساء فيما بينهن بالزيارات المتبادلة بين الاقامتين التي تتواجد بهن. كما استفاد الرجال بنفس الزيارة مع الرجال في الإقامات الأخرى. مركب الاختفاء القسري يتكون من ست معتقلات.

- المعتقل رقم 01 يتواجد به مجموعة 1976
- المعتقل رقم 02 يضم الصحراويات مجموعة 1976، انضمت إليهن مجموعات النساء اللاتي جيء بهن سنة 1983
- المعتقل رقم 03 يضم الصحراويات مجموعة 1980 ومجموعة 1981
- المعتقل رقم 04 فيه مجموعة من الصحراويين يتجاوز عددهم الخمسين رجلا
- المعتقل رقم 05 يضم مجموعة من الصحراويين أيضا يطلق عليها مجموعة الستين.
- المعتقل رقم 06 يضم باقي المختفين الصحراويين.

مع الوافدين الجدد، تزودنا بكثير من الأخبار عن تطورات قضية الصحراء الغربية، خاصة على المستوى العسكري والدولي مما جعلنا نرفع التحدي أكثر. هناك من الشباب من يروي لنا أنهم قاموا بأعمال نضالية مثل توزيع المنشورات والملصقات ومن هم من قام بحرق بعض سيارات السلطة وأن المنطقة في حالة فوران. وأن الاعتقالات والاختطافات لا زالت مستمرة في المدن والبادي الصحراوية.

من بين هؤلاء الشباب؛ السالك التروزي الفنان الكبير العازف على الغيثار. سجل له تاريخ الاختفاء القسري لحظات إبداع، جعلت الصحراويين يتجاوزن أسوار المخابئ، ويعانقون سماء الحرية. لحظات حلم تحدينا فيها الجلال والتعذيب والقهر. قرر أن يعطي دروسا في الموسيقى، وانخرط الشباب في تعلم العزف على الغيثارة. السالك التروزي ماهر في مداعبة الأوتار وفي صنع آلة العزف. من الورق المقوى يضعه طبقات، ويستعمل الدقيق لجمعه. يختار بكل دقة الأوتار من خيوط

يستخرجها من الملابس المستعملة التي يأتون بها. قسم وقته بين المخابئ يعطي دروسا في الموسيقى، ويعزف لنا الأغاني الثورية التي زادت من حماسنا، وشكل فرقا غنائية تشارك في الاحتفال بالمناسبات الوطنية، كما يصاحب بعزفه المسرحيات التي نقدمها. لحظات استثنائية تنبع من رحم المعاناة لا تصدق انصهر فيها المختفون؛ شيبا ورجالا وشبابا ونساء في ملحمة خالدة تتجاوز الجلاء وآلته القمعية. لحظات استثنائية جعلت من فصولها أوبرا غنائية تحكي مأساة تراجيديا إنسانية، ضحيتها صحراويين بعيدا عن أهلهم وعن أرضهم. تزامنا مع هذه اللحظة النوعية، يوم 13 يناير 1983 توفرنا على أدوات الشاي. العزف والشاي والحديث المتنوع جعلنا نسمو فوق الخيال وغمرتنا سعادة تتحدى اللحظات العصيبة. نسينا واقعا وأبدع الشعراء باللغة العربية وبالحسانية قصائد تؤرخ لمعاناة المختفين أمثال: محمد ولد فيظل ولد لعروسي وسيد أحمد رحال وعالي بوجلال وسلوك ولد سيدي الشيخ والسليكة السالك ومحمد أمبارك الموحد ومحمد سالم ولد المختار وعبد القادر ولد الزحاف وآخرون. وفي اللغة العربية قال شعرا كل من عبد الرحمان خواجه ومحمد بوخالد وبلاهي الصديق ومحمد عالي محمد الحيسن وإبراهيم الصبار. الطرب الحساني تحت أوتار الغيثارة وصوت المغنيين أمثال محمد بوشيبة وعبيدة الدعكي وعبد المجيد الطنجي وبلاغ إبراهيم (الخميني) تجعلنا نفكر بالموت والحياة في آن واحد. موت رفاق لنا تحت سياط التعذيب، وسوء التغذية والمعاملة تارة، وفي الحياة التي نتطلع إليها تارة أخرى؛ لأننا نريد أن نعيش. هذا الشباب الملتزم والواعي بقضيته، ضح في عروقنا دماء جديدة نحن المختفون قسرا منذ 1976.

يوم 13 نوفمبر 1983، محمد ولد إبراهيم بدا استشهد بعد معاناة طويلة مع المرض. ازداد سنة 1920 بالكونية واعتقل سنة 1976 بمدينة

كليميم. كان رحمه الله من كبار التجار بمنطقة وادنون. كريم ومتواضع وكثير الدين، ومؤمن بحتمية انتصار قضية أعطى فيها كل حياته. على فراش الموت كان يسأل عن أخبار الصحراء الغربية وانتصارات جيش التحرير الشعبي. مثله مثل السالك ولد عبد الصمد يرتاحون وتقرأ على وجوههم السكينة، والطمأنينة بالنبأ الجميل.

حدث أمر جديد على الساحة الدبلوماسية الإفريقية. حيث اعترفت منظمة الوحدة الإفريقية بالجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية؛ في القمة التي احتضنتها أديس أبابا كعضو في المنظمة، يوم 12 نونبر 1984 على إثر انضمامها انسحب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية. تعود كرونولوجيا قضية الصحراء الغربية، بهذه المنظمة إلى شهر يناير من سنة 1976، حين أوصى اجتماع لجنة التحرير التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية في مابوتو عاصمة دولة الموزمبيق، بالاعتراف بجهة البوليساريو "كحركة تحرير افريقية" وفي 27 فبراير من نفس السنة أعلنت جبهة البوليساريو، قيام الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية لسد الفراغ السياسي والمؤسساتي بعد جلاء آخر جندي إسباني من الصحراء الغربية. وفي مؤتمر منظمة الوحدة الإفريقية بالخرطوم في 17 يوليوز 1978، طالب قادة الدول المشاركة في المؤتمر بوقف العمليات العسكرية في الصحراء الغربية، مع ضرورة البحث عن حل سياسي للنزاع على ضوء قرارات منظمة الوحدة الإفريقية، ووفقا لميثاق الأمم المتحدة. خلصت القمة إلى إنشاء لجنة الحكماء من خمسة رؤساء أفارقة؛ ضمت كل من رؤساء السودان وغينيا ومالي ونيجيريا وتنزانيا، لدراسة معطيات نزاع الصحراء الغربية بقصد تقديم اقتراحات وتوصيات محددة لمؤتمر القمة القادم. وفي سنة 1979 بالعاصمة الليبيرية مونروفيا؛ أوصت منظمة الوحدة الإفريقية من خلال قمتها بضرورة " ممارسة شعب الصحراء الغربية حقه في تقرير مصيره

من خلال استفتاء عام وحر" كما أوصت قمة دولة سيراليون سنة 1980 بضرورة الإسراع بتنظيم استفتاء حر لتحديد مصير المنطقة. وفي سنة 1981 أعلن ملك المغرب الحسن الثاني في خطابه بالقمة بالعاصمة الكينية نيروبي عن قبول المغرب إجراء استفتاء في الصحراء الغربية. وفي شهر فبراير 1982 خلال الدورة الثامنة والثلاثين لمجلس وزراء الخارجية الأفارقة المنعقد بأديس أبابا تم الإعلان عن قبول طلب الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية كعضو كامل العضوية في منظمة الوحدة الإفريقية بعد موافقة 26 دولة من الأعضاء لتصبح بذلك العضو الواحد والخمسون في منظمة الوحدة الإفريقية. كانت ستحضر الجمهورية رسميا مؤتمر القمة بطرابلس العاصمة الليبية، لولا ضغوط الولايات المتحدة الأمريكية على بعض أعضاء الدول الإفريقية نظرا للخلاف القائم بين الرئيس ريغان والعقيد القذافي؛ مما جعل المؤتمر يفشل بسبب عدم توفر النصاب القانوني. وخلال قمة منظمة الوحدة الإفريقية في 12 نونبر من سنة 1984 بالعاصمة الإثيوبية؛ حضر لأول مرة زعيم جبهة البوليساريو محمد عبد العزيز كرئيس للجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية.

كانت ردة فعل المسؤولين عن إدارة السجن قوية وسلبية ضدنا وكأننا نحن من رافعنا عن انضمام الجمهورية وانسحاب المغرب. فتقهقرت وضعيتنا نحو الأسوأ. عزاؤنا الأخبار التي نسترق السمع إليها من الجدران التي بفضلها تجعلنا أقوىاء في مواجهة المعاناة. اشتدت رحى الحرب واشتد معها التنكيل بنا. أي معركة بين الطرفين المتنازعين تعني تعذيبنا كانتقام. هكذا يقولون لنا وهم يضربوننا ويسيتئون معاملتنا. استمر الحال عدة شهور كأنها قرون وعانى الصحراويون في "قلعة مكونة" على غرار "أكدز" كل أنواع الظلم والتنكيل. أصبحت حياة المختفين الصحراويين قسرا مهددة بفعل عامل سوء التغذية والتعذيب النفسي المصاحب لها. أعداد المرضى في

تزايد أكثر من أي وقت. لا يعقل لهذه الأجسام النخرة أن تتحمل، من سنة 1976 إلى سنة 1984 كل هذا البؤس وهذه المعاناة. رحماك رب إن البطش لشديد وسوء التغذية قاتل وانعدام التطبيب أضحى أمرا لا يطاق. كل صباح نخشى من موت مختلف وكل مساء نخشى أن يغادرنا إلى دار البقاء رفيق. ننام الليل ولا ندري هل سنستيقظ أم لا (صحيح أن الموت بيد الله) لكن أطلال هؤلاء الأبطال أصبحت تطالها عوامل التعرية نحو الاندثار. أخشى أن تتحول آمالنا في الحياة إلى أنقاض.

كتحد لهذه المعاملة أنشد أعلى بويا عمر ميارة "كاف" شحذ به همم الصحراويين رغم المرض والمعاناة قال فيه.

لم جاتك باللي تختير *** يا الشعب وراعي لختيار

تبغي استقلالك والخير *** وال فالويل ولستعمار

بيتان من الشعر الحساني تحملان أكثر من دلالة. تضع الصحراوي المختفي قسرا أمام أمرين بعد انضمام الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية لحظيرة الوحدة الإفريقية وإقرار الاستفتاء لتقرير المصير. إما العيش الكريم والاستقلال أو أن تعيش الذل والاستعمار.

لحبيب ولد أحمد لحسن؛ على إثر عملية تطهير قنوات الصرف الصحي التقليدية، من طرف المختفين الصحراويين قسرا بالرغم منهم - في غياب وسائل التطهير؛ يفرضون على من يختارون بيننا بالقيام باستعمال يديه لاستخرج القذارة العالقة في المراحيز. يقوم هؤلاء بعد عملية التطهير بفرك أيديهم بالتراب وغسلها بالماء والصابون - لم يستطع لحبيب تحمل الرائحة الكريهة. أصيب بتعفن رئوي فارتفعت حرارته وسقط بالحمى. بعد ثلاثة أيام من المعاناة وغياب المضادات الحيوية لمحاربة الالتهاب الصدري انتقل المرحوم إلى الرفيق الأعلى. لحبيب ولد أحمد لحسن، رجل

شامخ يتميز بأنفة الصحراوي الأصل. اعتقل يوم 25 يناير 1976 واستشهد يوم 17 أبريل 1986.

حين تفاقم الوضع وأصبح واضحاً أننا نخضع لتطورات أحداث القضية الصحراوية، بحيث تتأرجح وضعيتنا بين الأردأ تارة والأحسن تارة أخرى حسب المعطيات الخارجية. جاء الطبيب وأخذ في فحص المرضى وإعطاء الدواء. تنوعت التغذية بين الخضر وعلب السردين وأحياناً شيء كأنه اللحم مع تنوع القطاني من عدس وفاصوليا وفول وجلبانة. لم تطمئن القلوب كثيراً لهذا الوضع. إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة. نحن على علم أكثر منهم بما يدور من أحداث وتطورات على الصعيدين الوطني والخارجي. لهذا تبقى الشكوك قائمة إلى أن يثبت العكس. سمحوا لبعض مرضانا بالذهاب بهم إلى المستشفى لإجراء عمليات جراحية. مخاطرة كبيرة بأن تتم عمليات جراحية للمرضى، وهم في هذه الوضعية البئيسة من سوء التغذية منذ سنين. وطأة الألم أجبرت المرضى على خوض المغامرة غير المحسوبة العواقب. كان أول من ذهب إلى المستشفى لإجراء فحوصات طبية؛ هي النجاة محمد علي اخنيبيلة. والغريب أن نقل المرضى يتم عبر شاحنات القوات المساعدة وليس عبر سيارات إسعاف من مخبأ قلعة مكونة الى ورززات، حيث يوجد المستشفى الإقليمي. أحياناً ينقلون مجموعة من المرضى في ظروف غير صحية وبعد أربع وعشرين ساعة يأتون بهم إلى المخبأ دون معرفة نتائج فحوصاتهم الطبية. يتم نقل الصحراويين ضحايا الاختفاء القسري إلى المستشفى ليلاً لإخفاء الجريمة كلما دعت الظروف الصحية لهؤلاء. في المستشفى يتم عزلهم بعيداً عن الأنظار الخارجية. يقضون كل أوقاتهم مكبلي اليدين على السرير. يفتح القيد عنهم فقط خلال إجراء العملية أو زيارة الطبيب لفحصهم. كيف لمرضى يعاني أكثر من

مرض لا يقوى على الوقوف، يتم نقله بهذه الطريقة بشاحنات مكبل اليدين ومغمض العينين تحت حراسة أفراد من القوات المساعدة لا يرحمون؟

في هذه الأثناء، تم تعيين ممرض مداوم لمتابعة الأحوال الصحية للمختفين. لكن هيهات. المرض ينتمي للقوات المساعدة. تلقى هو الآخر تدريباً مستعجلاً كما حصل لنا مع ممرض أكذ. المرض الجديد اسمه عبد الرحيم له عين بيضاء. إنسان ثرثار ومهرج. كان عند زيارة أي مسؤول: ضابط القوات المساعدة المشرفة على تعذيبنا أو قائد الشؤون العامة التابع لعمالة الإقليم يرافقهم ويسجل طلباتنا ويعدنا بتنفيذها. يفيض كلامه عسلاً. يطمئن المرضى بالرعاية وبالشفاء العاجل وأنه سيختار الدواء السحري المعالج لأسباب المرض. يظن بكل جهل أن ما سيقدمه من دواء كفيل بأن يضع نهاية لكل ألم. نسي هذا الغبي أن تراكم الأمراض منذ سنين والمحيط الذي نعيش فيه المتميز بالبدؤس والجوع وانعدام النظافة والتعذيب المنهج والقلق الدائم على أرواحنا لن تعالجه حبة أسبرين ولا عقاقير أكبر المختبرات الصيدلانية ولا هيئات الأطباء النفسيين. ما نشعر به أعمق من وصفة طبيب وأصعب من أي تحليل نفسي. تأتي الطلبات؛ فيقوم بالتجارة بها ولا نتوصل بأي شيء منها سوى حبات أسبرين أو بعض الأدوية القليلة ليخفي جريمة التلاعب بمعاناتنا. يأتي على الأخضر واليابس دون خجل. يقتحم المخبأ في أي وقت. حتى النساء لم يسلمن من شجعه ومن طلباته. أصبح الضحايا يحنون لزمن المرض أسعید (رحم الله الحجاج ما أعدله). قررنا أن نقدم شكاية به عند زيارة المسؤولين المفترضين. لكنهم لم يبالوا، مما جعله يجتهد أكثر. ومن عبث الأقدار أنه تمت ترقيته إلى رتبة أعلى من تلك التي عنده. دخل علينا السجن بلباسه العسكري ليرينا درجته الجديدة. فهمنا الرسالة ولم نستغرب. يستولي عبد الرحيم الممرض على أي شيء تقع يداه أو نظره عليه.

يتحايل على المختفين، بأنه سيجود عليهم بالأدوية شرط أن يمنحوه علب السردين والصابون وعلب السجائر. لا سبيل لتجنبه. ما لم يأخذه بالحيلة يأخذه بالتهديد والوعيد. ذلك أن هذا البئس أحيانا عدة يشارك في تعذيب المختفين وضربهم خاصة أولئك الذين لم يلبوا طلباته، فينتهز الفرصة للانتقام منهم. أسعيد الممرض بأكدز وعبد الرحيم الممرض بقلعة مكونة شكلا وسيلة قمع من نوع آخر تتمثل ظاهريا بأن إدارة المخبأ السري توفر الرعاية الصحية وباطنيا تعبر عن كراهية منقطعة النظير في حق المختفين الصحراويين.

في المخابئ الست؛ كانت هناك حركة ثقافية وفكرية جد متطورة مقارنة مع ما نعيشه من ظلم وقمع. بفضل الدراسة استطعنا تأسيس نواة إصدارات، تشمل توثيق إبداعات متنوعة في الشعر والقصة القصيرة والخاطرة وأيضا في شتى مناحي الإبداع: كالمسرح والعروض والندوات. وهكذا ظهر على الساحة السجنية صدور مجلات دورية: كمجلة " المصباح" يشرف على تحريرها أحمدو متالي والشيخ الحسين أحمد (صفر) عند مجموعة 76، مع المجلة الحائطية التي يتم إصدارها مرتين في الشهر يشرف، عليها محمد بوخالد وسلامة بهان. مجلة " الطموح " في مجموعة خمسة، يشرف عليها أمبارك الحسين عبد الله (حيجي) ويحظيه أكادر. مجلة " الشفق " في مجموعة أربعة تحت إشراف أمبارك الحسين عبد الله حيجي وإبراهيم الصبار والخليل أعلي الكوري أماي. كنا نستغل فترات الزيارة لتوصيل نسخ من هذه المجلات بين أقسام المخبأ. طريقة تشكيل ورق المجلات غاية في الدقة؛ بحيث تستخلص من أكياس الإسمنت أو لفافات علب السجائر المسماة " تروب Troupe" المخصص للجنود. يتم تسليمها للسجناء وهي من السجائر العديمة الجودة وقد سببت لمستعملها كثيرا من الأمراض الصدرية والرئوية. أكياس الإسمنت يتم تقطيعها حسب

الحاجة ووضعها بعناية تحت الأفرشة لضغطها لإزالة الانكماش. الألوان أيضا تستخلص من النباتات وألوان علب مسحوق الغسيل "أوموOmo" حيث، يتم سلخ اللون المطلوب ويفرك في قليل من الماء، يتم تسخينه على نار هادئة في كأس من الالومنيوم مع قليل من السكر أو علك (صمغ) الأشجار. وجد السجناء صعوبة في استخلاص اللون الأصفر، واهتدوا في النهاية إلى استعمال أقراص دواء المثانة (Pernabol) يتم سحقها وإذابتها في الماء للحصول على اللون المطلوب. أما المواد كان يصنع من مسحوق القهوة والفحم والقليل جدا من العلك والسكر. يوضع الكل على نار هادئة إلى أن يسخن لتفادي التصاق الأوراق بعد كتابتها. كما أن الأقلام تصنع من القصب أو أغصان الشجر أو الالومنيوم. إبداعات جعلت المختفين يسجلون بكل عناية ما جادت بهم قريحتهم. المرحلة الثانية التي تمر منها إعداد المجلات. بعد أن يجف المواد، يأتي دور التصنيف والتبويب والفهرست والترقيم واختيار صيغة وضع العنوان وصورة الغلاف الذي يحمل تاريخ الإصدار ورقم العدد وأسماء أسرة التحرير. تشتمل المجلات على العديد من مشاركات الضحايا - إناثا وذكورا - في المواضيع السياسية والثقافية والاجتماعية والنوادر والأمثال الشعبية الحسانية والألغاز والكلمات المتقاطعة والكاريكاتور. عندئذ يتم شد الأوراق من الجذر مع بعضها بغراء من الدقيق الممزوج بالماء على شكل حساء ثم نخيها مع الغلاف الذي يفوقها سمكا وذلك بوضع ماسكات أو غرزات تضمن عدم انفصال الأوراق وبهذا تأخذ المجلة شكلها النهائي. ونظرا لقلة الورق كانت المجموعات تتعاون فيما بينها بإرسال ما تحصل لديها بالتناوب سواء ورق الاسمنت أو غلاف علب السجائر كما أسلفت الذكر. شهد المسرح هو الآخر طفرة نوعية وقد انطلق المسرح من أكدز حيث؛ أبدع الأستاذ محمد لحبيب خليلي مسرحية " مع الشيطان في رحلة الخطر " و" لعياط إذا ج من الكدية

لهروب أين " كما كان لمحمد بوخالد إسهامات مهمة " زواج لن يطول " ومسرحية " وأخيرا أشرقت الشمس ". ومسرحية " المدينة المهجورة " للمبدع عبد الرحمان خواجا. أبدع أيضا الخليل اعلي الكوري أممي، مسرحية بالشعر الحساني غاية في الروعة تحت عنوان " من وقع الدخيل " وكانت هذه المسرحيات تجربة رائعة وغاية في الإبداع، كانت كلها موضوع نقاش تحت إشراف اللجنة المشرفة التي تضيفي نكهة ثقافية عميقة ومفيدة زادت الإنتاج تركيزا وإبداعا. أيضا عرفت القصة انتاجات مبهرة عند كل من محمد فاضل مولاي أحمد الليلي، الخليل أعلي الكوري أممي وإبراهيم الخليل الصبار وغيرهم. إنها المقاومة لواقع نرفضه. وهكذا تعددت المقاومة بأوجه عدة بفضل صمود أسطوري. نماذج رائعة من إبداعات المختلفين الصحراويين داخل أسوار المخابئ السرية تفيد؛ كم هو قوي الإنسان بإرادته حين يعبر ويناضل مهما كانت وطأة الظروف عليه. فدائما رغم ما يحيط بنا من ألم، هناك أحساس وشعور بأمل يطفو يرفض أن يغرق في متاهات المخابئ السرية. الإبداع بكل أشكاله وألوانه أساسه رفض واقع مريب من أجل البحث عن بديل أفضل وأيضا تمرد على واقع مرفوض إلى واقع أكثر جمالا. فالكتابة هي المتنفس الذي يلجأ إليه الإنسان للتعبير الحر من كل القيود؛ ذاك الإنسان الذي عانى من شيء بداخله ولا يريد أحد الاستماع إليه ليخلو إلى نفسه في لحظة عسر تتخطى متعتها كل ألم مخاض إلى درجة يجد نفسه ملزما على الصمت وعدم الحديث حتى مع نفسه. كما أبدع الصحراويون داخل المخابئ السرية في تطوير النقش على الحجر وعلى الالومنيوم وعلى الخشب والصناعات اليدوية. من بين من أبدع في النقش: سيدمو سعيد وعالي بوجلal وفي الرسم والنحت عمر الحسان بوتكنيش ويحظيه اكادر: كتماثيل الإبل رمز البداوة والغزلان رمز الحرية. كما عرفت صناعة الأحذية والحقائب تطورا مهما. الحقائب نرتب فيها

الملابس المتوفرة والأحذية التي تقينا برودة الطقس في فصل الشتاء. تتم صناعتها بخياطة النعال بأثواب سميكة بداخلها أقمشة قطنية تمنح الأرجل دفئا في هذا الجو الشديد البرودة. أبدعت أيضا النساء في كل هذ الألوان الأدبية والفنية مثل صياغة التسابيح ولعبة الدومينو والأدب والشعر بشقيه الحساني والعربي.

تأبى المنايا إلا أن تحوم فوق سماء المخبأ السري لتختطف عزيزا وتعكر صفاء أجوائنا وتحول أفراحنا إلى أحزان وتجعلنا نستفيق من حلمنا الجميل على واقع مر وأليم. هكذا هي الحياة في المخابئ السرية فرح محدود وحزن دائم.

18 ماي 1986، المحبوب لعروسي لميميج استشهد بعد معاناة طويلة وأليمة مع المرض. اعتقل رفقة ابنه سنة 1976. المحبوب رجل طيب يتميز بالتسامح والجدية في كل أقواله وأفعاله. يكره المراوغة والأحاديث الزائدة غير المفيدة. على دراية كبيرة بالطب والعلاج؛ حيث كان ممرضا بالجيش الاسباني. بعد مغادرته الجيش مارس التجارة. تدهورت صحته بسبب وجع باطني، يشكو ألما في كبده حتى أصبح يتقيأ الدم بكثرة. حين تسأله عن صحته بكل إيمان وطمأنينة يحمد الله كثيرا ويقول: إنه بكل خير وأنه هنا من أجل قضية كل شيء في سبيلها يهون وأن تواجدنا في هذه السجون نتيجة ظلم رغم أننا لم نقترف أي ذنب. أخبرنا الحراس بحالته لكن لم يعيروه أي اهتمام. فأسلم الروح إلى ربها تاركا ألما في نفوسنا وتأثرا كبيرا خاصة؛ أن ابنه لم يستسغ كيف يموت أباه بهذه الطريقة البشعة.

استشهد يوم 25 ماي 1986 سيداتي لكوارى؛ شاب في مقتبل العمر، لم يمهله المرض وظلم الجلاذ وأيادي الغدر؛ لتذوق الحياة وطموح الشباب، وتحقيق أحلامه. تضاعف ألم المعاناة، وازداد الحزن بفراقه. أعتقل سنة

1985، سنة تقريبا وغادر الحياة رافضا واقعا خذله. استشهد الشاب سيداتي لكواري بقلعة مكونة، ذكرني باستشهاد الشاب محمد الشيخ محمد سالم البخاري بأكدز، كأننا ملزمون بتقديم قرابين لهذه المخابئ السرية. استقبلنا أكدز باستشهاد شيخ وقور ومسئ اعيش بناصر، وودعناه باستشهاد شاب في غضاضة العمر محمد الشيخ محمد سالم البخاري. هكذا أيضا هو المخبأ في قلعة أمكونة بعد أربعة أيام من تواجدها به؛ استشهد أحمد ولد سويلم الترفاس الشيخ الوقور المؤمن الطيب، وتوسط عقد الشهداء سيداتي لكواري كجوهره هذا العقد. أي قانون هذا يبيح قتل البشر؟ وأي قاموس فكري يستطيع تفسير ما وقع وجرى في هذه المخابئ السرية؟

19 يونيو 1986 استشهد محمد الناجم ولد بيدي. خيم حزن كبير على كل المجموعات. الشهيد محمد الناجم ولد بيدي اعتقل سنة 1982. كان يعمل حارسا في مرفأ الإنعاش الوطني بالعيون. تم اعتقاله من طرف الأمن وسيق إلى المخابئ السرية، تحت سياط التعذيب والتنكيل دون مراعاة لسنه وضعف جسمه. ألم به المرض وهو وحيد في زنزانته؛ أياما قليلة بعد رحيله إلى دار البقاء تم ضمه إلى الصحراويين للتكفل به. كان يعيش رهبا كبيرا من الجنود، بحيث حين يدخلون الزنازين يستلقي كأنه نائما ويغمض عينيه، يرفض النظر إليهم والحديث معهم. بالنسبة له إنهم زبانية تعذيب وألم بمناظر بشعة. لم يسلم أي مختف من سياط الجلا، حتى كبار السن عانوا من ظلمه. تأزمننا نفسيا وخلق لدينا رهبا من كل مظاهر العنف. جلا لا يبتسم ولا يرحم. يجد لذته في تنكيل آدمية الإنسان، كأنه ليس إنسان وليس لديه إحساس. يعيش ويتلذذ على صراخ المختفين قسرا. أغنيته المفضلة سيمفونية الألم.

02 يوليو 1986، استشهد أيضا محمد عدنان بسبب المرض وعدم العناية. اعتقل محمد عدنان سنة 1976. كان يحكي لأصدقائه طموحاته حين يفرج عنه. كثير التفاؤل. لا تفارقه ابتسامة البراءة. بعد الشعور بالألم والمرض وانعدام الطبيب. أصبح يشك في كل ما يحيط به من أسوار عالية وأبواب ضخمة من حديد، وجلاد لا يمل ولا يكل في إهانة المختفين. ينظر إلى إخوانه المختفين وعلى ملامحه تساؤلات عدة. لماذا نحن هنا؟ هل بين هذه الأسوار سنموت ويموت التفاؤل والأمل في الحياة؟

في أكدز توالى الشهداء تباعا كل شهر، نفس الأمر يتكرر في قلعة أمكونة. خلال أربعة أشهر متتالية استشهد كل من المحبوب لعروسي لمديميخ وسيداتي لكواري ومحمد الناجم ولد بيدي ومحمد عدنان. وهذا دليل على بشاعة ما، نعيشه من سوء معاملة وإهمال الطبي. عميقة هي الجراح حتى لا تنذمل. رغم اللحظات السعيدة القليلة جدا التي نخلقها لتحدي، هذا الواقع الموشوم بالانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان؛ يفرض الواقع المر وقعه علينا، بسبب الممارسات المهينة للكرامة الإنسانية

عبد الله ولد الشويخ اعتقل سنة 1979، تم ترحله سنة 1981 من مخفر الشرطة درب مولاي الشريف مع مجموعة من المناضلين الصحراويين إلى أكدز، حيث أمضوا تسعة أشهر وبعد ذلك أمضي 10 سنوات بقلعة مكونة. عبد الله، شاب مثقف وأنيق في تصرفاته، حداثي الفكر ويحمل نضجا ووعيا يميزه عن غيره. عاش حياته يحمل قناعة صمدت، في وجه سنوات الاختفاء القسري والتعذيب. له تجربة معاناة تنفطر لها القلوب عند سماعها. سقط مريضا، وفي غياب أي رعاية صحية اشتد به المرض، إلى أن كاد أن يفقد الحياة. في إحدى الليالي، تم إخراجهم من الزنزانة التي كان فيها؛ برفقة إخوانه الصحراويين، نظرا للنسيم الذي هب، شعر براحة نسبية جعلته

يفتح عينيه، وينظر إلى السماء المرصعة بالنجوم، وتابع الحديث الخطير الذي كان يدور بين الحارس وقائده للحسم في مصيره:

- الحارس: هذا الشخص في حالة متطورة من المرض؛ فهو لا يأكل ولا يشرب وأصبح ميؤوسا من شفائه، أقترح سيدي التخلص منه ودفنه؛ لأنه أصبح في عداد الموتى.

- قائد الحرس: غير ممكن. المريض لا زال حيا ويتنفس، فكيف يمكن دفنه حيا؟

- الحارس: لكن سيدي انظر إلى حالته لم يعد حيا.

- قائد الحرس: (بعد أن نظر مطولا إلى عبد الله مستلقيا، لا يقوى على أي شي ويعاني، من صعوبة التنفس، حسم الأمر نهائيا برفض طلب الحارس) آمرا: ارجعه إلى مكانه حتى يموت.

دخل على إخوانه وهو يرتعد خوفا مما سمع، ويرتعش من شدة البرد والمرض. أحاط به إخوانه وألبسوه ما توفر لديهم من أغطية؛ حتى يسترجع عافيته. وحين أطلعهم على حديث الحارس وقائده؛ أصيبوا بالذعر والهلع. هل يعقل دفن المريض حيا؛ لأن حالته محرجة وميؤوس منها؟ الموت الرحيم حسب طريقتهم. بعد أشهر عديدة؛ تماثل عبد الله إلى الشفاء، وأخذت حالته الصحية في تحسن. جاءت الفترة الدورية لقائد الحرس ليتفاجأ بوجود عبد الله معافي، وبين إخوانه ضحايا الاختفاء القسري.

- قال له: أ تدري لماذا تلك الليلة، رفضت طلب الحارس بدفنك وأنت حي؟

- عبد الله: لا سيدي

- قال: وأنت مستلق أمانا، نظرت إليك فجأة، فوجدت فيك شبها كبيرا لابني. لهذا رفضت طلب دفنك. على سلامتك ولدي. بعد ذلك بسنين ونتيجة تراكم الأمراض، وما خلفته سوء المعاملة وسوء التغذية؛ استشهد عبد الله

ولد الشويخ يوم 24 يناير 2019 بالديار الاسبانية، بعد معاناة طويلة مع المرض. هذه القصة الغريبة، من بين الكثير من القصص جعلت من وضعيتنا داخل المخابئ السرية، بلا قيمة إنسانية وفي وضعية لا قانونية. كل شيء فيها مباح. حقيقة هذه المخابئ السرية، أقرب إلى الخيال مما يتوقع أي إنسان؛ نظرا لبشاعة ما تحتويه من مأساة، وتعذيب يفوق كل التوقعات. لا أحد يتوقع حدوث هذه البشاعة إلا من عاشها.

نزل الخبر على قلبي كالصاعقة. تجمدت في مكاني. وقفت كل حركة في جسمي. توفيت أمي! كيف توفت؟ هكذا أبلغتني إحدى المختفيات قسرا التي التحقت بقلعة مكونة ضمن المجموعات الجديدة. تعرف أمي حق المعرفة وهي متيقنة من الخبر. من فرط غيابي لم تتحمل اختفائي. لا خبر عني يجعلها مطمئن على سلامتي. ماتت أمي وبداخلها وجع الفراق المباغت. حسب قولها كانت أمي شبه فاقدة الوعي بسبب اعتقالي. كثيرا ما تتحدث عني، وتقول لهم لن أرى ولدي أبدا؛ لكنه سيعيش. أريد أن أصرخ. أريد أن أبكي. لكن كل شيء تجمد بداخلي؛ فجلست مذهولا. قلبي يدق بقوة. لم أعد أستطيع التنفس. ما معنى الحياة بدون أم، وبدون حنان الأم، وبدون وجودها بجنبي. أشعر كأني أصبحت وحيدا في عالم من الغدر والمكر. حتى الأمل في النجاة من الاختفاء القسري لم يعد بالطعم الذي كنت أتمناه. قتلوا أمي بعدما اختطفوني. تبا لهم. ألفت حولي إخواني وبادلوني مشاعر طيبة جعلتني أهدأ قليلا وأفيق من الصدمة. عندما جن الليل وخيم السكون، تذكرت أمي وبت أبكيها بكل حسرة. رفض النوم زيارة جفوني. في الصباح شعرت بألم برأسي لم أستطع تحمله. لم يبخل إخواني بمواساتي. كيف نتغلب على الحزن بعد وفاة عزيز؟ حينها عرفت أن أمي ككل الأمهات الصحراويات المكلومات بفقد ابن أو بنت أو زوج أو أب أو أخ لم يتحملن الفراق فيمتن بحزن من شدة الفراق والمجهول الذي ذهبنا إليه. كل صلة أو

وسيلة لمعرفة أين نحن مستحيلة ومفقودة. ينعدم لديهن الأمل في لقاء فلذات أكبادهن؛ فيسقطن تباعاً ضحية همجية جلاّد يرقص كالبربري على معاناة البشر. من أي نطفة هذا الجلاّد الخبير في صناعة الأمل؟ من أي تربة إن لم تكن الجهل والتهميش والفقر؟ لكن بكل تأكيد لا يستطيع تدمير فينا ما لا يعرف! والله إنني بكل أم مكلومة لشفيق! تذكرت أمي حين اعتقالي تلوح لي بيديها وفي عينيها " كن رجلاً كأمثالك "؛ لتغيب عني إلى الأبد. بعد رحيلك أمي ما عاد أي موت يعنيني. لن أسامح من كان السبب في معاناتنا. بعد الإفراج عني، كلما مررت من مدينة تيزنيت، حيث توفيت أمي بالمستشفى الإقليمي ودفنت بمقبرة المدينة دون وضع اسمها للتعرف عليها مستقبلاً. أقف على باب المقبرة أقرأ على روحها الطاهرة سورة الفاتحة وأترحم عليها دون أن أعرف قبرها.

صدمة في القلب

أهاج الدمع عطفاً قد جفاني *** وضاق الصدر من فقد الحنان
بكاؤك مرهم يشفي شجوني *** وينسيني تباريح الزمان
ألا ليت الفؤاد مضى صبوراً *** وأعزى أن ما بالأرض فان
توجد للعدم كل خلق *** إلى عدم توجد كالمهان
فصار طموحه ينوي بقاء *** وما الدنيا سوى عبث امتحان
فإن ثابرت فيها ليس إلا *** مراد منك في ترك البيان
متى ضم الثرى يوماً عظامي *** لسوف أكون قطعاً في الضمان
فعلة من يخاف نذير يوم *** كعلة خوفه جبن الجبان
ترى هل في الحياة سبيل لهو *** وهل في الموت دوماً من مغاني
لقد ربضت على قلبي أمور *** صحت منها تعابير اللسان
فكيف يصيب حيناً اليأس قلبي *** وقد نادى رغيداً بالأمان
ألمت بي جراح الدهر حتى *** حسبت قراعها ضرب السنان
هي الأقدار تأخذ كيف ترضى *** وتنعيني مواطن كل شان
فموعظة المنايا حين تغزو *** من الكون محاسن ما أثناني
هي الأم الحنون تفيض عطفاً *** يشع الكون نورا بالمعاني
بها لقمان أوصى خير بر *** وآثرها المصور بالتفاني
بكل نبيل وصف قد أحاطت به *** ونالت في العلى أقصى العنان
على الرسم الملائكة استهامت *** وصلى الروح في عين المكان
فيا رب أهب بعد المنايا *** لزائرة قصورا بالجنان
يحف قدومها ولدان خلد *** وحوار من كواعب كالجمان

من كثرة ما تحدثوا عنهم، تولد لدينا شوق كبير لمعرفتهم ورؤيتهم ولمسهم والانحناء أمامهم احتراماً وتقديراً لتضحياتهم. إنهم مقاتلون في صفوف جيش التحرير الشعبي الصحراوي، بعد أسرهم والإفراج عنهم تم اختطافهم من جديد. إنهم: محمد بونا أبييري، عالي ولد الكرشة، الركيبي بوشلكة، المحفوظ الحيحي الروبيو وسيدي نافع. جاءت لحظة اللقاء؛ حين قررت إدارة السجن فتح الزيارات، من يوم إلى بضعة أيام بين أقسام المعتقل. وهكذا كانت أول زيارة متفق عليها بين المختفين، هو فتح المجال أمام هؤلاء الأبطال لتتعرف عليهم المجموعات. كان محمد بونا أبييري والمحفوظ الحيحي الروبيو من نصيب مجموعة 1976. كان استقبالا رائعا ممزوجا بالإعجاب والفخر. أقمنا حفل شاي صحراوي جماعي، وأخذنا نستمع إلى أحاديثهم المتسمة بالرزانة والهدوء وترتيب الأفكار. نقلوا لنا كيف دارت المعارك وكيف استطاعت هذه المعارك أن تتحول إلى ملاحم أسطورية. كما تحدثوا عن قدرات جيش التحرير الشعبي القتالية. بعد الشاي منحناهم فرصة استراحة، وأخذنا نتجول في باحة السجن، بينما آخرون يحضرون لوجبة الغداء؛ تتكون مما نحصل عليه. قرر أن يتنازل البعض عن حصته، وأن يتقاسم مع أحد إخوانه وجبته حتى نستطيع أن نوفر مائدة للضيوف المكرمين، واختيار من سيجلس معهم لتناوله. لتفادي الضغط عليهم قرر منظمو الحفل، أن يبيت كل فرد من هاذين المقاتلين مع مجموعة في الزنزانة. مرت الأيام دون أن نعيها اهتماما، بفضل وجود الأخوين بيننا، لم نستفق من هذا الحلم الجميل إلا بعد أن دخل الحارس ليخبرنا أن مدة الزيارة انتهت. افترقنا بالبكاء والعناق الطويل. شعور أخوي جميل خيم على فضاءنا، متمنين اللقاء مرات أخرى. زارنا أيضا عالي ولد الكرشة والركيبي بوشلكة وسيدي نافع؛ وترسخ لنا نفس الاعتقاد بالتكوين العالي لهؤلاء والتراكم المعرفي الذي يتميزون به. عالي ولد الكرشة،

رجل طيب دقيق في سرده إلى حد التفصيل الممل، بغرض استمتاعنا نحن الذين حررنا منذ 1976 من الاطلاع على هذه المعطيات والأحداث. الركيبي بوشلقة هادئ في طبعه، قليل الكلام لا تفارقه ابتسامة محتشمة، حين يحكي يتحدث بصوت منخفض تجد صعوبة في الاستماع له؛ مما يجعلك تتابعه باهتمام. سيدي نافع يتميز بثقافة اسبانية عالية، وله دراية كبيرة بالعلوم الرياضية مما جعل الإخوان الذين معه يستفيدون من معرفته في الرياضيات. يتحدث بكل ثقة عن التنظيم السياسي المؤطر لجهة البوليساريو. لا يفتأ ينطق ببعض المفردات الاسبانية؛ مما يضيف على كلامه جدية كبيرة. كان حافزا للكثير لاحقا في تعلم اللغة الاسبانية، التي ينطقها فقط الصحراويون في شمال إفريقيا. لهذا رأى البعض أن الاسبانية تشكل جزءا من هوية الصحراوي، في الوقت الذي فيه دول المغرب العربي الأخرى تتحدث اللغة الفرنسية كلغة ثانية إلى جانب اللغة العربية.

انطلق التعليم من جديد، وانكب كل ضحية في التعلم والبحث عن المعرفة. وقد استفاد الضحايا من مجموعة كتب في ملكية سلامة بهان - كانت معه في أكزز وكانت رهن إشارة المختفين - الذي كان تلميذا في سنة البكالوريا بورزازات. كتب فكرية في النظرية السياسية، وفي الفلسفة وفي الأدب، سمحوا لنا بها. بالإضافة إلى مجموعة كتب حصلنا عليها من إدارة السجن، تتضمن قصصا باللغتين الفرنسية والعربية. مع تبادل الزيارات التي أصبحت شيئا ما مكثفة، بين أقسام المخابئ فتحت شهية الضحايا على المعرفة أكثر في كل الميادين. وأخذ التعليم مسارا أكثر جدية بفضل، تشجيع لجنة التعليم المكلفة بالسهر عليه، وأن فقط المتعلم هو من باستطاعته الدفاع عن قضيته، وباستطاعته أن يعيش كريما لأنه يعرف معنى الحرية. إنه الاختفاء القسري بعيدا عن كل معاملة إنسانية، وتحت رحمة جلادين قليلي المروءة. شيء ما يجعلك سجين واقعك. مهما حاولت التخلص

منه إلا وسيطرت عليك جاذبيته، ورمتك بين خيوطه العنكبوتية. شيخ آخر أصبح طريح الفراش. انه الناجم ولد أحمد لحسن أخ الشهيد لحبيب ولد احمد لحسن. الناجم فذ في كل طباعه. طيب ومتسامح يقول الكلمة الصادقة أو يصمت. أخذ من أخيه الوقار وشيم الرجولة. كثير الإيمان والثقة بالله. يكرر دوما أننا هنا بمشيئة الله وأننا رهن قدره. لن يصيبنا إلا ما كتب لنا. بهذه الثقة شعر وأحس وتآلم ومرض ورحل إلى رفيق الأعلى يوم 04 فبراير 1987. الشهيد الناجم اختطف يوم 01 فبراير 1976. الشهيدان لحبيب والناجم، مثالان للأخوة والاحترام المتبادل؛ طبقا لتقاليد أهل الصحراء وأعرافهم النبيلة. كانا في حياتهما في المخبأ السري، عندما يتبادلان الحديث تشاهد الناجم بكل احترام مطأطيئ الراس، لا يرفع النظر إلى أخيه الأكبر منه سنا، وحين يمشيان يتأخر عنه بخطوة قدم حتى لا يضاھيه.

28 مارس 1987 استشهد أيضا عبد العالي ولد عبد المجيد بسروال. شهر فقط على استشهاد الشهيد الناجم ولد احمد لحسن. عبد العالي اختطف سنة 1976. لم يستطع تقبل الواقع المر، وفضل الرحيل عن هذا العالم الميؤوس منه. حزن في حزن في وحزن؛ إلى متى وسلسلة الأحزان هذه تأبى أن تتوقف؟ سخيف هذا المحيط الذي نعيش فيه. سخيفة هي الأسوار والزنازين التي تحبسنا. حتى الحراس سخيْفون بتفاهتهم وتصرفاهم العبثية. لا أمل يرجى منهم. نفس المعاملة منذ أن رمت بنا الأقدار في غياهب هذه المخابئ السرية الرهيبة. ولأن كل شيء هنا سري، فكل شيء قبيح مباح: الضرب والعنف النفسي والجسدي كل يوم بلا كلال ولا ملل، فضلا عن سوء التغذية وانعدام التطبيب. أحيانا أتساءل إلى متى أجسادنا ونفسياتنا باستطاعتها أن تصمد أمام عملية تدميرنا ذاتيا؟ ننتظر معجزة

من السماء تحقق للمختفين الصحراويين ما لم تستطع يد الجلاذ أن تحققه.

أصبحت الأمراض تكتسي خطورة أكثر، بفعل سوء التغذية وانعدام التطبيب. ظهرت أعراض جديدة كأمرض المعدة والكلي والقلب والشرابين وضيق التنفس، بسبب تلوث الزنازين وفضاء المخبأ. كثيرا هم الضحايا الذين صعب عليهم الأكل؛ يتقيؤون بمجرد أن يتذوقوا طعم الوجبات المقدمة على فظاعتها وقلة احتوائها على مغذيات للجسم. كان المختفون قسرا يتحملون أكلها، خشية الموت بالجوع. الآن أصبح الموت هو المنقذ من عذاب ما يقدم لنا من أكل. مقصودة هذه المعاملة حتى؛ نكره أنفسنا ونكره الحياة. لا شيء ينفس عن النفس، إلا ابتسامة تحد من مختف سئم حياة المخبأ، لكنه لم يفقد الأمل. حين تتدهور الأحوال الصحية للمختفين؛ يتدخل القائمون على المخبأ لإنقاذ الوضع ببعض الدواء والذهاب بآخرين إلى المستشفى لإجراء فحوصات، وأحيانا لإجراء عمليات جراحية غير محسوبة العواقب، لما سيأتي بعدها من إهمال، وعدم متابعة طبية. كلما تألنا أكثر، خففوا من وطأته حتى نتأهل من جديد لألم أكثر قسوة وعذابا.

" ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار"¹⁰⁸.

الغول الرابض على المخبأ يرفض الرحمة تجاهنا، ويريد المزيد من الضحايا كقرايين له. يتلذذ بأبشع صور الألم. يرقص بشطحاته الجنونية على أجسام الضحايا النحيقة، ويغني أغنية الموت لكي يبتلع بكل سهولة وبكل لذة، حياة بريء ذنبه أنه ذات يوم فكر أن يعيش بطريقة أفضل.

وقع اختياره هذه المرة على رجل حسبناه بقوته الجسدية قد ينجو من مخالب الغول لكن هيهات.

محمد لحبيب الونات، البشوش والمرح يتميز بأسلوب يغلب عليه طبعه الاجتماعي. يقضي كل وقته بقلب حنون، يمازح هذا ويضحك مع ذاك. يحكي النكات والروايات ويتوسط الجماعة ليستمع إليه الجميع. أصبح يشكو من ألم حاد على مستوى كليتيه. تضافرت جهود الجميع لدعمه معنويا ونفسيا. افتقدنا فيه روحا استثنائية؛ مليئة بالحب والخير. اشتدت حالته المرضية، مما استدعى حمله على شاحنة عسكرية تفتقد لأدنى شروط السلامة الصحية إلى المستشفى الإقليمي بورزازات، وسيلة نقل مريض مخالفة لكل المعايير الصحية المتفق عليها. كان بالأحرى نقله على متن سيارة إسعاف مجهزة طبيا، للتخفيف من آلامه وبطريقة سريعة لإنقاذه. بعد فحوص مستعجلة - كما حكي لنا - أجريت له عملية جراحية وتم استئصال إحدى كليتيه المتعفنة. بعد أسبوع رجع إلى المخبأ على نفس الشاحنة العسكرية. استقبلناه بفرح وحمدنا الله على سلامته. كان يحمل معه قليلا من الدواء - أقراص مضادات حيوية ومطهر للجرح - لا يكفيه لمدة أسبوع. حالته الصحية بفعل العملية الجراحية محرجة؛ شاحب الوجه وأصبح ضعيفا وبطيء الحركة. بعد شهر من العملية وفي غياب التتبع الصحي أنتقل إلى جوار ربه شهيدا. اعتقل سنة 1976 واستشهد يوم 25 يناير 1988. خيم كما العادة حزن كبير. سلمناه أمرنا لله واستسلمنا لمشيئته. هل تعتبر عملية استئصال الكلي سهلة إلى هذه الدرجة؟ كان من المفروض أن يتلقى عناية مركزة ومصاحبة طبية كبيرة، وألا يغادر المستشفى حتى يتم شفاؤه كليا، بعد إجراء فحوصات إكلينيكية وتحليلية على كليتيه ومسالكه البولية، والتأكد نهائيا من شفاؤه. وبعد أشهر من العملية يتم إجراء فحوصات أخرى لمتابعة وضعه الصحي. ذهب إلى

المستشفى بكليتيه، ورجع بكلية واحدة وكأن ما كان يعاني منه هو فقط خدش بسيط.

نستجمع قوانا ونتحدى الواقع المشؤوم. نساعد بعضنا على إحياء الحياة. ننبعث من جديد رغم الظروف القاهرة كأن شيئا لم يكن، متسلحين بإرادة الصمود والصبر. فنخلق جوا جديدا ننسى فيه الألم والعذاب والفراق ورحى الموت. ننطلق في التعليم والتثقيف بكل ألوانه وأشكاله، ويقبل المرابطون بكل عزم ورغبة في التعليم والتثقيف، انطلاقا من مبدأ أن المعرفة أساس كل تطور ونمو، وأن الذي لا يقرأ محكوم عليه بتصديق الآخرين.

كانت أمامنا ذكرى مهمة من تاريخ النضال الصحراوي. وكان لزاما أن نحيا هذه الذكرى بما تستحقه من احتفال رغم الإمكانات المنعدمة؛ إنها ذكرى 20 ماي الخالدة. تمت الاتصالات بين أجنحة مركز الاختفاء لوضع الترتيبات. قررت المجموعات أن يكون جناح مجموعة 1976 مسرحا لحدث يجسد انطلاقة شعب نحو المستقبل، وأن يكون يوم الجمعة هو يوم الاحتفال - يوم الجمعة كان يخصص لزيارة كل المجموعات وجمعهم في جناح واحد - بجناح مجموعة 1976، لما تجسده من فخر واحترام لدى مجموعات الأجنحة الأخرى. إنها بالنسبة لهم رمز العزة والتحمل. هذه المجموعة التي تحملت بكل جلد عصا الجلاذ سنوات من القهر، فضلا عن الأمراض والجوع وسوء المعاملة من جهة، ووجود شخصيات كبيرة تتسم بالوقار غدرها الدهر من جهة أخرى. إذا التركيز على اختيار مجموعة 1976 لاحتضان هذه الذكرى هو تكريم رمزي لها، لما عانتها من حرمان وضياع، واحتراما لأرواح الشهداء الذين سقطوا في أكدز وقلعة مكونة، ولأن هذه المجموعة لم تعش أحداث الصحراء، إلا من خلال المذيع الذي حصلنا عليه في أكدز أو المذيع الحائطي بقلعة أمكونة (الناقة) وما تدره علينا من

حليب يغذي معنوياتنا ويرفعها درجات في التحدي. حلت ذكرى 20 ماي 1988، وتم انطلاق الاحتفال بعد صلاة الظهر بقراءة آيات بينات من الذكر الحكيم وبكلمة افتتاحية تضمنت مغزى هذه الذكرى والعبر المستوحاة منها - بعد تزيين القاعة بلوحات فنية للرسميين المبدعين محمد يحظيه أكرد وعمر الحسان بوتكنيش- تلتها كلمة ترحيب من المجموعة شاكرا المجهود الجبار الذي بذلته المجموعات، رغم حصار أسوار المخبأ ومراقبة الحراس اللصيقة. رفع ستار المسرح؛ وإذا بفرقة عسكرية بزي جيش التحرير الشعبي الصحراوي تقوم برفع العلم الصحراوي تحت أنغام النشيد الوطني - بالنار والحديد - والأنوار الكهربائية الملونة تزين الحدث. كانت دهشتنا كبيرة وإعجابنا لا يوصف. شيء يفوق الخيال والتوقعات. العلم الصحراوي يرفع في سماء المخبأ السري، والنشيد الوطني يغنى متحديا الأسوار العالية والأبواب الضخمة، ليعانق العنان ويكسر الحصار. هل هي حقيقة أم حلم ما نعيشه اليوم؟ كيف استطاع المخفون قسرا توفير كل هذه المعدات لإنجاز أمر عظيم كهذا؟ جلسنا مبهورين ودهشة المفاجئة تسيطر على عقولنا، وفرحة المناسبة تشد هممنا. بعد العرض العسكري جاءت الفرقة الموسيقية لتعزف أغاني صحراوية ثورية، رقص على إيقاعها الجميع. حتى الشيوخ أطربوا ونسوا الواقع الأليم، خاصة أن الطرب الحساني يبتدئ وينتهي بجانب روعي بكلمة - لا إله إلا الله - هذه الكلمة التي تجعل الطرب الحساني بنفحة دينية وروحانية تجمع بين التفكير في متلازمات حب الحياة والخوف من الموت، في الخير والشر، في الحزن والفرح، في الذكريات الجميلة لأيام خلت. بين أنغام الطرب الحساني تتجسد لك عظمة الله في خلقه، وفي نفس اللحظة بكثير من الوعظ والتقى تقربا إليه، خوفا من عقابه عند ارتكاب الخطيئة. لحظات وطنية وثورية ترسخت في ذاكرتنا؛ بنفس القدر الذي ترسخت فيه معاناتنا

بهذه الطريقة الظالمة. بعد الوصلة الغنائية، جاء دور الشعر ليخلق فينا حماسا، ويمدنا ببعد نضالي تشبع فيه هذا الشباب المشرف على إحياء الذكرى بكل إيمان؛ بالانتماء لقضية أصبحت رهانه السرمدى. بعد الشعر جاء دور المسرح مصحوبا برقصة " لبليلة " التي تفنن في رقصها الشاب عمى بابا. إنها مسرحية تحاكي الثورة وبطولاتها لتختتم تحت أنغام " فاغو " الحماسي.

كانت لحظة عرض عن منجم الفوسفات؛ قمة في الإبداع حين قدم محمد سالم عبد الحي (لبروتو) عرضا مفصلا عن إنتاج المنجم وتاريخ اكتشافه. قبل الدخول في صلب الموضوع وريثما تكتمل صورة مجسم نقل الفوسفات من فوس بوكراع إلى الميناء. تدخل أحد الإخوان وتحدث عن برنامجهم اليومي قائلا بكل ثبات وثقة: قمنا بخلق خلايا من أجل تسهيل حياتنا اليومية: خلية مكلفة بكبارالسن لغسل ملابسهم، وإعفائهم من التنظيف اليومي للبيوت. خلية مكلفة بتقسيم الأكل على أفراد البيوت. خلية مكلفة بالمرضى وإطعامهم من طعام المجموعة العامة، حتى يستردوا عافيتهم وقواهم. خلية مكلفة بتنظيف الساحة ورش الغبار بالماء. خلية مكلفة بالتكوين السياسي والتوعية. خلية مكلفة بالثقافة وبرمجتها حسب مستويات المجموعة، واختيارات اللغة التي يريدون دراستها (العربية، الإسبانية والفرنسية). وفي بداية 1985 قمنا بالتكوين المهني في اختصاص الكهرباء والذي تخرج من خلاله عدد من الكهربائيين، هذا مع العلم أن الكهرباء كانت مسروقة بدون أن يدرك حراس المخبأ ذلك. الكهرباء كانت من الساعة السادسة مساء حتى التاسعة ليلا. المواد التي استعملت من أجل تعليم الكهرباء؛ هي الخشب وأطباق الومينيوم وأسلاك البناء الغير محمية، وأوراق الكرتون مستغلين مصابيح البيوت. كما قمنا بتسخين المياه بالكهرباء بدون جهاز تسخين المياه المعتاد. وقمنا أيضا بتدريس الميكانيك

العامة والتي استفاد منها الكثير من المناضلين. باهتمام زائد استمعنا لمداخلته وصفقنا له بحرارة مشجعين إياهم على ما قدموه لكبار السن، وما قاموا به تجاه بعضهم البعض. تمنى لنا فرجة ممتعة ومتابعة العرض بكل جدية. تقدم محمد سالم عبد الحي لبروتو وتحدث بالتفصيل الممل عن الفوسفات، وكيفية استخراجها ونقله. وضع أمامنا مجسما لمنجم الفوسفات؛ يبين عن كيفية استخراج الفوسفات من المنجم، حتى وضعه في بواخر التصدير عبر حزام ناقل للفوسفات طوله 100 كيلومتر. يمر النقل عبر (12) اثني عشر محطة من بوكراع إلى شاطئ البحر. لكل محطة من المحطات المذكورة خمس محركات كهربائية عملاقة قوية لجر الحزام، الذي يبلغ طول كل منه 10 كيلومتر تقريبا ما بين المحطة والأخرى. من هنا يمكن شحنه مباشرة إلى سفن التصدير أو إلى الخزانات المغطاة هناك.

الفوسفات الصحراوي هو الأول في العالم من ناحية الجودة مع انخفاض كلفة الاستخراج، كما أنه يحتوي على كمية لا بأس بها من اليورانيوم. تحتوي الصحراء الغربية على 9% من احتياطي العالم من الفوسفات. شكل اكتشافه أهم مصدر اقتصادي بين مدينة أكادير ونواذيبو. كان عرضا قيما بالنسبة لنا. جعلنا ندرك أهمية ثرواتنا الطبيعية في التنمية مستقبلا. بعد العرض توالى فصول الحفل؛ وكان هذه المرة الطرب الحساني من غناء عبيد الدعكي والطنجي عبد المجيد في وصلات غنائية رائعة، برفقة العازف السالك التروزي. بعدها تم اختتام الحفل بالنشيد الوطني الصحراوي. خرجنا إلى الساحة نستنشق الهواء بنفس جديد، وبمنظرة جديدة وبأمل جديد. لعل الحلم الذي أرادوه لنا كابوسا، سيتحول عما قريب إلى فرح وسعادة. بموازة احتفالنا بذكرى 20 ماي، احتفلت النساء أيضا بهذه الذكرى بكثير من الحماسة.

بعد أشهر، أواخر سنة 1988، قام مسؤولون من عمالة ورززات؛ يتقدمهم عامل الإقليم بزيارة تفقدية للمخبأ السري قلعة مكونة. وقفوا شاهدين على المعاناة والحياة المأساوية التي يعيشها المختفون الصحراويون ضحايا الاختفاء القسري، دون أن يحركوا ساكنا ودون أن يعبروا عن استنكارهم لما رأوا من معاناة لم تخطر على بال أحد. بعد ذهابهم، وزع خدام المخبأ علينا ملابس مستعملة، في الوقت الذي فيه نحتاج لرعاية طبية وتحسين وضعية غذائية. أعلي بويا عمر ميارة يتجول في ساحة السجن برفقة عبد المجيد الطنجي المعروف بصوته الشجي وخبرته في الغناء، اقترح عليه أعلي بويا متهمكا وساخرا من زيارة عامل الإقليم والعدد الكبير من المسؤولين برفقته، فقط لتوزيع ثياب مستعملة كإهانة لنا. قال له أعلي بويا: عندي "كاف"¹⁰⁹ لك! قال عبد المجيد: تفضل وهذا شرف لي منك.

ذا من لعياد الجاك *** والعامل الجاك ولفاقا

والوساه اخييط الزاك *** دخول أساهي واقا

ابتسم عبد المجيد المعروف بحيائه وحسن خلقه وقال له: هذا فعلا يستحق أكثر من الغناء.

تميزت سنة 1989، عن سنوات جحيم قلعة مكونة بحصولنا على مذياعين، تم توزيعهما على مجموعة 76 والمجموعات الأخرى. لعبت النساء دورا كبيرا، ومشكورا في الحصول عليهما. استغنینا نهائيا عن سرقة السمع من شقوق حيطان المخبأ الذي كان مكلفا، ويتطلب جهدا مضاعفا من الجميع للحصول ولو على النزر القليل من الأخبار، نضيف له بعض

109- الكاف (بضم الكاف) في الشعر الحساني هو البيت الشعري في اللغة العربية

التحليل حتى يكتمل كخبر، له صدى معنوي على نفسية المجموعة التي نخرها بؤس حياة المخابئ السرية الجهنمية.

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، أحيانا تنقلب حياتنا في هذه المخابئ من سوء إلى أسوأ. لا يمكن أن تكتمل الفرحة بما يصلنا من أخبار عن تطور الاحداث، حتى ينزل كالصاعقة خبر مرض أحد الإخوة أو عجزه عن التحرك. هذه المرة لم يكن الأمر يتعلق بمختف واحد، بل بثلاثة مختلفين استسلموا لجبروت المرض. كل الأمراض كان يمكن التخلص منها لوأن هناك عناية صحية حقيقية، ولوأن هناك تغذية غنية وسليمة، ولو أن هناك معاملة إنسانية طيبة. تدهورت حالاتهم ولم ينفع ما استطعنا تقديمه لهم من رفع معنويات، وما نحصل عليه من تغذية نتنازل لهم عنها كي يسترجعوا بعضا من قواهم. استسلمنا لقضاء الله وقدره، وأسلم مرضانا أرواحهم لربهم والجنة مسكنا لهم إن شاء الله وهكذا:

في 29 يونيو 1989. استشهد سيدي جدود الخليفة الذي اعتقل سنة 1976. كان الرجل طيبا وحنونا وبريئا في كل تصرفاته. لا يعرف الحقد. له قلب مفعم بالمحبة وبالصدق.

يوم 19 دجنبر 1989. استشهد سليكة السالك الذي اعتقل سنة 1976. شخص متميز في كل شيء. شاعر ومرح وحكواتي. كنا نلتف حوله ونستمع إلى مغامراته في الجيش الفرنسي، ومشاركته في الحرب العالمية الثانية بمنطقة كورسيكا. نستفزه أحيانا لنرى ردة فعله التي تجعلنا نتشبت به أكثر حتى أطلقنا عليه؛ أمير الشباب بفضل جمال روحه وطيبة قلبه.

21 دجنبر 1989. استشهد أيضا الشيخ المحترم منصور محمد عبد الله منيصير. كان رجلا مؤمنا ومتواضعا. قليل الكلام له ابتسامة تحمل أكثر من دلالة، توحى لك كيف يتقبل الأشياء ببرودة أعصاب، وأحيانا كيف يرفض بدون أن يزعج الآخرين. كثير الصلاة والتسبيح والحمد.

يوم 23 فبراير 1990، استشهد يحيى الداهي ولد الناجم؛ أنيقاً وخلوقاً في تعامله. اعتقل سنة 1975، يتميز بأسلوب في الحديث قل نظيره. يحكي كثيراً من الشعر العربي والحساني. يقارن بين الشعراء ويعطيك أوجه التتابع وأوجه الاختلاف، حتى تخال من كلامه المنطقي أن الشعر الحساني هو سليل الشعر العربي؛ في كل بحوره: من مدح وفخر وهجاء وتوسل وبكاء على الأطلال وغزل. لا يرفع صوته أبداً حتى لا يزعجك، بل يفرض عليك الإنصات إليه بكل اهتمام وتشعر أن مشاعرك تنجذب إليه. حتى وهو يضحك تكاد لا تسمعها إن كان بك وقر. لا يفارق السواك أبداً فمه. يحب كثيراً النظافة. فقدنا فيه مكتبة حية من كل القيم الإنسانية.

حزن كبير خيم على المجموعات. حتى بعد كل هذه السنوات من الاختفاء القسري؛ قلب الجلال يزداد قساوة. هل الاستشفاء مكلف، وهل التغذية باهظة الثمن حتى تعجز "الدولة" عن تلبية مطالب المختفين، وتستجيب للمواثيق الدولية فيما يتعلق بحماية الأسرى والمختفين السياسيين قسراً أم أن القيم الإنسانية والدينية أصبحت في مهب الرياح؟

كادت الابتسامة أن تغيب عن محيا المختفين. كاد البؤس أن يهزم الإرادة. كاد الإحباط أن يقتل أملاً يدب بداخلنا - أمل الحلم بالحياة - حتى كاد الأمل أن يصبح بصيص أمل محتشم يتخيل، ويتشكل من خلف ضباب داكن يحجب الأفق البعيد. أن تتجاهل هذا الواقع لهو أمر في غاية الصعوبة. كل شيء من حولك يجذبك بداخله؛ كأن قوة مغناطيسية تضغط عليك، لتفقدك السيطرة على ما حولك وتصبح رهينة لها. نتلمس تحت وطأه الثقل، نتنفس، تنتعش الروح بأجمل ما حولك من نساء ورجال رفضوا الموت؛ جسدوا فصول تراجيديا ملحمة تحت رحمة الموت، وتحت سياط جلال لا يرحم. بين هذه الأسوار كل الأوقات عصيبة والحياة كئيبة. كل شيء هنا يتنفس الموت، والبؤس يخيم ويهيمن على العقول والأفكار. لم

تعد الابتسامة كما كانت مع مرور الوقت، أصبحت فاترة ولم تعد تعني شيئاً ما عدا ازدرائها لما حولها. هل هو تحد لواقع غريب؟ أم هي رسالة ود وحب لعالم من القهر والتعذيب لعله بهذه الابتسامة يلين ويرق؟ سنون الاختفاء القسري المتتالية ترخي بثقلها على الأجسام النحيفة؛ فتتحني كأزهار ذبلت بفعل جفاف حاد. الشيوخ بخطاهم المتثاقلة كأنهم أطفال تتعلم أول خطواتها، يكادون يفقدون السيطرة على أجسامهم من الوهن. كل شيء تغير بين هذه الأسوار الرهيبة. لم يعد هناك شباب، بل كهول تحاول الانبعاث من رماد الاختفاء. لم يعد هناك طموح سوى ذاك الذي يجعلك تتحمل قساوة أكثر من حجمك. لا أحد يفهم معاناتك! حتى الجلاذ يستغرب مقاومتنا ويساءل الكفن الذي كل يوم يتناقص ويفقد حجمه ونحن لم ننته بعد. الكفن رمز الموت المعلق أمامنا نراه كل يوم. يعذبنا مشهده الرهيب حين يلتف على أحدنا كأرجل أخطبوط ليتوارى إلى الأبد. يفوز الجلاذ والكفن حين يلتهم شهيدا جديدا. لكننا ننتصر ونرفض الموت، وننبعث بأمل جديد يتحدى الموت. كانت رحلة طويلة وشاقة في المخابئ السرية؛ حيث التعذيب النفسي والجسدي، وأنواع الممارسات التحقيرية بالنفس البشرية. لا رعاية صحية ولا حماية قانونية، فقط تحت رحمة قمع وتعذيب الجلاذ. لا شيء غير الألم يحيط بأسوار هذا المخابئ اللعينة (أكدز وقلعة مكونة)، حيث الموت لا يبقى ولا يذر. رحلة وجع مريرة كنت شاهدا فيها على؛ كيف تموت الرجال بانعدام الآدمية من جلاذ متعطش للدم؟ جلاذ؛ لا يمل من تصريف عقده الخبيثة على أرواح قهرها الدهر، وعانت من غدر الزمن. جلاذ؛ يتلذذ حين يسمع أنين مريض، ويرقص على صوت صراخ مختلف من فرط الضرب والرفس. بأي منطق قانوني أو حقوقي، تتم معاملتنا كأننا أشياء بدون أرواح ولا مشاعر؟ بأي حق يعبث بسلامتنا الجسدية، ونعرض للموت المنهج حتى نفنى عن آخرنا؟ أية سلطة منحت

لهذا حتى يمارس علينا بكل سادية؛ التنكيل ويجعل من حياتنا جحيما؟
هل قدرنا أن نعيش تحت سلطة بنظام لا ترحم؟

يعجز المرء عن تفسير ما وقع داخل أسوار المخابئ السرية في كل من
أكذب وقلعة أمكونة، ولا يمكن وصفها إلا بالجريمة ضد الإنسانية. داخل
هذه الأسوار استرخصت أرواح المختفين الصحراويين، وأصبح مصيرهم
لعبة في أيادي عبثية. عشنا خارج نطاق القانون، وحرمنا من أبسط
الحقوق الأساسية. لا المعاملة الحسنة ممكنة ولا الرعاية الصحية متوفرة.
أجسادنا نخرتها الأمراض وسوء التغذية. ذنبنا أننا حلمنا ذات يوم بعالم
أفضل؛ نعيش فيه بكرامة ونعبر فيه بكل حرية ونفكر فيه بدون قيود
وننتمي فيه بقناعة. تحملت أجسادنا أكثر من طاقتها. اليأس من تحسين
وضعية قتلت كل إحساس يخلق الأمل. الإحباط من تعامل حراسة قضى
على كل القيم. غياب الضمير والحس الإنساني بين الأسوار السرية، ووقع
مصيرنا المجهول على نفسياتنا ولد لدينا ردة فعل للمقاومة؛ رغم ما ذرف
من الدموع ورغم استشهاد الصحراويين غرباء بعيدا عن وطنهم بدون
مبرر.

ما أقسى الاختفاء القسري: حين تعيش الاختفاء القسري بكل فظاياته؛
كل شيء فيك يتغير نحو الأسوأ وتصبح مختلفا عن نفسك وعن الآخرين.
صعوبة المكان ولوعة الفراق والبعد عن الأوطان وانعدام الوصل مع الأهل
والأحباب والوجع الجاثم على النفوس بفعل ضغط الجلال وممارسته وجهل
المصير الذي نغرق فيه؛ يكاد يجعلك تكره ما حولك. كم هو مؤلم مشاهدة
مريض يشكو ولا أحد يبالي. ما أشد وجع وداع شهيد كان بيننا يتمنى
الحرية ومعانقة الوطن. ما أقبح أن تعيش على أمل يأبى أن يتحقق. ما
أصعب العيش ورفض الاستمرار بين هذه الأسوار. رباه هذه الأجفان
جفاها الكرى من قطع وصال سنين طويلة دون أن نعرف متى اللقاء.

مرميون لقدرنا ولا أحد يكثرث. لكي ننسى ونستمر يجب فعل أي شيء نشعر من خلاله بالحياة. شيء يجدد الأمل الذي أراد الجلاذ قتله فينا. ندرس ونتعلم ونغني رغم الألم. نعيش كأننا لن نموت أبدا. نقول للحياة أقبلي لنا ونبحث عن مكان تحت الشمس. قسوة المنفى والاختفاء القسري لم تقتل فينا رسوخ إيماننا بالانتماء. من رماد المأساة انتفضنا من جديد نريد الحياة رغم استحالتها. رتبنا أمورنا لتناسي الواقع وانطلقنا كأن شيئا لم يكن. رحل الشهيد وترك أثرا طيبا. رحيله أصبح مثالا خالدا يحكي للأجيال القادمة كيف أنه رفض كل شيء من أجل المستقبل، وأن تعرف هذه قيمة التضحية. نستعد لوداع شهدائنا بثبات وبدون ندم.

ثلاثة مائة من المختفين الصحراويين من بينهم ستون (60) مختفية صحراوية. أفرج عن مائتان وثمان وخمسون (258)؛ مودعين إلى الأبد سبعة وعشرون (27) شهيدا في أكدر المدفن وخمسة عشر (15) شهيدا في قلعة أمكونة الجحيم. شهداء نقشوا خلودهم على جدران المخابئ السرية إلى الأبد. لتبقى ذكراهم وشم عار حيثما مر زائر بهذه المناطق ليستمتع بواحات النخيل بأكدر ومروج الورود بقلعة أمكونة؛ إلا وتذكر أرواحا بريئة دفنت هنا ساعة ضياع كل القيم السماوية والإنسانية. هؤلاء الشهداء ليسوا أرقاما ليتم نسيانهم وتجاوزهم؛ بل هم بشر من لحم ودم وعظم. لهم أحلام وعواطف تم الدوس عليها، ولهم عائلات ومجتمع كانوا ينتظرون مجيئهم، لكنهم لم يأتوا. كل أسرة مختف كانت تطرح السؤال متى سيعود؟ رحلوا غصبا عنهم قبل بزوغ الشمس، وماتوا بعيدا عن الأهل والوطن. إنها دراما الاختفاء الجهنمي التي تريد إضعاف معنويات الصحراويين وتحطيم نفسياتهم ليموتوا مرات ومرات وليس ميتة واحدة. بقليل من المعاملة الإنسانية كانت ستنقذ أرواح ذهبت سدى في هذه المخابئ السرية الظالمة. أكدر وقلعة مكونة آلة جهنمية ضغطت على أعصابنا سعيا

لتحطيمنا وانهيارنا. المدة التي قضيناها فيها والتعذيب الممارس علينا لا يتناسب مع الأفعال المرتكبة التي كانت فقط تعبيراً عن رأي أو إعلاناً عن موقف لتحقيق أمل طالما حلمنا به. كنا نفكر ونمارس بدون عنف. لقد جسد المخبأ السري بأكبر انحطاط أخلاقيا ومكانا لانتهاك حقوق الإنسان، وجسد المخبأ السري بقلعة أمكونة ذاكرة لتاريخ دموي لإنساني؛ حين تحولت بفعل جلد إلى قلعة للأشواك بدل قلعة للورود. عالمان من الألم والمعاناة عاشهما الصحراويون بدون مبرر حقوقي ولا قانوني ولا جنائي.

السجن في مكونة

لما في سجون القهر راح يعذب *** سقيم صبايات له القيد يتعب
وما ذنبه إلا معال تسامقت *** وما في المعالي غير ذنب يحب
قلوب تسامت في العلا فتلاحمت *** كأن المعالي في التلاحم أقرب
رمت بهم الأقدار وسط زنازين *** فجال حمام الموت للقلب يرهب
مشاهد قوم لو رأيت مقامهم *** رأيت الأسى من أسرهم يتعذب
يحيط بهم جدار يضاهاى ارتفاعه *** سنام الرواسي ثم للأفق يحب
فناحت دموع اليأس منه تألما *** وضاق بهم رحب من القهر يشجب
فهذا من الآلام يشكو إلى السماء *** وذاك من الأستار للنجم يرقب
وجوه أصابتها الهموم فأشحبت *** وكادت أمانيتها من السأم تذهب
متى ألبس الليل الخواطر بالضا *** تناحرت الأشواق والنفس ترسب
عليهم أماط الدهر عن نكباته *** وأبدى لهم في الجرح ما لا ينضب
فغضوا عيوني عن تباريح أرواح *** فمنها ظنوني قد مضت تتضارب
تلاعبت الأحزان فوق جباههم *** من الحرمان وكيف لا تتلاعب؟
وأحداقهم قد نبهتها عشية *** مناظر أشباح تزور وتعذب
فألبسهم سوط العذاب مقدا *** وصب عليهم من حميم ليشربوا
فلو أن للأشياء إحساس كائن *** لدب الحنان فجأة والتقرب
فبين جدران المخبأ تلاطم الأسى *** كأمواج بحر غوره متقلب

شهداء قلعة مكونة ¹¹⁰

الاسم الكامل	تاريخ الاختفاء	تاريخ الوفاة
احمد ولد سويلم ولد الترفاس	1976	28 أفريل 1981
السالك ولد عبد الصمد بولسان	1976	27 ماي 1983
محمد ولد بدا ولد إبراهيم	1976	13 شتنبر 1983
الحبيب ولد احمد لحسن ديديه	1976 / 01 / 25	17 أبريل 1986
المحجوب لمديميغ ولد لعروصي	1976	18 ماي 1986
لكواري سيداتي	1985	25 ماي 1986
محمد الناجم ولد بيدي	1982	19 يونيو 1986
محمد عدنان	1976	02 يوليوز 1986
الناجم ولد احمد لحسن	1976 / 02 / 01	04 فبراير 1987
عبد العالي ولد المجيد بوسروال	1976	28 مارس 1987
الونات محمد الحبيب	1976	25 يناير 1988
سيدي جدود ولد الخليفة	1975	29 يونيو 1989
سليكة السالك ولد عبد الله	1976	19 دجنبر 1989
منصور محمد ولد عبد الله (ولد منيصير)	1976	21 دجنبر 1989
يحيى الداوي ولد الناجم	1975	23 فبراير 1990

- Rapport final. Volume 2. Vérité et responsabilités des violations. Commission -110

nationale pour la vérité, l'équité et la réconciliation P. 64

مع الاستعانة برفاق الاختفاء القسري

خبر الإفراج

21 يونيو 1991

" عندما تتخطى مرحلة صعبة
من حياتك. أكمل حياتك كناج وليس
كضحية"¹¹¹

انطلقنا من جديد وانبعث الأمل. التزمنا بتجاوز الواقع والانخراط في الاستمتاع بحياتنا بما هو متاح ومتوفر. كل منا يجد ضالته في الآخر، منه يتأسى ومنه يستمد قوته. تركّز تفكيرنا الجماعي على التلاحم وشحذ الهمم. قلوب تملؤها الثقة بالمستقبل؛ أبدا لن يخون القدر. كثفنا الزيارات واللقاءات بين أجنحة المركب. نظمنا حلقات تعليمية ومحاضرات لتجاوز الحجر المفروض علينا. نتابع الأخبار ونقف عند كل نبأ لتحليله بدقة. شيء ما يتبلور في ربوع الصحراء الغربية مع كثافة الاتصالات الدبلوماسية. سمعنا أن المفاوضات ستبدأ بين طرفي النزاع؛ الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب والمملكة المغربية مع إمكانية وقف إطلاق النار. منظمة الوحدة الإفريقية والأمم المتحدة على اتصال دائم. خصصت المجموعة فريقا لتتبع الأخبار من المذيع مصدر إلهامنا. تولد الأمل من جديد في مجموعات المختفين قسرا.

محمد سالم الدخيل عزاز، من المختفين قسرا الذي اتفق الجميع عليه ليكون صلة وصل بيننا وبين إدارة السجن. شاب عاقل ومتمزن يحسن التواصل. صادق في كل شيء ويتعامل باحترام مع الجميع. يقدر ظروف كل واحد من المختفين. يعمل بكل حسن نية، لا يبخل بإقناع المسؤولين عن

السجن لتلبية مطالبنا. هذا اليوم محمد سالم دخل وعلى شفثيه ابتسامة عريضة. من طبعه قلة الابتسام لأن ما بداخله من غضب يغلي كالمرجل عن المكان والزمان، يمنعه من إبداء أي ارتياح أو فرح. اجتمع عليه السجناء وعلى وجوههم علامات استفهام. قال هناك خبر جميل قطعاً سيسعد الجميع علمت من أحد الحراس على أننا سنستفيد من أضحية العيد. النساء أيضاً أكدن الخبر. كم من عيد أضحى مر بدون فرحة العيد. تذكرنا عيد الأضحى بين عائلاتنا وكيف كانت أجواؤه من زيارة الأهل والأحباب. نسينا متعة العيد بل نسينا العيد. كيف لعائلات عديدة من هذا المجتمع أن تحتفل وأفراد من أسرهم مجهولي المصير؟ محنة الاختفاء القسري كجريمة مركبة أنه يتخطى ألمه الضحايا إلى العائلات بل إلى المجتمع برمته.

تغيرت ملامح وجه الجلاد. يزور كل يوم جناحاً من أجنحة المركب ويخوض في حديث طويل بكل تواضع ويتعامل مع المختفين باحترام ويشرب الشاي الصحراوي معنا. كم هو منافق هذا الجلاد الذي بالأمس لا يرحم واليوم يتودد. يظن أننا لسنا على علم بما يجري على الساحة الوطنية والدولية. تغيرت حتى الوجبات الغذائية نحو الأفضل. تغير الوضع في المخبأ وأبان الحراس عن حس إنساني مفاجئ. يضحكون مع هذا ويقدمون خدمة لذلك بكل طوعية والابتسامة لا تفارقهم. سبحان مبدل الأحوال. التغذية تنوعت وأصبحت مرصعة باللحوم البيضاء مرة وباللحوم الحمراء مرة أخرى مع الخضر المختلفة. كم هي محتاجة أجسامنا النحيفة لهذه التغذية وكم هي معنوياتنا محتاجة إلى شيء من الاهتمام والرعاية يشعرونا بآدميتنا. الزيارة أصبحت متاحة بين العائلات كلما أرادت ذلك. الزنازين أحياناً لا تقفل علينا بالليل والزيارات بين أجنحة مركب الاختفاء تكثفت. حل العيد وفعلاً كانت هناك أضحية. عينوا مجموعة للذبح وقرروا كبشا لكل ثمانية أفراد. عادة هكذا كنا نستفيد منذ مدة قصيرة على حصص من

التغذية موزعة كالآتي: قنينة بخمسة لترات من زيت الزيتون ونصف كيلوغرام من الشاي وثلاثة قوالب من السكر وكيلوغرام من الحليب المجفف - نبدو - مع قنينة غاز صغيرة بين ثلاثة زنازين لتحضير الشاي بالتناوب. الكؤوس المستعملة لشرب الشاي هي نفسها كؤوس الألومنيوم التي نشرب بها القهوة والإبريق لتحضير الشاي يستعمل أصلاً لتحضير القهوة. هذه المؤونة كانت توزع مرة في كل شهر. غمرت رائحة الشواء فضاء المعتقل واجتمع المختفون قسراً فيما بينهم يشربون الشاي ويتجاذبون أطراف الحديث ويحللون وضعهم الجديد.

صحيح أن أي قانون صلب تنعدم فيه العدالة يكسر بسهولة مهما صمد. الأيام تكشف مساوئه لأنه أصلاً غير صالح على أرض الواقع، منكمش ومنغلق على نفسه لا يؤمن بالانفتاح ولا بالرأي الآخر. الطبيعة أصلاً مبنية على الحرية وترفض الانغلاق، والإنسان محكوم عليه أن يكون حراً¹¹². فالحرية ليست خياراً بل هي جوهر الوجود الإنساني. حياة المخابئ السرية تقتل كل أمل في الحياة، وظاهرة الاختفاء القسري تزرع الرعب وتضاعف رهاب المكان والزمان. فحجم التعذيب النفسي والجسدي وألم المرحلة المشؤومة يرافق الضحية ككابوس بسبب قبح المخبأ وفضائه وسوء المعاملة ممارسة علينا. ممارسة ترسخت فيها الكراهية لكل تعامل إنساني بموجبها تتألم الذات البشرية. الجلد الوحش في صفة بشر لن ننساه أبداً ولن ننس وحشية التعذيب وهمجية المعاملة. قاسية هي الظروف التي عشناها بين جدران الزنازين. تحملنا أكثر من طاقتنا وعانينا من أنواع الألم بدون رحمة. كاد الأمل أن ينهار بداخلنا ويضيع الحلم فينا إلى الأبد. رحل نساء ورجال لن نراهم أبداً؛ لكن أرواحهم في السماء ترافقنا وذكرهم سكنت وجداننا. صلوات الله عليهم بحجم ما عانوا وتألوا ظلماً. لا

شيء يعوض ما ضاع من العمر وما فقدناه من فرص. بين مطرقة القهر والتعذيب وسندان الامراض والجوع. فقط أجلنا من حمانا من الموت.

هذه المحنة أضافت عمرا الى عمري، وعلمتني كيف ينهزم الشر مهما بلغ من الطغيان أمام قوة الحق. بداخل كل ضحية صحراوي قوة تفوق كراهية الجلاء، تزرع الفضاء محبة وودا رغم ما بكت نفوسهم من ضغط المعاناة. كم مرة ظننا اننا في كابوس سنستيقظ منه. كل الآلام التي عشناها هي اليوم ذكريات مؤلة يصعب التخلص منها ومستحيل نسيانها. بعد مخاض عسير ولدنا من جديد من رحم المعاناة. نحيفة هي أجسامنا من فرط سوء المعاملة والحرمان من أي حق في الحياة، لكن قلوبنا قوية بقوة إيماننا بقضية هي حتما قضيتنا، وبعقول جربت خبث الجلاء وبمعنويات شحذتها معاناة ألم ووجع وفراق. إيماننا لا يتزعزع كما قالت أخت عمر بن الخطاب " حتى لو قتلنا سنبقى على هذا الدين " حين عزم هذا الأخير خلال جاهليته الإساءة إلى الرسول (ص) بتحريض من قادة قريش. وحاولت أخته نصحه بالعدول عن موقفه فصفعها وصفع زوجها. لكنه تراجع في آخر لحظة ليهتدي إلى الدين الحنيف. تراجع عمر بن الخطاب عن كفره ولم تتراجع أخته وزوجها عن إيمانهما.

هذا الصباح من شهر يونيو ليس ككل صباح. حتى أديم السماء ارتسمت عليه ابتسامة شفقة على حالنا. نسيم عليل يحمل عطر ورود قلعة مكونة يغمر فضاء المخبأ. الشمس ساطعة في بداية فصل الصيف. الحرس ببذل أنيقة دخلوا فجأة باحة المعتقل يتسمون، يحملون طاولة مستطيلة وآخرون يحملون جهاز تلفاز. فاجئنا الأمر وتبادلنا نظرات ريبة فيما بيننا وعلامات استفهام كبيرة لن تجد أجوبة منا في لحظة انتظار عسير. ماذا يجري؟ هل أخيرا سنتمتع بحقوقنا كمختفين طبقا لقواعد نيلسون

مانديلا¹¹³؟ وسنتمتع بالجرائد ومتابعة الدراسة والتواصل مع العائلات والاستفادة من التطبيب والتغذية السليمة. أخيرا بعد سنين طويلة من المعاناة نسترد إنسانيتنا ويصبح لنا الحق بالعيش الكريم بعدما حرمتنا منه. جميل أن يشعر المرء في لحظة يأس بأمل استثنائي يجعل دقائق القلب تتسارع فرحا وتجعل النظر يتجاوز أسوار قلعة مكونة إلى ما هو أرحب وأشسع. « يقال إن المرء لا يعرف أمة من الأمم إلا إذا دخل سجونها. فالحكم على الأمم لا يجب أن يركز على معاملتها لمواطنيها، ولكن على معاملتها لمن في المستويات الدنيا¹¹⁴ » بعد ساعة كادت أن تكون بعمر قرن من الانتظار، دخل وفد ببدلات رسمية يبتسمون ويلوحون لنا بأيديهم تحية، بعدما أخرجونا لباحة المخبأ لاستقبالهم. لم نبادر بأي شيء وكأنهم لم يدخلوا. اكتفينا بالنظر إليهم وبانتظار ما سيقع. تقدم شخص إلى جهاز التلفاز وشغله. وفد صحراوي من " الأعيان " أمام الملك الحسن الثاني يلتمسون العفو عنا. كانت ستنتظلي علينا الحيلة لو لم نكن على علم بما يجري من أحداث على الساحة الدولية. وكيف سيتم الاتفاق بين طرفي النزاع؛ الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب من جهة والمملكة المغربية من جهة أخرى فيما يتعلق بوقف إطلاق النار وانطلاق مسلسل التسوية ببادل الأسرى العسكريين والمدنيين وإجراء استفتاء حر ونزيه في الصحراء الغربية لتقرير مصير الشعب الصحراوي تحت إشراف الأمم المتحدة وأنها ستعين بعثة أممية لهذا الغرض، أطلق عليها فيما بعد اسم "المينورسو".

لا يمكن وصف اللحظة إلا بالاستثنائية في محيط اتسم خلال ما يقرب من ستة عشر سنة بالبؤس والوجع والألم والمعاناة. أخيرا سنعانق الحرية

113 - انظر قواعد الأمم المتحدة النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء.

114 - نيلسون مانديلا

وسنصبح أحرارا وستكتمل الفرحة بلقاء الأهل. خرج الوفد الذي يبدو أنه يضم شخصيات مهمة. فكانت الفرصة لنعبر عن فرحنا بخبر الإفراج عنا. اختلف التعبير عن هذا الفرح، من يتعانق ومن يتبادل التهاني مع الآخرين ومن لم يصدق بعد كل ما عاشه من ظلم. دخل الحرس وأمرونا بالخروج مجموعات لاختيار ما يناسب كل واحد من ملابس. هذه المرة ليست بملابس مستعملة إنها بالفعل ملابس جديدة. جلابيب وسراويل وأقمصة وأحذية رياضية. أكدوا لنا بأننا سنتجه إلى مكان جميل ليس كقلعة مكونة، وبأنهم ينتظرون السيارات لنقلنا. لم نستغرب كثيرا، لكن هناك حيطة وحذر. لا أحد منا يريد أن يتصرف بتهور. لا بد من التريث حتى نفهم القصة وحبكتها. سمعنا صوت محركات وأصوات منبهات. السيارات أتت. كل سيارة تحمل عشرة معتقلين وهي سيارات سياحية رباعية الدفع. كان الوقت عصرا. انطلقنا بعد سنين بدون أعين معصبة. إنها فرصة للتمتع بمناظر هذه المنطقة التي يحكى أنها منطقة الورود والجميلة بمناظرها الخلابة ومنعرجات وديانها، لكن سجلها سيبقى يضم صفحات معاناة مختفين صحراويين عاشوا أنواع التنكيل وتضم قبورا لهم تفضح المعاملة اللاإنسانية التي لقوها تعسفا من سجان لا يرحم. توقفت السيارات بعد رحلة لم نقدر وقتها ولم نشعر بتعب المسافة بفعل اضطراب أفكارنا ومعجزة ما يجري. بساحة فندق سياحي رفيع نزلنا. هناك قاعة حفلات متنقلة منصوبة. كل أربعة أفراد تمت إقامتهم بإقامة تتكون من غرفتين، أسرة مريحة وماء ساخن. خرجنا نبحث عن حقيقة ما يجري ونتفقد إخواننا. قاعة الحفلات المنصوبة بها موائد أكل وشرب وحراس من القوات المساعدة بزيهم الرسمي و"بسلامهم" بيضاء يتنقلون بين الصفوف يوزعون أنواع السجائر الفاخرة من مارلبورو، وينستون ولارك بعدما امتلأت صدور المختفين قسرا بدخان سيجارة رخيصة "Troupe".

تناولنا العشاء والتحقنا بغرفنا. بتنا الليل كله في مجموعات ندرس ونحلل ونعلق على ما يجري. جئنا معتقلين بشاحنات عسكرية مكتوفي الأيدي ومعصوبي الأعين واستقبلتنا آلة القمع بكل أنواع التعذيب. عشنا في عالم منسي ومجهول تفتقد فيه الرحمة والشفقة. عشنا كمن لا قيمة له، لا نحن بالبشر ولا نحن بالحيوانات، بل كنا مجرد حشرات مضرّة يجب أن تعيش تحت إهمال ماكر وسوط حاقد. بعد يوم من الراحة، انطلقت الحافلات تباعا - بها رجل درك يسهل التنقل عند الحواجز - تحمل المفرج عنهم كل ليلة إلى مدنهم حيث العائلات بانتظارهم. فضلت كآخرين التوجه إلى مدينة العيون عاصمة الصحراء الغربية للتعبير على أننا ننتمي لهذه المنطقة، وهنا يجب أن يكون الوصال بعد طول غياب مفروض سلبت فيه كل الحريات. لم أجد أحدا بانتظاري. شعرت بألم غربة ووحدة قاتلة ما فتأت أن تلاشت حين جاءت العائلات تطلب ضيافتي. لكن ابن أختي الذي علم بمجيئي متأخرا جاء مسرعا وأخذني إلى منزله لتأتي العائلة بعد ذلك وتكتمل فرحة اللقاء حين أخبرهم بأنني معه.

بكتابة هذه المذكرات أحاول فقط أن أفهم ما دار وما يدور من حولي عن واقع عشته بالرغم مني، دون أن أقترف أي جرم جنائي. وحتى إن كان هناك جرم جنائي ف"القضاء" وحده من يتولى تقييم هذا الجرم وإنزال الجزاء. "الشيء الوحيد الذي أعرفه حق المعرفة هو أنني لا أعرف أي شيء"¹¹⁵. أسئلة كثيرة تتجاذبني. حين تتصادم العضلات مع الفكر وتمارس العنف عليه تضيق الحقيقة بين متاهات التفاهة وسوء التقدير. رقص الجلاذ على جثث شهداء أكدز وقلعة مكونة في صورة تنطق بكل معاني السقوط الحر للقيم الدينية والكونية الى قاع سحيق وعربد بكل سادية دون احترام للنفس البشرية. ذرفت دموع غزيرة بسبب الظلم.

رفعت الأكف الى السماء استعطافا للرحمة من قهر الجلاذ. تأملت نفوس من المرض والجوع والتعذيب والرزالة ولا أحد يهتم. أحيانا الكلام الجارح أشد وقعا من رصاصة الرحمة التي تضع حدا للمعاناة. كيف يندمل الجرح وتزول الصدمة؟ هناك بقايا منا ضاعت بين غياهب المخابئ السرية- أكدز وقلعة مكونة- يصعب استرجاعها. كم من الوقت يجب أن يتوفر لاسترداد حقوق انتهكت وفرص ضاعت ومشاعر اغتيلت وآمال تحطمت؟ الصمت عن كشف حقيقة ما جرى داخل أسوار أكدز وقلعة مكونة يعتبر خذلانا لأرواح شهداء دفنوا هناك بفعل جريمة مكتملة الأركان. أكدز وقلعة مكونة كمناطق تضم مخابئ سرية تستحي من نفسها ومن مناظرها البئيسة ومن شكلها المخيف. في هذه الوضعية يصبح الإنسان كائنا هلاميا معلقا في الفراغ بدون مرتكزات. بسبب هذه الظروف الحالكة أصبحت الاختيارات هي البحث عن أنسب أشكال التكيف مع هذه الوضعية الاستثنائية واللاإنسانية؛ لأن اللحظات الحاسمة تدبر بالإجراءات الحاسمة.

بالرغم مما كتبت فاني لست متأكدا من أني استطعت تمحيص وتدقيق ما اختزنته الذاكرة كل هذه المدة. كثيرا من التفاصيل طواها النسيان مهما حاولت النبش في الذاكرة. ما كتبه سيبدو للبعض أنه تضخيم للوقائع وفيه شيء من المبالغة. لكن بكل صدق مهما كتبت لن أف هذه المعاناة حقها من الوصف والتعبير، عن قسوة المعاملة وشدة الألم وسريالية التعذيب والقهر الممارس الذي تعرضنا له نحن الصحراويين؛ ضحايا الاختفاء القسري. حقيقة ما جرى أكبر من القدرة على وصفها وتجاوز الخيال. أتمنى ألا أشعر بالذنب إن تخطيت سهوا ما يفيد ويصور حجم المعاناة التي عشناها في دهاليز أكدز وقلعة مكونة. أملي أن يفضح من سيأتي بعدي بالكتابة عن هذه المرحلة؛ حتى يأتي على ما لم أستطع الإتيان به لإثراء هذه الذاكرة المؤلمة.

كان الجلاّد مجرّداً من كلّ الصفات الإنسانيّة، مهيناً فقط لأداء مهمّته، مختلفاً في وجهه وفي ملامحه وفي أسلوب تعامله وكلامه حتّى أخفق في الحفاظ على آدميّته. في عالم الاختفاء القسري كلّ شيء محتمل وافتراضيّ، عالم مسكون بالأسرار والمجهول والغموض بسبب فظاعة الجريمة المرتكبة ونذالة الجلاّدين. أكّدز وقلعة مكونة معتقلات سرّية وظفت لتدمير إنسانيّة الإنسان وسحقها. كان مقامنا في هذه المخابئ السريّة تجاوزاً فاضحاً للقانون من جرّاء التجويع كوسيلة فتاكة للتعذيب؛ حين تحالف والمرض والرعب والحرمان من سلب كلّ الحقوق. التهديد بالقتل كان حقيقة وواقعاً عشناه، يعتمد أساليب بشعة وارتجالية وبدائيّة، كالضرب بالأعمدة والمعاول والعصي على الرأس واللكم على الوجه. لا يمكن نسيان هذه المشاهد المؤلّمة من تراجيديا الموت والألم والمعاناة الذي يضيق منه الصدر مهما رحب. كلّ شيء بين هذه الأسوار فظ وقاس: الانتظار صعب. المصير المجهول صعب. معاملة الجلاّد صعبة. انعدام التطبيب والتغذية الحسنة صعب. فراق الأهل صعب. وأصعب من كلّ هذا وداع شهيد في الغربّة بعيداً عن أرضه وعائلته. معتقلاً أكّدز وقلعة مكونة هما الشرّ بعينيّه: كانا سجناً وعقاباً معنوياً ومادياً ومنفى لكل القيم. كلّ شيء ممكن هنا ولا شيء يمكن التأكّد من وقوعه. " طالما أنّ هناك حياة، فالأمل موجود"¹¹⁶. لهذا جعلنا - نحن ضحايا الاختفاء القسري - من الفكر سلاحاً للمقاومة، وعشنا على حلم متمسكين بالأمل في انتظار تحقيقه بعيداً عن اليأس الممل. قوة الأمل لدينا اختصرت مسافات الألم. مهما تباعدت الأجساد فالقلوب موحدة، ليبدو لنا الغد واشراقته غاية في الجمال. أكّدز، قلعة مكونة، مخفر الشرطة المركزي بأكدير، مركز قوات التدخل السريع بالعيون، ثكنة الجيش قرب

116: ستيفن وليام هوكينج، صاحب كتاب " تاريخ موجز للزمن " وصاحب نظرية " الثقوب السوداء " ونظرية " اللا حدود للكون "

بلدية الشاطئ بالعيون ودرب مولاي الشريف؛ فضاءات سرية للرعب وحداثق سرية لصناعة الألم، ستظل حية في الذاكرة السياسية والجماعية تأبى النسيان وموضوع حديث بين الأجيال، كأماكن للوجع والدموع والصراخ والتعذيب النفسي والجسدي وضياح الأحلام. فضاءات في غاية السرية، كل شيء فيها مباح الا الحق في الحياة.

بعد ما يقارب من ستة عشر سنة من الاختفاء القسري، حاولت الدولة طمس هذه المرحلة بحيث لا محاضر ولا محاكمات. لم تترك أي أثر لتثثير الاعتقاد لدى الآخرين ببراءة السلطة من هذه الجريمة. أمام إفلاس الجهاز القضائي وعدم استقلاليته وسريان الإفلات من العقاب؛ رمي بنا خارج أسوار المخابئ السرية بأجسام محطمة تحمل ندوبا مادية ومعنوية، دون مواكبة ولا مصاحبة ولا تأهيل نفسي أو مادي يمكننا من الاندماج في حياتنا الجديدة. بعد ضياح كل الفرص بسبب الاختفاء القسري، تعطينا هيئة الإنصاف والمصالحة من الجمل أذنه. ما قيمة العدالة الانتقالية وفي حضنها تصدر الحقوق والحريات. أ ليس الأمر يتعلق بإرساء أسس انتقال ديمقراطي يبلور ثقافة الاختلاف ويكرس الاعتراف بالآخر ويزرع الإحساس بالمواطنة، بدل هيمنة الخوف والتردد؟ ما مصير إنصاف الضحايا في ظل تقهقر الأهداف الخمسة للحقوق؟ التراجع عن الأبعاد الفكرية والفلسفية للعدالة الانتقالية فتح نافذة على زيف ما تدعيه المؤسسات الوطنية لحقوق الإنسان التي أصبحت تهدد مكانة الإنسان؛ ضحية الانتهاكات وما كان يطمح إليه من تطلعات لصون كرامته بعيدا عن الرهانات السياسية.

كانت العدالة الانتقالية لحظة فارقة بين عهد دامي لا يعترف بالحقوق الأساسية في أدنى مستوياتها وعهد جديد يطبعه الانفتاح والتصالح والأمل، بذلت فيه جهود مضمينة وتبلورت فيه كثير من الأفكار البناءة والنقاشات

المثمرة لإنجاح مرحلة: الدولة والضحية في حاجة ماسة لها، انطلاقاً من أن فلسفة العدالة الانتقالية تستند على: تصور سياسي قوي لمفهوم الحق Le Droit وتصور حقوقي كوني لمفهوم العدالة La Justice وأخيراً على تصور فلسفي حدائي لمفهوم الإنسان L'Homme؛ من أجل تحقيق الأهداف التالية: وضع حد لجرائم حقوق الإنسان التي تتم ممارستها، والتحقيق فيها وتحديد المسؤولين ومعاقبتهم. منح تعويض للضحايا، ومنع ارتكاب هذه الجرائم في المستقبل. إعادة بناء علاقات بين الدولة والمواطن وتعزيز السلام والديمقراطية. تشجيع المصالحة الفردية والوطنية. غير أن التجربة بدأت متعثرة بعدم إشراك الضحية في كل مراحل تتبع تسويات ملفات الاختفاء القسري. فتم هدر للوقت بسبق الإصرار في إقصائه مما يعنيه مباشرة والالتفاف على حقوقه. فضاعت بفعل عقليات رجعية التفكير وقصيرة بعد النظر؛ فرصة نادرة للإقلاع نحو مستقبل متسع للجميع. ما تقوم به من أجلي وبدوني، تقوم به ضدي¹¹⁷. قد تكون صدمة ظاهرة الاختفاء القسري التي تبنتها الدولة في فترة معينة لعنة عليها. لم تستطع التخلص من ترسباتها بعد المراجعة الحقوقية والسياسية والقانونية مما جعل من التجربة سجنًا مفتوحاً بلا قضبان لضحايا الانتهاكات الجسيمة سابقاً. كل تجربة تنذر بفشلها حين تكون مبنية على عدالة لا تحمي حقوق الضحايا فتصمت بسبب الخوف. لكن في حضرة الظلم الصمت ليس من ذهب، بل هو من طين¹¹⁸.

كذبة سخيفة تلك هي تجربة العدالة الانتقالية في حق الضحايا، بعدما جعلتنا نحلم بعالم أفضل. لم تستطع مساندة التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي يتطلبها الضحايا لتحسين ظروفهم

117- مهاتما غاندي

118 - ناعوم تشومسكي

المعيشية؛ ما دام من أهدافها توفير العيش الكريم لهم. كما لم تستطع مواكبة متطلبات الانتقال الديمقراطي المزعوم "كل شيء يتغير كي لا يتغير أي شيء"¹¹⁹. الحق في البحث عن الحقيقة كاملة غير منقوصة تم التحايل عليها. محاكمة المسؤولين على الانتهاكات لم تتم، بل تمت تبرئتهم بعد رفض ذكرهم في جلسات الاستماع التي لم تحظ بها الصحراء الغربية. جبر الضرر الفردي زهيد إلى درجة أنه عمق من مأساة الضحايا اجتماعيا. جبر الضرر الجماعي أقصى الصحراء الغربية التي دارت فيها أحداث دامية سياسية وعسكرية؛ وبالتالي لم تستفد من مبادرات التمييز الإيجابي المناطقي. تطهير المؤسسات الأمنية المسؤولة عن انتهاكات ماضي حقوق الإنسان لم تشهد إصلاحا حقيقيا يبرز معالم جديدة تصون حقوق الإنسان وحرية الرأي والتعبير والتجمع والتظاهر السلمي وحق الانتماء. أما حفظ الذاكرة فقد غابت تماما بسبب ما ستوثقه من انتهاكات جسيمة تطرح الدولة أمام مساءلة قانونية وجنائية. ما جرى هو تحول وليس تحلا من الماضي الأليم. تحول في تغيير الوجوه مع الإبقاء على نفس النهج السياسي. تحول يشجب ماضي الانتهاكات الجسيمة كفعل لإنساني يمس جوهر الحقوق مع العفو وتبرئة الجلاذ. تحول من أجل إنقاذ الضحية وتقديم الإغاثة له مع تمكين المسؤول جزاء لخدماته. تحول بوعده الإصلاح مع تكريس وتميرير المصالح. وهكذا غلبت المطامح على القناعات. غاية الإصلاح هو: القيام بتفكيك وتحلل المنظومة السابقة. إدانة ماضي الانتهاكات الجسيمة ومحاسبة المسؤولين عنها. العمل على تأهيل وإدماج الضحايا؛

119 - تعود العبارة بجذورها إلى رواية "الفهد" (Il Gattopardo) للكاتب الإيطالي جوزيبي تومازي دي لامبيدوza. تُفسر بأنها استراتيجية يتم فيها تحديث النظام (تغيير الأشخاص أو الإجراءات السطحية) لتفادي انهيار الهيكل الأساسي للسلطة أو الفساد، مما يضمن بقاء الفئات المستفيدة في مكانها.

وإلا فإن العملية برمتها ستسقط في دوامة سياسة الباب الدوار¹²⁰. المحاسبة والمساءلة شرط أساسي في ظل استمرار الانتهاكات. الصمت عنها من طرف النظام تراجع. غياب تدخل النخب تخاذل وخيار العفو على المصالحة تحريف لقيم العدالة الانتقالية التي تسعى للإنصاف. تحملت الدولة عبء التغيير، لكنها وجدت نفسها عاجزة عن استيعاب التطورات الحديثة في المشهد الثقافي والسياسي الذي تتطلبه المرحلة لإنجاح التجربة الديمقراطية الجديدة؛ من خلال تحليل منظومة النسق الاجتماعي والسياسي لسنوات الرصاص، مع اعتماد مقارنة العدالة الانتقالية المبنية على تأسيس نسق حدائي تتبلور فيه معايير الحق والعدالة والمساواة. غير أن إرادة الدولة اليومية أقوى من إرادة دولة المؤسسات، حيث أن أخطر قانون هو الذي لم يدون. الثقة بين المواطن والمؤسسات تبنى بالإجراءات وليس بالكلمات التي تحتل الغموض الذي يصنع الشك، لأن السياسة لا تبنى على الأعذار والقانون لا يتفاوض عليه، بل يمارس. فساد القضاء يفضي إلى نهاية الدولة¹²¹. مقومات العدالة الانتقالية تكمن في: الحق في معرفة الحقيقة. الحق في العدالة. الحق في جبر الضرر. الحق في ضمان عدم التكرار؛ وإلا فإن العملية برمتها تمرين فاشل، لم يستوعب الساهرون عليها فهمها حتى يتم تنفيذها بالجدية المطلوبة. المخابئ السرية أكدز وقلعة مكونة وغيرها؛ لم يتم تأهيلها كفضاءات سويسيو- ثقافية لتمكين الضحايا اجتماعيا والمجتمع الذي تضرر من الانتهاكات الجسيمة. فحافظت على رداء العنف لتخلع رداء التواصل والتشارك، بل أهملت بالكامل وأصبحت أطلالا تنن تحت أنقاضها معاناة والآم تأبى النسيان. من

120 - . تم استخدام الباب الدوار لوصف الأشخاص الذين يبدلون مناصبهم من العمل كواضعي قوانين إلى

المشاركة في جماعات الضغط السياسي والعكس بالعكس

121 - ابن خلدون

يستخدم البشر مجرد وسائل، ينتهك بالعنف إنسانيتهم. كما لم يتم إطلاق أسماء الضحايا على الساحات العمومية وبعض الشوارع تخليداً لذكراهم؛ مما يفسر ضمناً إثبات جرمهم وتبرئة الجلاد.

يؤرقني وعيي الشقي. العيش حراً له ثمن لأن الموت في الحياة أنذل إذا كان العدل مستحيلاً. مستحيل استجداء العدالة ممن يعيش على اللادالة. الظلم مؤذن بخراب العمران¹²². يتزايد انتهاك الحقوق بسبب ندرة في الإنسانية. كل انتهاك هو عار إنساني. كم يوجعني تراجع حقوق الإنسان، حقوق بواجهة براقة تغري الإنسان بحب الحياة وتزرع نسيم الأمل لدى المستضعف الذي يئن تحت ثقل القهر سنين عديدة. لكن الصدمة كانت قوية ومميتة حين لم يتغير أي شيء بعد الطفرة المزيقة ليبقى الخطاب نفسه والوجوه نفسها رغم ماضيها المشين. فشلت العدالة في حماية الحقوق من الانتهاك، وضمان حق المواطن في القضاء والمحاكمة العادلة، وأصبح المجتمع رهين مزايدات وإغراءات فضلت التمدد على حساب المساواة. غاب مفهوم الحق، وضاعت أسس العدل، وتزعزع إيمان الفرد والمجتمع بالمؤسسات، حتى أصبح من الضروري القيام بعملية تصحيح؛ فيها أورش البناء المؤسساتي تتأسس على المستوى الاجتماعي والحقوقى والاقتصادي والثقافي والسياسي والمدني، لاسترجاع الثقة المفقودة، ويفتح باباً لعدالة انتقالية تحمل حلم كل مستضعف؛ حيث تبدع الدولة في بناء صرح للمصالحة مع الأفراد والمجتمع من جهة، ومع ذاتها من جهة أخرى لتجاوز الماضي الأليم في عالم أكثر اتساعاً وأفضل أماناً، تتلاقح فيه الأفكار وتتحقق منه التطلعات في الكشف عن الحقيقة ومحاكمة الجلاد وتعويض الضحايا، وتطهير المؤسسات وحفظ الذاكرة ويصبح الضحية هو محور المصالحة لإنصافه من انتهاكات ماضي سنوات الجمر والرصاص؛ حيث

سيطر العنف وهيمن الرعب، لأن الشعور بالعدل أهم من الشعور بالأمن، حينها فقط تتحقق وتتبلور معايير العدالة الانتقالية. الحقيقة والعدالة وجبر الضرر تضع ضحية الانتهاك في صلب موضوعها الذي تأسست عليه. الحق في معرفة الحقيقة حق راسخ في القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي. الحقيقة لا تموت... بل تدفن والبشر إما أن يحفروا بحثاً عنها أو يقفون على قبرها¹²³. كل المواثيق الدولية المنبثقة عن الأمم المتحدة تؤكد أن المصالحة تتأسس على الحق في معرفة الحقيقة من خلال طرح أسئلة محرّجة تسلط الضوء على الأسباب التي أنتجت الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان؛ لتفكيك منظومة تسلطية سابقة جعلت من نفسها آلة للهدم الإنساني. لماذا وقع الانتهاك، كيف وقع، أين وقع، متى وقع، من أمر بالانتهاك ومن شارك فيه وأخيراً كيف التخلص من ماض متعلق بارتكاب جرائم بشعة؟ كما يعتبر تقديم الجناة إلى العدالة فرصة لإعادة الحق للضحايا بعد الظلم الذي لحقهم من جراء هؤلاء. إن محاكمة الجلادين وإصلاح المؤسسات الأمنية المسؤولة عن ماضي الانتهاكات تبقى على عاتق الإجراءات القضائية، التي ستؤسس لها العدالة الانتقالية بشقيها القانوني والقضائي ليكونا عبرة لكل من راهن على العنف لإلحاق الأذى بالضحايا. وتقتضي محاكمة الجلادين الاعتراف بجرائمهم وتقديم الاعتذار لضحاياهم حتى تكتمل أسس المصالحة. وبالتالي في ظل هذه القيم النبيلة يعلن الضحايا الصفح من أجل بناء مستقبل مستقر يطبعه السلم بدل الانتقام والتسامح بدل الخصام. ويبقى جبر الضرر بشقيه الفردي والجماعي من جهة والنفسي والمادي من جهة أخرى؛ جوهر العدالة الانتقالية لما يتضمنه من إدماج وتأهيل نفسي ومادي وترضية وتسوية الوضع إلى ما كانت عليه قبل الاختفاء القسري مع

الأخذ بمبدأ رد الاعتبار والاسترداد والفرص الضائعة والمستوى الدراسي والوظيفي الذي كان عليه الضحية سابقا. أما فيما يتعلق بإصلاح المؤسسات المسؤولة سابقا عن الانتهاكات، تبقى عملية التطهير عملا سياسيا وقانونيا وإجرائيا يتضمن إبعاد كل فرد أو مسؤول سابق ثبت في حقه انتهاك حقوقي وتعذيب الضحايا؛ بهدف بناء مؤسسات وطنية جديدة تجعل من مهامها حماية المواطن وبناءه لما تتطلبه المرحلة من ديمقراطية ومواطنة، وإشاعة ثقافة حقوق الإنسان عبر كل مؤسسات الدولة؛ خاصة التعليم والإعلام والقضاء والأمن في إطار دولة الحق والقانون. وأخيرا حتى لا ننسى يعتبر حفظ الذاكرة درسا عميقا لتوثيق ماضي انتهاكات حقوق الإنسان؛ ليكون عبرة للأجيال القادمة ومساهمة في كتابة التاريخ من جديد مع تكريم الضحايا بتسمية الساحات والشوارع، وكذا بناء نصب تذكارية تخليدا لهذه المرحلة الأليمة وانصافا للضحايا؛ انطلاقا من مبدأ عدم تكرار الانتهاكات مجددا. بهذا فقط حين يحسنون ترميم أوجاعنا وتضميد جراحنا، نحسن نحن الضحايا تناسي ما عشناه من ألم ومعاناة من جلال لا يرحم. الألم هو أقوى الدروس¹²⁴.

سيظل ملف الاختفاء القسري مفتوحا إلى أن يتم الكشف عن مصير كل المختفين سنوات الجمر والرصاص. فذاكرة الاختفاء القسري والاعتقال التعسفي تختزن كثيرا من المآسي، ما يؤكد غياب إرادة سياسية حقيقية للكشف عن الحقيقة، ومتابعة الجناة وعدم الإفلات من العقاب. فتجربة العدالة الانتقالية في المغرب فشلت فيما يخص الاختفاء القسري، كونها تمت في ظل نفس النظام السياسي الذي كان مسؤولا عن ماضي انتهاكات حقوق الإنسان أولا، وأن المسؤولية الجنائية لم تستطع إنصاف الضحايا بمحاكمة الجلادين ثانيا؛ وأنها برأت الجلاد وجرمت الضحية ثالثا، عكس تجربة

جنوب إفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ نموذج الأرجنتين. وبهذا يمكن اعتبار تجربة العدالة الانتقالية هي عدالة انتقائية، عملت على التضييق في المادة الحقوقية وحماية الجلاذ. فكانت نتائجها سلبية على الجانب الحقوقي والحريات. كل الملفات الحساسة لا زالت مفتوحة وأهمها: ملف مجهولي المصير وملف تسليم الرفات بعد الفحص بالحمض النووي بحضور خبراء دوليين وعائلات الشهداء. بفعل الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان؛ أصبح الاختفاء القسري فعلا جنائيا خطيرا، مقننا في نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية، والاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري؛ يستهدف المدنيين وينتهك قوانين النزاعات المسلحة بوصفه جريمة حرب إبادة جماعية (م6) وجريمة ضد الإنسانية (م7) وجريمة حرب (م8) لا تسقط بالتقادم¹²⁵.

هذه الحروف حين نخطها باسم الألم والمعاناة التي عشناها، يجب أن تشفع لنا ولا تجرمننا حين تجاوزنا الخوف وفضحنا ما لم يستطع الجلاذ الاعتراف به. سرديّة حقوق الإنسان المزيّفة هذه جعلت من البنية السياسية لمنظومة حقوق الإنسان كلاما فارغا بلا تأثير؛ مما نتج عنه مرحلة تتطلب بذل جهد أمام العالم والمجتمع لفهم حقوقي يغازل المشاعر المهتزة، بدل تحين الفرصة للانقضاض عليها لحظة سكون العاصفة وفلول الموجة الدولية المطالبة بتعزيز الحقوق لصون الكرامة والحق في الحياة؛ فيها يصبح كل مدافع عن حقوق الإنسان مصدر إزعاج وعرضة للتنمر والتشهير والاستهزاء به كمدافع عن فكرة أصبحت متجاوزة فرضتها ظروف عالمية لم يعد معمول بها. في زمن الظلم، الحياد خطيئة وضرب للذاكرة الجريحة، وطمس لهوية الضحية، وتبرير لعنف الجلاذ، وإقبار

125 - انظر المواد 8/7/6 من ميثاق روما للمحكمة الجنائية الدولية. انظر أيضا الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الاختفاء القسري.

للحقيقة التي بواسطتها يتم تحقيق العدالة بدل الاكتفاء بالإدانة. إن الضحية الذي يحمل وجعه في قلبه وكرامته على عاتقه، ويرفع رأسه في ظلمة المخابئ جدير بأن يسترجع حقوقه المسلوقة في مقاومة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، ومجابهة الغربة والإبعاد القسري، لأنه يحب الحياة رغم مرارتها ويزرع الأمل في القلوب الضعيفة المهانة ويبني مجده من لا شيء. الوجد الذي لا يقال، يحفر أخايد لا تشفى¹²⁶ والكلمة الحرة ترفض العيش وراء القضبان وخلف الأبواب الضخمة. كيف لحقوق فقدت قيمتها وأصبحت حبرا على ورق أن تسترجع عافيتها؟

وجدنا مجتمعا متغيرا ومتطورا. تغيرت فيه التقاليد والعادات. مجتمع غلب عليه الطابع المادي والفردانية. حتى الثقافة أصبح لها طابع آخر. هذه المتغيرات تبدي لنا الفارق الزمني الذي قضيناه ضيوفا على أكدز وقلعة مكونة، حيث الإهمال والوجد والعبث بذواتنا وبأحلامنا. شعرنا بالغربة وصعوبة الانصهار في المجتمع من جديد. كان مفروضا على المفرج عنه أن يتعلم كل شيء من جديد - الحديث مع الناس ومصافحتهم وكسب ثقتهم والتحدث إليهم عن مراكز الاختفاء القسري أكدز وقلعة مكونة - حتى يساير المجتمع. عزاؤنا بعد الإفراج؛ مجتمع كريم وطيب فرح لقدمنا ورحب بنا بين أحضانه. شكلنا بالنسبة له رمز تضحية ومعاناة فريدة من نوعها. فتحت أبواب المنازل لنا وأصبحنا أفرادا من كل العائلات الصحراوية. ركبنا قطار الحياة وانطلقنا في مسلسل حياة جديدة بكل إخفاقاتها ونجاحاتها، استطعنا بناء الذات رغم العراقيل المادية والصعوبات المعنوية. إن أخفقنا فليست مسؤوليتنا؛ بل هي مسؤولية "الدولة" التي انتزعت منا كل رغبة في الحياة لولا تحدينا؛ حيث لم تراع

فينا لا جوانب الإنسانية ولا حقوقية. وإن نجحنا فبفضل من الله والإرادة والرغبة في البحث عن الأفضل.

الاختفاء القسري في كل فصوله حرمان وعذاب وألم. تجاوز فيه الجلاّد كل القوانين وصال بين المختفين قسرا كما يحلو له بدون رقيب ولا حسيب. الحياة في ظل الاختفاء القسري كلها مرارة معاناة ووجع؛ حيث كل ضحية أصبح بمثابة توثيق لمعاناة مريرة. لذا سأصرخ بأعلى صوتي ليتردد صداه على أسوار المخابئ السرية وفي المحافل الدولية والوطنية حتى يصحو الضمير العالمي، وينال الجلاّد عقابه على ما اقترف من أعمال بشعة انتهكت حقوق الإنسان بطريقة ممنهجة، لا للاختفاء القسري.

بعض من إبداعات المختفين الصحراويين
داخل أسوار المخابئ السرية



صورة تجسد شبها مخيفا يهيمن على المخبأ السري حيث يعاني المختفون
الصحراويون اشكالا من التعذيب. من ابداع الفنان عمر الحسان بوتكنيش



صورة جمل من نحت الفنان المبدع عمر بوتكنيش الحسان



هدايا تذكارية من نحت المرأة الصحراوية



نسخة من المجلة الثقافية التي كانت صدر شهريا وتحتوي على مواضيع ثقافية وعلمية متعددة



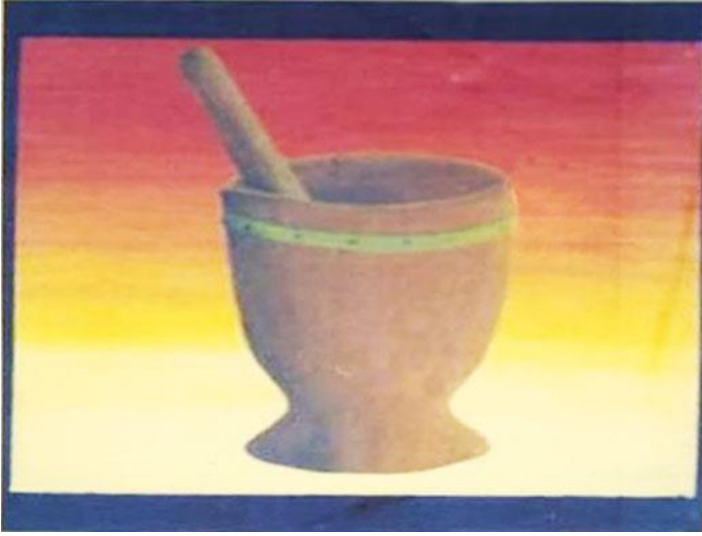
نسخة من مجلة المصباح الثقافية



لعبة دومينو منحوت من الخشب من صنع المرأة الصحراوية



حقائب مصنوعة من الورق المقوى والغراء والثوب لجمع الملابس



لوحة تجسد أحد الادوات العتيقة المتعدد الاستعمالات الى جانب لوحة
تشكيلية بتعبيرات سريرية



سبحات من صنع النساء بلمسات غاية في الابداع



صورة لعائلة صحراوية بريشة الفنان سيدمو سعيد سيدمو

فهرس الموضوعات

إهداء.....	5
تقديم.....	7
مدخل لرحلة الألم والمعاناة.....	9
ليلة الاختفاء القسري.....	42
رحلة إلى المجهول. أكادير.....	71
رحلة الموت. أكاذ.....	97
السجن في أكاذ.....	156
شهداء مركز أكاذ.....	157
رحلة الألم. قلعة مكونة.....	159
رمز الصمود.....	183
صدمة في القلب.....	205
السجن في مكونة.....	222
شهداء قلعة مكونة.....	223
خبر الإفراج.....	224
بعض من إبداعات المختفين الصحراويين.....	243
فهرس الموضوعات.....	253

